الدكتور غالي شكري

يوم طويل في حياة قصيرة

منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت

الطبعة الاولى
١٩٧٨

يـــوم طويل
في حياة قصيرة

مقدمة

(١)

« لست كاتبا سياسيا ، ولن اكون » .

هذا ما قلته حرفيا في صدر كتابي « عروبة مصر وامتحان التاريخ » ، فما الذي جرى ، أو ما الذي استجد حتى تمتلىء هذه الصفحات الجديدة « كلاما في السياسة » ؟

لقد طرحت على نفسي هذا السؤال . فانبثق منه على الفور سؤالان : أولهما ما هي الوظيفة الحقيقية للكاتب في عصرنا العربي الراهن ؟ والثاني ما هي الكتابة السياسية في وقتنا الحاضر ؟

وجدتني أنظر الى فكرة « التخصص » في ضوء جديد قديم ، في بلادنا وفي بلاد غيرنا ، ورحت أتأمل هذه الحقيقة : ان كبار المفكرين المهمومين بالانسان على مر التاريخ لم يتوقفوا عند حواجز التخصص الاكاديمي الدقيق ، بل عبروها الى الانشغال المؤقت أو الدائم الى دوائر من المعرفة والعمل لا يدورون أصلا في فلكها .. واذا قلت مثلا أن الفيلسوف اليوناني القديم أرسطو كتب مؤلفا كاملا في « السياسة » ، فان ذلك لا يعني أنه كان كاتبا سياسيا ، وكذلك الامر بالنسبة « لجمهورية » أفلاطون .

•

ومن الممكن الرد على هذا الاستشهاد ببساطة بالغة فيقال أن التخصص لم يكن معروفا في العصور القديمة ، لان مستوى العلوم كان لا يزال في البداية حتى أن تعريف الفلسفة ظل لامد طويل انها علم العلوم أو ملكة العلوم .. الى أن أخذ « التقدم » يسحب من ملكوتها علوم التاريخ والسياسة والطبيعة والاجتماع والكيمياء حتى أصبحت « الفلسفة » فرعا مستقلا بين العلوم الانسانية ، يعتمد من احدى زواياه على منجزات العلم والتكنولوجيا ، ولكنه في النهاية « وجهة نظر شاملة الى الطبيعة والمجتمع » تقنن تطورات المجرى الانساني للحياة .

ويمكن الرد أيضا بأن الافكار السياسية عند الفلاسفة ، هي جزء من كل ، جزء جوهري من كل شامل ، يتوقف عند العموميات ولا يتدخل في التفاصيل فضلا عن متابعة الاحداث اليومية .

وهذا كله صحيح ..

ولكن ما القول في عصرنا الحديث حين نلاحظ كاتبا كسارتر أو كامي أو جارودي وهم من أعلام الفلسفة والادب « المتخصصين » في فرنسا ، ومع ذلك فكتاباتهم « السياسية » لم تتوقف ، لا كجزء « عام » من فلسفاتهم الشاملة ، بل كمتابعة تكاد تكون يومية لما كان يجري في الجزائر وكوبا وفيتنام ؟

ولماذا نذهب بعيدا ، وفي تراثنا القريب أمثلة حية كالعقاد وطه حسين والمازني والدكتور هيكل ومحمد مندور ، وهم من القمم الادبية العربية رغم « اشتغالهم » بالسياسة فكرا وعملا ؟

والجواب ان وظيفة الكاتب المهموم بقضايا الانسان على وجه هذا الكوكب ، وفي عصرنا على وجه الخصوص ، وفي وطننا العربي على وجه اكثر خصوصية ، لا تلغي حواجز التخصص ، ولكنها لا تتوقف جامدة

أمام هذه الحواجز •• فالناقد الادبي وأستاذ الفلسفة والفنان ينبغي أن يتقن « الحرفة » الى أقصى الحدود ، بشرط ألا تتحول الحرفة الى ملجأ آمن من عواصف الحياة ورعودها ، وبشرط آخر لا يقل أهمية هو أن تتداخل الحرفة مع عواصف الحياة •

(٢)

والكاتب العربي المعاصر ـــ سواء كان روائيا أو شاعرا أو ناقدا ـــ يحيا الآن مرحلة استثنائية من تاريخه الحضاري والاجتماعي • وأتذكر في هذا الصدد قولا هاما لسارتر لمجموعة من الادباء الافارقة جاءوا اليه يعرضون انتاجهم الادبي ويطلبون رأيه • قال لهم : عودوا الى بلادكم واشتغلوا بمحو الامية ! وفي ظني أن سارتر لم يكن يقصد العبارة حرفيا •• بل كان يستهدف ان يضع أيديهم ـــ هم وغيرهم من كتاب العالم المتخلف ـــ على حقيقة الحقائق في ثقافة ما يسمى بالعالم الثالث ، خاصة في عصرنا الراهن الذي تتشعب فيه المشكلات وتتعقد وتتغير بسرعة مذهلة معدلات النمو ، بحيث يزداد المتقدمين تقدما والمتخلفين تخلفا • هذه الحقيقة هي أن صورة المثقف ، وخاصة اذا كان ينتمي الى اتجاه الثورة ، قد تبدلت • أضحت معايشة حارة لقضايا المجتمع الذي ينتسب اليه ، بكل ما يملك من مواهب وطاقات وأدوات تعبير •• حتى اذا اقتضاه الامر أن يعلم الابجدية لبني وطنه !

تلك هي المعاني التي أتصور أن سارتر قصدها وهو يوجه الخطاب الى مجموعة لامعة من أدباء افريقيا • وهي ذاتها المعاني التي أتصور انطباقها بغير حدود على حال الثقافة العربية والمثقفين العرب •• فليس المطلوب منهم ان « يعملوا » بالسياسة أو يحترفوها ، ولا أن يتحول أدبهم وفنهم الى منشورات سياسية ، فذلك أبعد ما يكون عن المطلوب •

ولكن المطلوب هو ان يكون همهم بوطنهم شاملا لا جزئيا ، أن يكون هذا الهم نسيجا متعدد الالوان بطول وعرض الوطن ، فالموهبة الوحيدة الجانب والرؤية بل والنضال تؤدي في خاتمة المطاف الى الهروب والرضا عن النفس وما يشبه الاكتفاء الذاتي •

وبين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٥ عشت تجربة شخصية تصلح نموذجا للرأي الذي أريد الوصول اليه • كان من الممكن أن أعيش ناقدا يتابع انتاج « أدب النصر » ، أو أن أنجز العديد من المشروعات النظرية والتطبيقية حبيسة الادراج • كان ذلك ممكنا الى أقصى الحدود ، فالساحة خالية للأسف من المواكبة الجادة للادب العربي الحديث ، وتكاد تكون هناك فجوة تتسع يوما بعد يوم بين النقد والفن في ثقافتنا • كذلك كان يستطيع نزار قباني ومحمود درويش وأدونيس ومعين بسيسو والفيتوري أن يكتفوا بالشعر ، وكفى النقاد والشعراء شر القتال !

نعم •• تلك هي المعضلة : القتال ، فقد أحس المثقف العربي المعاصر نفسه مرميا به في الميدان ، قاتلا أو قتيلا ••

لم يكن المشهد يصلح أبدا لان يبقى الكاتب والفنان شاهدا •• كان عليه ان يتسلح من الرأس الى اخمص القدم وأن يخوض غمار المعركة بكل ما يملك من أظافر وأنياب ومخالب ، أو يرفع نهائيا وعاليا الراية البيضاء ، حتى ولو كانت مطرزة بأثمن لآلىء الشعر والنقد !

كان على الكاتب العربي ولا يزال أن يدافع عن شرفه بالذات ، قبل الدفاع عن شرف الكلمة وشرف الوطن وشرف التاريخ •

ولم يكن ذلك ممكنا الا اذا قاتل بالأسنان ، وهو يرى لأول مرة حربا يتحول فيها النصر الى احتلال الكتروني ، وهو يرى لاول مرة حربا أخرى تحاصر أنبل ظواهر عصره ـ المقاومة ـ وتسعى لانشاء « اسرائيل

ثانية » تمزق وطنه أكثر مما هو ممزق • لم يكن ذلك ممكنا الا اذا قاتل بالقلب والعين واليدين ، بالحلم والشعور والصرخة ، وهـو يرى للمـرة الاولى خريطة العالم تتغير في اتجاه الفرحة مـن جنوب شرقي آسيا الـى جنوب غرب أوروبا الى قلب افريقيا ، وما أن تصل الى حدود وطنه حتى تنقلب الفرحة بالتحرر والاشتراكية والسلام الى حزن ولوعـة وفجيعة في الحد الادني من قيم الضمير الانساني على مر العصور •

لم يكن ممكنا بأي معنى ، اذا شاء المثقف ان يستحق شرفـه الا أن يقاتل عنه حتى الدم ، بمختلف وسائل القتال ابتداء من العصر الحجري الى بعد الفضاء •• وهكذا ولدت الظاهرة التي لم أشذ عنها ، ظاهرة النضال الشامل في الثقافة العربية المعاصرة ، حيث لا ينزوي التخصص ولكنه أيضا لا ينطوي في أبراج من العاج •

(٣)

وقد أتاحت لي السنوات الثلاث الاخيرة التـي عشتها في لبنان ، أن أحقق لنفسي ــ كما فعل الكثيرون غيري ــ هـذا المعنـى الذي كـان تحقيقه في القاهرة ولو جزئيا من أصعب الامور •

ولقد ضحكت كثيرا من « نقـد » أحـد الصغار لكتابـي « مـن الارشيف السري للثقافة المصرية » حين لم ير فيه الا عملا صحفيا لامعا ، وقد تباكى « الناقد » الصغير على أنني منذ « التراث والثورة » ــ وقد نشر عام ١٩٧٣ (!!) ــ لم اكتب شيئا ذا قيمة ادبية عاليـة تضاف الـى قائمة مؤلفاتي عن نجيب محفـوظ والحكيم والجنس في القصة العربيـة وسلامة موسى والشعر الحديث • وكانت فرصة ليقول الاخ الغيـور أن « من الارشيف السري » لا ينفرد بهذه الملاحظة ، بـل ان « عروبة مصر وامتحان التاريخ » و « ثقافتنا بين نعم ولا » و « ذكريات الجيل الضائع »

من بين هذه الكتابات الصحفية التي تحرفني عن واجبي « المقدس ! » نحو النقد .

وأصارح القراء بأن هذا « المقال » مناسبة جيدة أشكر صاحبه أنه أتاحها لي بالصدفة ، لاوضح الفرق الجوهري بين مفهومين متناقضين للثقافة والمثقف والأدب والأدباء :

* ان أحد المفهومين يحصر تفكيره في « ثقافة النخبة » سواء في اختيار الموضوع أو أسلوب عرضه أو وسيلة نقله ، فالكتاب ذو الموضوع الواحد هو الثقافة والمصطلحات الاكاديمية هي الأسلوب ، والمجلد الضخم الذي يزين المكتبة هو الوسيلة . وبالتالي كان المقال البسيط الأسلوب والمكتوب أصلا لمجلة أو صحيفة مما لا يليق بناقد أو كاتب . وهو مفهوم طبقي للمعرفة حتى وان رصعها صاحبها بالثورية .

* ان الافتراض المسبق بأن كتبا مثل « الارشيف السري » أو « ثقافتنا » أو « ذكريات الجيل » هي كتب نقدية ثم محاكمتها على هذا الاساس ، هو جهل فاضح اذا لم يكن مصحوبا بسوء نية متعمدة . انها ليست نقدا بأي معنى ، ولكنها مواكبة للأحداث الثقافية تؤمن بأن العمل الفني ليس هو الحدث الثقافي الوحيد ، بل ان مقدماته ونتائجه والسياق بينهما من وحي المناخ الاجتماعي والسياسي المحيط ، كلها أحداث تستحق التسجيل .

* وتسجيلها بطبيعة الحال « شخصي » فهي ليست كتبا في التاريخ، ومؤلفها ليس مؤرخا . وانما هو يسجل ما رآه وما سمعه ليقدم « مادة أولية » للمؤرخين القادمين . وهو بذلك ينقذ مرحلة كاملة من الضياع المؤكد . وهنا أحب أن أقول أنه « ربما » كان البعض — وهو قلة قليلة — يعرف بعض ما جاء في هذه المذكرات ، فهي ليست أسرارا ولم تنشر قط بهذا المدلول ، ولكن القضية هي أن من يعرف لا يكتب !

* وأخيرا ، فان أمثال هـذه الكتب ــ المذكرات ، ليست مجـرد « وثائق عن الماضي » بل هي مشاركة حيـة في الحاضر ، بكشف الحقائق حتى يستنير بها « العامة » ممن لا يقـرأون محفوظ والحكيم وسلامـة موسى والبياتي وغـادة السمان ، واذا قرأوهم فانهم في الأغلب لا يقرأون عنهم ، واذا قرأوا عنهم فهم يجهلون مـا جرى في الكواليس : في دهاليـز المكاتب والسجون والصالونات وسرايات الحكم • يجهلون « المواقف » التي أدت أو لم تؤد الى هذا العمل الفني أو ذاك ، والتي أدت الـى لمعان أو انطفاء هذا الكاتب أو ذاك ، والتي أدت الـى ازدهار موجه وانقراض أخرى •

ليس هذا كله مهما !

وانما المهم هو أن مفهوما جديدا للثقافة يولد مـن الوحل الدموي لمعارك الأمة العربية ، لا يستنكف بمقتضاه المثقف مـن الخوض فيه حتى العنق •• شأنه في ذلك كشأن ما نسميه « الانسان العادي » •

(٤)

وقد حاولت في مصر بقدر ما أستطيع أن أحقق لنفسي ما أشتهيه من هذا المفهوم ، قليلا ما نجحت وكثيرا ما أخفقت • لذلـك فانـني مديـن للبنان الى أقصى الحدود ، على نقيض مـا يراه بعض « نقادي » مـن أن بيروت استهلكتني ، ففي لبنان تمكنت من أن أمنح كـل مـا أملك مـن طاقة ، لتحقيق هذا المعنى للثقافة الجديـدة • وانـني لفخور حقـا بأن أصدرت كتابا مثل « عروبة مصر وامتحان التاريـخ » في مواجهـة الردة الاقليمية الموجعة التي تحياها ــ أو تموتها ــ بلادي • وانني لفخور أيضا بأن أصدرت « من الارشيف السري للثقافة المصريـة » في مواجهة الحملة الضارية على المرحلة الناصرية من تاريخ وطني •

انها طلقات مدفع في ميـدان مشتعـل بالنيران ، وليست مؤلفـات

أكاديمية وقورة تحتل ركنا أنيقا من مكتبة .

هذا صحيح ..

أعرف ذلك ، واكرر أنني فخور به . ولكني أحب أن أطمئن البعض ـ اذا كان غيورا حقا على النقد والأدب وعلى شخصي ـ ان هذا « القتال » لم يصرفني قط عن تخصصي الدقيق . واذا كان كتاب « التراث والثورة » قد صدر عام ١٩٧٣ فان المفكر والناقد الحقيقي ليس ماكينة تلد المؤلفات الهامة مرة كل عام ! ان الصحافة اللبنانية والمناخ العربي اللاهث لم ينهكني بل زادني قوة ، وأضاف الى مشاريعي الطويلة المدى زادا لا ينفذ من الخبرة الحية والمعايشة الحارة وفتح عينيّ على حقائق كانت خافية وراء المجردات من شأنها أن تثري رؤيتي للفن وممارسة النقد على السواء . كما انها أغنت وجداني والهبت احساسي بكثير جدا من الدقائق والتفاصيل الصغيرة التي تحجبها عادة رؤية الغابة من بعيد .

لذلك أعترف مزهوا بأنني مدين للبنان .

وأساسا للصحافة اللبنانية .. لمجلة « البلاغ » ومجلة « الدستور » وجريدة « المحرر ». للاساتذة غسان شرارة وعلي بلوط ووليد أبو ظهر.. فقد كان من اليسير عليهم ان يأخذوا « تخصصي » وينتهي الامر ، كان من اليسير عليهم أيضا أن يمنحوني « الحرية » التي منحها لهم الدستور والقوانين اللبنانية . ولكني أعترف بأن ثلاثتهم ـ وخاصة الاستاذ وليد أبو ظهر في « المحرر » ـ أعطوني ما هو أهم . أعطوني « نفسي » بلا زيادة أو نقصان . ان الشعور بالاستلاب يلازم المرء في كل زمان ومكان. ولكني أشهد أنني في لبنان وبرفقة الزملاء في المنابر الثلاثة ، أحسست بالاغتراب الروحي يتضاءل الى ما يشبه الحد الادنى .

هذه هي الحقيقة •

ان استعادة الذات من أثمن الهدايا التـي يمكن للانسان أن يحصل عليها ، أيا كانت الخسائر الاخرى ! بـل ويصبح « وضـع الرأس عـلى الكف » من أمتع لحظات الوجود ، بعد أن كان هاجسا يطارد المرء بالحيرة المدمرة في اليقظة والمنام •

ان استعادة النفس من احدى الزوايـا تعادل اكتشاف معنـى مـا لوجود فاقد المعنى •

واستعادتي لنفسي التي يشكل هـذا الكتاب صورة تقريبية لهـا . هي الخروج من طوق رد الفعل الارادي الى دائرة الفعل العفوي المباشر• هي دائرة الثقافة الجديدة فكرا وسلوكـا وأداة تعبير وجمهـورا وجهت وأوجه اليه الخطاب ، هي الحركة والموضوع زمانـا ومكانـا وأسلوبـا وقضية وحياة •

(٥)

ولقد أتاح لي العمل الصحفي في لبنـان بين مقدمات حـرب تشرين الاول ١٩٧٣ ونتائج اتفاقية سيناء في أيلـول ١٩٧٥ أن اكون قريبا غايـة القرب من قلب الاحداث في الوطن العربي ومصر •

نعم ، أصبحت قريبا من مصر اكثر مـا كنت داخلها . ومن المقاومة الفلسطينية في تفاصيل وجودها اللبنانـي ومحيطهـا العربـي الاسرائيلي الاميركي على السواء • وعشت بطبيعة الحـال أهوال الحـرب اللبنانية لحظة فلحظة لا دقيقة دقيقة فحسب •

وقد أتيح لي أن أتابع عن قرب ثلاثـة أحداث رئيسية . هـي انتهاء التمرد البرزاني في شمال العـراق حيث رافقت حوالـي اربعين صحفيـا أجنبيا من مختلف انحـاء العالم الـى أعلـى الجبال وشاهدنا الساعات

التاريخية التي اختتمت القتال بالتسليم . كذلك شاهدت مع حوالي الف صحفي ومذيع ومصور ومراسل قمـة سالزبورغ بـين الرئيسين المصري والاميركي . وهي القمة التي سبقتها بروفـة فشل كيسنجر ولحقت بهـا اتفاقية سيناء الشهيرة ، وفيهـا تـم وضع السيناريـو المصري الاميركي لمتغيرات المنطقة عموما ومصر خصوصا . كما شاهدت مـع الفي صحفي ومندوب القمة التاريخية في هلسنكي حيث تـم التوقيع الحقيقي عـلى خريطة العالم الجديدة بعد انتصارات فيتنام وكمبوديا والثورة البرتغالية واهتزازات الفاشية في اسبانيا وانقلاب ميزان القوى السياسية في ايطاليا وتحرر بعض المستعمرات الافريقية العريقـة مثـل انجولا وموزامبيق . واكتساب منظمة التحرير الفلسطينية يوما فيوما شرعيتها الدولية .

و ..
ولا زلت أحيا
أحيا حياتي للمرة الاولى كما أحب
ولبأت الموت غدا ، فلن أخسر شيئا .

(٦)

وبعد ،
فليس هذا كتابا في السياسة
ولا أنا كاتب سياسي
ولكنه رحلة في عمري وعمرك وعمر الوطن وعمر العصر .

غالي شكري

بيروت ـ كانون الاول ـ ديسمبر ١٩٧٥

القسم الأول

أوراق السلم في زمن الحرب



نحو برنامج علمي لثورتنا

لم يعد هناك وقت !

فسباقنا مع الزمن لا يحتمل الانصات الـــى وقـــع دبيب النمل فوق خدودنا ، بانتظار المعجزة .

لقد برهن النظام العربي الراهن . باستثناءات نادرة لا زالت في طـور التجربة (١) انه أعجز من ان يقيم الدليل على شرعية بقائه . . بـل هو قـد اثبت بما لا يدع مجالا للريبة أن تفريطه في ماضينا وحاضرنا يهـدد مستقبل امتنا كلها بالضياع . انه لم ينجز الحد الادنى المطلوب لحمايـــة الاستقلال الوطني ، وانما هو يضاعف التخلف والدكتاتوريـــة والاحتواء الاستعماري لامتنا ، بحيث بات مستحيلا ان نتوقع مـــن مهادنته او مساومته شيئا على الاطلاق .

بل ، لقد بات الامر واضحا اكثر مـــن أي وقت مضى ، أن مجموعة التحالفات التوفيقية التي اقامتها بعض اطراف الثورة العربية مـــع بعض الانظمة (٢) كانت ثمرتها الناضجة من نصيب الانظمـــة وثمرتها المرة مـــن نصيب الثورة . ولربما كانت دروس حزيران ١٩٦٧ وما تلا هذا التاريخ من فواجع ـ اكثرها بروزا مذابح ايلول ٧٠ في عمان ومذابح ايلول ٧٢ في جنوب

---

(١) كتجربة النظام التقدمي في اليمن الديموقراطية ، وتجربة الجبهة الوطنيـــة التقدمية في كل من سوريا والعراق .

(٢) التحالف في ذاته عمل وطني ، ولكن الاشكال الدكتاتورية للتحالف هـــي التي تفرغه من مضمونه الثوري .

لبنان ـ من الشواهد الدامغة على ان النظـــام العربـــي الراهن في خطوطه الغالبة قد تحدى ابسط مواثيـــق المصالحة . انـــه يفرض الهجوم تحت شعارات الاتحاد والتآلف .

ان المظهر الخارجي للثورة الآن ، مؤسف وكئيب .. فلا احد ينكر ان ضعفا طارئا قد الم بالمقاومة الفلسطينية وحركات المعارضة الديموقراطية في بعض الاقطار العربية، ولكن احدا لا ينكر في نفس الوقت ان وحشية الهجوم الرجعي هي انعكاس لحساسية رادارية عنـــد الثورة المضادة ، مفادها ان الامور ليست تماما كما يعبر عنها المظهر الخارجي .. فثمة قطاعات عريضة من الجماهير العربية بدات تنسلخ عـــن الشعارات البراقة اللامعة التـــي كسبت من ورائها بعض الانظمة الشيء الكثير ، واقله كـــان قدرتها عـــلى الاستمرار . ان شعارات الاشتراكية والحرية والوحدة ، لم تعد كافية عند هذه الجماهير لتحويل احلامها الى حقائق .. ففـــي التطبيق العملي تواجه هذه الجماهير بواقع رأسمالية الدولة وما يفرزه من جشع الطبقات الجديدة وافقار الطبقات الكادحة . في التطبيق العملي كذلك ، تواجه هذه الجماهير بواقع الارهاب الدموي المباشر والارهاب الفكري المتزايـــد . واخيرا ، فان هذه الجماهير تواجه في التطبيق العملي ، بتحالفات علويـــة للانظمة تحركها معايير خارج نطاق الواقع الاجتماعي العربي ولا علاقة لهـــا بالمعنى الحقيقي للوحدة العربية . ولا تجد هذه الجماهير في النهاية الا ان تنسلخ عـــن هذه الشعارات انسلاخا عفويا غير منظم لا يقابله البحث عن بديل .

ومن زاوية اخرى ، ثمة قطاعات عريضة مـــن المثقفين الذين ارتبطت مصالحهم زمنا بهذه الانظمة ، تبينوا بعـــد هزيمة ١٩٦٧ انهم يفقدون الغاية التي من اجلها رأوا الخلاص في يوم من الايام على ضوء هذا الارتباط . لقد اكتشفوا ـ وان يكن في وقت متأخر ـ ان هذه الانظمة تعادي جوهر الثقافة، حتى وان بررت ونظرت ودعمت بقاءهم في ظـــلال السلطة . اكتشفوا ان الصياغة العسكرية البوليسية لاي نظام ، تتناقض جذريا مع الثقافة ، ايـــا كان اتجاهها . ولم تعـــد الجيوب المتورمـــة بكافية لان تبقي عـــلى الصلات العضوية بين هؤلاء المثقفين وانظمتهم ، فالهـــوان والرعب المتواصل افقدهم الثقة في « قيمتهم » لا في اعين مواطنيهم فحسب ، بل في أعين النظام الذي ينتمون اليه ايضا . ولقد تضاعف شعورهم بفقدان الثقـــة حتـــى انهـــار كبرياؤهم امام انفسهم وبدأوا في عمليـــة الانسلاخ التدريجي عن ارتباطهم

القديم . ولكن دون ارتباطات جديـــدة ، تورطهم في مسؤوليـات جديـدة والتزامات من نوع جديد .

هناك ايضا التناقضات الاصيلة بين بعض الانظمة التي ترفع شعارات الوطنية والتقدم بغير انجاز ، والانظمة العفنة المتهرئة التـي لا ترفـع هذه الشعارات وتجهر في الخفاء والعلن بمعاداتهـــا للاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي . لقد بدأ هذا النوع من الانظمة يحس بأنه في مركز قوة وسيادة لانه يباشر السلوك المتفق مع مصالحه دون مزايدة او مواربة . انـــه يباهي بصراحته و « استقامته » ويذل الاخرين على التوائهم وقلة حيلتهم ، وبماله وارتباطاته الاجنبية المشبوهة استطاع ان يثبت اقدامه السياسية في بعض الاراضي التابعة لهذه الانظمة . وأيا كان الامر ، فان هـــذه الاقدام لا تثبت دون مقاومة فالتناقض يبرز دائما بين عزيز قـــوم ذل وبين الصفر « الذي اصبح له سعر » كما يقول المثل الدارج . ومهما كانت لمعة الشعار « العمل العربي المشترك » او « قومية المعركـــة » ، فان غرور راس المـال العربي الكبير والمتحالف عضويا مـــع الاحتكارات الامبريالية ، سيولـــد بالضرورة صراعا على السلطة المحلية في هـــذه الانظمة الوسطية المقهورة بين الاجنحة الموالية تاريخيا لامراء البترول العربي ، والاجنحة التي كانت تود الاحتفاظ بماء الوجه امام شعوبها .

غير ان « الحقيقة الكبرى » التي تقف في وجه هذه المحاولات كلها بدءا من الثورة المضادة المكشوفة والمقنعـة وانتهـــاء بالترميم الجزئـي للبيت الداخلي ، هي الاحتلال الاسرائيلي .. هذا الاحتلال هـــو الصخرة التـي ستتحطم عليها كل محاولات « التوحيد والصراع » التـــي يمارسها النظام العربي الراهن ، بمختلف اشكاله الرجعيـة المتطرفـة والوسطية . سوف يظل « تحرير الارض » هو السؤال الجاثم عـــلى صدر هـــذا النظام بغير جواب .

واذا كان الغرب الاستعماري ضالعا مع أجزاء عريضة من هذا النظام في الحيلولة دون الجواب ، فان الشرق الاشتراكي لم يعد شغوفا فيما يبدو ان تتخصص طائراته واسلحته في ضرب القوى الثوريـة وان تتخلـى عـن مهمتها التي اوفدت من اجلها ، وهي المساهمة في دعم حركة التحرر الوطني العربية ضد الصهيونية والاستعمار .

هذه هي المجموعة الاولى من الاسباب التـــي يلتقطهـا رادار الثورة العربية المضادة رغم الضعف البادي على قـوى الثورة ، ويحسب حسابها جيداً ، ويضاعف ــ من ثم ــ ضراوة قتاله العنيف . على ان هناك مجموعة اخرى من الاسباب الاكثر ايجابية ، تدعـــو الثورة المضادة الـى مزيد من اليقظة والحذر والاهتمام والمجابهة .

أول هذه الاسباب ان المقاومة الفلسطينية ، رغم كل ما شابها من آثار الجراح والطعون وتجارب التصفية لا تـزال محتفظة بالنواة الصلبة اللازمة لكل تنظيم سياسي مقاتل . بل ان « الآلام العظيمة » التي كابدتها المقاومة ، قد نقلت ــ موضوعيا ــ الظاهرة الفلسطينية مـن مستوى الخيـام اللاجئة الى مستوى القواعد الفدائية المقاتلة ، كمـــا نقلت الصراع مـن الصعيد الاقليمي الضيق الى الصعيد القومـــي الواسع . ان القضية الفلسطينية اصبحت عند الملايين من غير ابنـــاء فلسطين ، قضيتهم الخاصة . كما ان الوعي بهذه القضية قد ارتفع كثيرا ــ بفضل المؤسسات الثقافية للمقاومة ــ من اللهجة الانشائية العنصرية الى النغمة العلميـة العصرية . ان المضمون التقدمي الديموقراطي لفلسطين المستقبل قد حل ــ الى حد كبير ــ محـل المضمون العرقي العاجز عن الانجاز .

ثاني هذه الاسباب هوتلك المجموعة مـــن الاجراءات الوطنية التـي اتخذتها بعض الانظمة في مجال الاقتصاد ، تحت ضغط ظروف عديـدة ، اذ يصعب اكتساحها من الطريق دون حروب اهلية لا تبقـــي ولا تذر . لقـد تعرضت بعض هذه الاجراءات لموجة مـن « التنازلات التشريعية » في بعض الانظمة (١) ولكنها تعاظمت في البعض الآخـــر . ولا ادل عـــلى ذلك مـن الضربات العراقية والسورية الاخيرة لشركة نفط العراق ، انهـا « سويس جديدة » ان لم تزد بموازين الوقت الصعب الذي تمر فيــه المنطقة العربية بأسرها الآن . ان تجارب القطاع العـام والتسيير الذاتي والاصلاح الزراعي ومجانية التعليم والتصنيع الثقيل ومشاركة العمال في الاربـاح والادارة ، وغير ذلك من « مكتسبات وطنية » حققتها شعوب مصر وسوريـا والعراق واليمن الجنوبية والجزائر والسودان ، في هذه المرحلة او تلك مـن مراحل المد الثوري ، لم يعد من السهولة بمكان « انتزاعها » مـــن اصحابها ، رغم

---

(١) لعل سودان النميري هو ابرز الامثلة في هذا الصدد .

التخريب السياسي والفكري المنظم الـذي تمارسه الطبقات الجديـدة وقياداتها . سوف تظل هذه المكتسبات نـواة صلبة لا سبيل الى تفتيتها الا بالدم .

ثالث هذه الاسباب هو تلك المبادرات الخلاقـة ـ وان تكـن عفوية ـ للجماهير ، وعلى وجه الخصوص مبادرات الطلبة والعمال . ان تلاحق هذه المبادرات في فترات قصيرة متتالية ، يخلق اضطرابا للانظمة لم تعرفه طيلة المرحلة الماضية ، حتى بالنسبة للاجزاء التي شهدت الانقلابات العسكرية ، لم تعرف هذا الاضطراب بمعناه الجديد القادم مـن حركة الشارع ، لا من فوق دبابة . كذلك تعدد اشكال هذه المبادرات ، من التظاهر الى الاعتصام الى الاضراب ، اي قدرتها على التكيف وفقا لمنطق الظرف الخاص . واخيرا ما تتمتع به هذه المبادرات من وعي سياسي ناضج يقيهـا شر المنزلقـات المحتومة لكل حركة تلقائية .. هناك الى جانب ذلك كلـه نواقص واخطاء عديدة ، ولكن العجلة تدور ، والانظمة لم يعد امامها سوى العدو ، ولم يعد وراءها سوى هذا البحر المتلاطم من المبادرات الثورية الشجاعة .

فلتفرق وحدها ..

ولنحذر ان نقدم لها يدا تاكتيكية باسم « وحـدة القوى الوطنيـة والتقدمية » لان المطلوب حقا هو « وحدة اليسار »، « وحدة قوى الثورة ». ولنحذر رعبنا من « البديل الاكثر رجعية » ، فهـو لن يجيء على بساط من زهور .

فلتفرق وحدها .. في بحر من الدماء والاشلاء والجماجم ، سواء كان صراعها مع البديل الاكثر رجعية أو مع ارهاصات البديل الثوري .

فلتفرق وحدها ..

ولنحذر شعار « الاسقاط » لهذه الانظمة ، لانـه شعار لا يرفع الا ساعة الصفر . ولان ساعة الصفر لم تجيء بعد ، فان رفـع الشعار يصبح غير ذي موضوع ، بل هـو يمنحها سلاحا جاهـزا للضرب ، لا مبرر لان نصنعه لها بأنفسنا .

فالثورة الحقيقية كبديل لم تنضج بعد ، وعلى مـن ينادي باسقاط

الانظمة ان يكون مستعدا للحلول مكانهـــا . والمرحلة القادمة هــي مرحلة الاستعداد للمواجهة الشاملة .

ومرحلة الاستعداد هذه تحتاج من ناحية الى مراجعة جذرية للماضي، واستراتيجية كاملة جديدة للمستقبل ، على ضوئها يمكن تحديد تاكتيكات الحاضر .

ولست متخصصا في شؤون الاستراتيجية والتكتيــك ، ولكنــي ارى مجموعة من المواد الاولية التي لا بد وان تتوفر في بناء ثورتنا منذ البداية . لا بد لنا في مرحلة الاستعــــداد ان ننجــز مهمتين عاجلتين : اولاها تنظيم صفوف الثورة ، والاخرى هي تنظيم الفكر الثوري .

واقول « تنظيم » صفوف الثـــورة ، ولا اقــول « توحيدها » . ان التنظيم قد يحتمل التعدد ، كما يحتمل الوحـــدة . والظروف الموضوعية وحدها ، الخاصة بكل موقع وبكل فرقة ثورية وبكل جبهة قتال ، هي التي تحدد ضرورة التعدد او ضرورة الوحدة . انني مثلا ، لست مع القائلين في الحزب الشيوعي السوري بقيام حزب شيوعي عربي . هــذه الدعوة ، فوق انها رد فعل عنيف لاتهام الشيوعيين مــــن جانب القوميين بمعاداة الوحدة العربية ، تتجاهل الواقع الموضوعي الخاص بكل قطر عربي على حده . بــل ان تصور البعض ان الاحزاب الشيوعية وحدها هــي مراكز الثورة العربية هو تصور وهمي وقاصر . ولا يقل عنه توهما وقصورا هو قول البعض بأن الاحزاب الشيوعية العربية قد اصبحت عـــلى يمين حركة الثورة ولم تعد قطبا جاذبا لقوى الثورة الجديدة .

وليس هذا صحيحا . ان تغييرا جذريا عميقا في المنطقة العربية لا يمكن ان يتم بغير هذه الاحزاب . انهـــا بالاضافة الـــى رصيدها التاريخي من الصواب والخطأ ، تملك في خاتمة المطاف نظريـــة ثوريـــة للتغيير ، هــي الماركسية اللينينية ، اخلصت لها هذه الاحزاب ، رغم كــــل الاخطـــاء ، اخلاصا وصل بالعديد من عناصرها القيادية الـى درجة الاستشهاد . غير انه ، اذا كان من المستحيل احداث تغيير جذري عميق في بنية الوطن العربي بغير الاحزاب الشيوعية ، فانـــه بالمقابل لا يمكن لهــذه الاحزاب ان تقوم بدورها الثوري دون ان تحدث تغييرا مماثلا في بنائهـــا الفكري والتنظيمي . ان بعض هذه الاحزاب لا يـــزال متشبثـا بالنموذج الستالينـي في الفكر

والتنظيم ، وبعضها الآخر على النقيض يكاد يكـون تنظيما برجوازيا . وبين الجمود والفوضى تترعرع بـذور الانشقاق والانقسام في صفوف هـذه الاحزاب . ان وحدتها الداخلية ، ينبغي ان تكـون مشروعا ثوريا جديـا لا يقبل التسويف . ولا سبيل لوحدة داخليـة بغير استلهام مخلص لمبادىء وتجربة لينين في المركزية والديموقراطية ولا بغير استيعاب تاريخي جدلـي لواقعنا المحلي ، ولا بغير مواجهة شجاعة لمتغيرات العصر واحتياجات الثلث الاخير من القرن العشرين ! ان الماركسيـة اللينينية كما يتعلم كـل عضو جديد في هذه الاحزاب هي « دليل عمل » يستجيب بحيوية خارقة لكل مـا يستجد على لوحة العالم والحياة من حولنا . لذلك كـان عـلى الحزب الشيوعي في كل قطر عربي ان يقدم البرهان العملي ، في الممارسة اليومية ، على انه جدير بالانتساب الى الماركسية اللينينية ، ومن ثم تأتي مشاركته في قيادة الثورة « استحقاقا » بمنجزاتـه الراهنـة ، لا بتاريخه الطويـل فحسب . هكذا لا يصبح الحزب لافتة مضيئـة باسم ماركس لامعة باسم لينين ، بل يصبح قدوة خلاقة للعمل الثوري .

اعادة النظر في تنظيم صفوف الثورة ، يجرنا الـى ظاهرة ايجابية لم تثمر بعد ثمارها المرجوة . وهي ان اعدادا كبيرة مـن المثقفين العرب ، لهم قواعدهم التي تقل هنـا وتزداد هناك ، قـد بـدأوا حياتهم السياسية والتنظيمية في مواجهة الماركسية . ولكن السياق التاريخي للنضال العربي والانتصارات المؤكدة للتجربة الاشتراكية في العالم ، قـد انعطفت بهم الى طريق الماركسية خارج الاحزاب الشيوعية . بعضهم ينتمي تاريخيا الـى حركة القوميين العرب ، او الـى حزب البعث ، وبعضهم ناصري ، وبعضهم مستقل ، بصدد هؤلاء يجب الاقرار مبدئيـا بان الماركسية ليست حكـرا للحزب الشيوعي . كذلك يجب الاقرار بأنه ليس هناك ما يمكن القول عنـه بأنه جاء متأخرا أو انه تأخر في الوصول . ان الانسان ككائن ، قابـل للتغير والتشكل ، فالظاهرة المعاكسة موجودة ، اي انتقال بعض الشيوعيين الـى مواقع مضادة للماركسية . ويجب ان نقر اخيرا بأن ثمـة تراكمات للماضي تولد لدى البعض من هؤلاء الذين ناهضوا الماركسيـة بالامس ، حساسيات خاصة ازاء الشيوعيين والاحزاب الشيوعية .

بعد هذه الاقرارات الثلاثة ، عـلى التفكير الثوري ان يقبـل الظاهرة الجديدة ويدعمها ويطورها من موقع التجربة المشتركـة والممارسة الحيـة والتفاعل الصحي لا من موقع التعالـي أو الشك او الرغبـة في الالتهام

التنظيمي . هذه الصفات المضادة للعمـــل الثوري الحقيقي ، تكـاد تكون قاسما مشتركا بين معظم الاطراف ، وبخاصة اذا كان احدها ينتمي لحزب يهيمن على السلطة .

على أن القول بهذه الظاهرة الجديدة التي يقبل فيهـا بعض الشباب الوطني المناضل الى الماركسية لا علاقة لها بالظاهرة الاخرى التي روج لهـا الكثيرون في الداخل والخارج ، والقائلة بأن هناك قطاعات مـن البرجوازية الصغيرة اساسا يمكن ان تشارك في بنـاء الاشتراكية بغير ماركسية . وهي النظرية التي استدرجت بعض عناصر السلطة العربية الـى مـا هو اكثر تطرفا : انه يمكن بناء الاشتراكية بغير اشتراكيين ! لا هـذا ولا ذاك قريب من العلم والتجربة التاريخية . ان الاشتراكيات الطوباوية هـي بنت عصر مضى . واشتراكية عصرنا هـي الماركسية . والاشتراكيات البرجوازية في اوروبا : اما انهـا « اشتراكيات وطنيـة » كتلـك التـي نادى بهـا هتلر وموسوليني ، اي انها ثوب براق للنازية والفاشية ، واما أنها « اشتراكيات ديموقراطية » كتلك التي يرفع رايتهـا حزب العمال البريطاني والاحزاب المماثلة في فرنسا وايطاليا ، وهي الاحزاب التي تشارك عمليا في التعبير عن سلطة الاحتكارات الامبريالية . واما انها اشتراكيات « منبثقة من واقعنا » كما يتغنى بهذا الشعار الديماغوجي قـادة مـا يسمى بالعالم الثالث ، وخصوصا عالمنا العربي ، وهي ليست اكثر مـن رأسمالية الدولة الحديثة الاستقلال . ان تجربة كوبا ، ومن بعدها شيلي ، هي الرد الحاسم والمدوي على هذه الشعارات المضللة .

ان ثورتنا القادمة ، هي بالضبط ، ثورة في مواجهة هذه الاشتراكيات المزيفة التي أفقدت اجزاء لا يستهان بهـا مـن الجماهير العربية ثقتها في « النموذج الاشتراكي » للحياة . علينا ان نعيد للاشتراكية معناها الحقيقي المستلب . لذلك فثورتنا القادمة هي الثورة الاشتراكية ، وعمادها النظري دون لف او التواء هو الماركسية .

وهذه النقطة هي التي تجرنا الـى مناقشة القضيـة الثانية ، ضمن مجموعة المواد الاولية التي اراها لازمة مبدئيا لقيـام ستراتيجية ثوريـة جديدة . اعني انـه في موازاة « تنظيم صفوف الثورة » يستلـزم الامـر « تنظيم فكر الثورة » . واقول تنظيم فكر الثورة لا « توحيده » . ان المنابع المختلفة للمناضلين ، والسياق التاريخـي لتجاربهم السياسيـة ، سوف

يفرض نفسه على « شكل » التفكير الثوري بالاختلاف والتنـوع والتعدد . ولعل الاستراتيجية الصحيحة وحدهـا ، وممارسات التجربـة الحية المشتركة ، هـي التي ستبلور هـذا التفكير في المستقبل غير المرئي في شكل موحد .

المهم ، الآن وقبل ان يفوت الوقت ، لا بـد مـن اعادة تنظيم الفكر الثوري ، لا بالتصنيف المتعسف والمسبق ، ولكـن بالحـوار الديموقراطي الواسع حول اساسيات الماركسية في تطبيقها الحي الخلاق عـلى الواقـع العربي . ان الثوريين العرب مطالبون بتحديد ملامـح النماذج الاشتراكية الممكنة في بلادهم . لا شك ان الماركسية وتجاربها في التطبيق خارج ديارنا ، هي زاد لا يقدر بثمن في معرفة واقعنا وتغييره . ولكن يبقى بعـد ذلك كـل شيء . يبقى الخلق والابداع ، يبقى التحليل والتركيب ، يبقـى الانجـاز الخاص الذي يضيف الى التجربة الانسانية العامة .

ولا بد أن يستهدي الاطار النظري لهذا الانجاز ، بتحديـد التناقض الرئيسي الذي يحكم عالمنا الراهن ، وتحديد طبيعة المرحلة التاريخية التي تجتازها مجتمعاتنا . هنا يحتاج الامر الى تنظيم فكرنا الثوري .. فالقـول مثلا بأن التناقض الرئيسي في عصرنا الحاضر هو بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة ، او بين الدول الفقيرة والدول الغنية ينطوي عـلى تسوية رجعية وغير علمية بين اوروبـا الاشتراكية واوروبـا الراسماليـة ، بين الاتحـاد السوفيتي وامريكا . وبالرغم من ان اصحاب هذا الاتجاه مـن قوى الثورة يظنون انهم بذلك « اكثر يسارية » من غيرهم ، فهم يلتقون موضوعيا في هذه النقطة مع اقصى اليمين العربي . وليس معنى ذلك مطلقا انـه ليس هناك تناقض بين التقدم والتخلف ، ولكن « الرؤية التكنولوجية » لمعنى التقـدم والتخلف رؤية قاصرة . ان التقدم الاجتماعي هـو الـذي يعنينا في المقام الاول ، ولا ريب ان التكنولوجيا مـن العوامل المساعدة عـلى التقدم من ناحية ، وعلى توسيع الهوة بين المتقدمين والمتخلفين من ناحية اخرى . ولكن الرؤية الاجتماعية للتقدم والتخلف هي البوصلة التـي تحمينا مـن زلل الوقوع في براثن ايديولوجية الطبقة الجديدة في بلادنا ، الداعية الى « دولة عصرية » بالمعنى التكنولوجي للمعاصرة والبعيد عـن اي تغيير اجتماعي . كذلك فهناك تناقض بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، ولكن الثراء القادم مع العدل الاشتراكي في الاتحاد السوفيتي ، يختلف عـن الثراء القادم مـع التفاوت الطبقي الحاد ونهب ثروات الشعوب ، في آمريكا .

ونحن فقراء ومتخلفون . ليس في ذلك شك ، ولكـــن تقدم الشعوب الاشتراكية وغناها يساعدنا على مقاومة الفقر والتخلف ، بينما تقدم الدول الرأسمالية وغناها يزيد فقراءنا فقرا ويعمق بيننا جذور التخلف . ذلك ان التقدم في البلدان الاشتراكية يختلف مضمونه عـــن التقـــدم في البلدان الرأسمالية ، انه الى جانب التكنولوجيا ، يوظف منجـزات العلم في خدمة التقدم الاجتماعي لمجموع الشعب . بينمـــا في اوروبـا الغربية وأمريكا ، يوظفون العلم في خدمة المجموعة الضيقة من الاحتكارات .

وليس معنى هذا ، بالرغم من ذلك كله ، انـه ليست هناك تناقضات بين المتقدمين اجتماعيا او تكنولوجيا وبين المتخلفين . ولكـــن الفرق الهام والجوهري هو ان التناقض بيننا وبين الشعوب المتقدمـة اجتماعيا يظـل تناقضا ثانويا ، بينما التناقض بيننـــا وبين الـــدول الراسمالية المتقدمـة تكنولوجيا هو تناقض رئيسي . ذلك ان التناقض الرئيسي الـــذي يحكم العالم المعاصر هو بين الاشتراكية والراسمالية وليس التناقض بين حركات التحرر الوطني والاستعمار الا انعكاسا ملازما للتناقض الاول . أمـا القول بأن هذا التناقض هو بين الدول المتقدمـــة والدول المتخلفة او بين الدول الغنية والدول الفقيرة ، فيطمس الخط الاول لنضالنا ولا يستفيد منه غير الرجعية الكلاسيكية في الوطن العربي ، فما دامت الفروق قـد انعدمت بين التقدم السوفياتي والتقدم الاميركي ، فلماذا نتهم هـــذه الرجعية بالعمالة للاستعمار ؟ لقد بدأت الرجعية الجديدة في الوطن العربـي هـي الاخـرى تستفيد من هذا « التصور » في تعميـــق التناقض بينهـــا وبين الاتحـاد السوفيتي وتفضيل الحلول الامريكية لمشكلاتها مـــع شعوبها بالقهر ومـع اسرائيل بالتهادن ومع الاستعمار الجديد بمزيد مـــن التنازلات الوطنية . هذه الرجعية التي تعثر فيمـــا يسمى بالتقـــارب السوفيتي الامريكي او الصيني الامريكي ، كما تعثر في تناقضات المعسكـر الاشتراكي وفي مقدمتها الشقاق الصيني السوفيتي على مبررات « واقعية » لتسويتها بين الشرق والغرب ، انما هي في حقيقة الامر برؤيتها السطحية لعلاقات القوى الدولية تحاول العثور على حل ايديولوجي لأزمتهـا مـع تناقضاتها الداخلية ، بين شعاراتها التاريخية المعلنة واجراءاتها المضادة لهذه الشعارات . ولا ينبغي لبعض قوى الثورة ــ تحت ضغط الانفعال وتكوينها التاريخي الخاص ــ ان تصوغ من « رد الفعل » ازاء السياسة الخارجية للمعسكـر الاشتراكي ، نظرية خاطئة تلهم الثورة المضادة زادا اضافيا مـــن الفكر . ولقد رأينا في

التطبيق العملي ، مهما كانت تحفظاتنا على سياسة الاتحاد السوفيتي ، ان المواقف المعادية للسوفيت من جانب بعض الانظمة العربية ، تستتبع بالضرورة تنازلات للرجعية الكلاسيكية ، وارهابا لقوى الثورة . أن العداء للسوفييت ــ شئنا او لم نشأ ــ اصبح يرادف العداء للشيوعية ، والعداء للشيوعية اصبح المقدمة الضرورية للتنازل الوطني والتسليم للاستعمار .

وهنا يرد الحديث عن « طبيعة المرحلة التاريخية التي تجتازها امتنا » . ان هذه المرحلة ، على الصعيد القومي العام ، هي مرحلة الثورة الوطنية الديموقراطية . الجزء الاكبر من بلادنا يرسف في قيود الاستعمار الجديد ، والجزء الاقل مغلول بسلاسل الاحتلال المباشر . وهكذا فالثورة الوطنية الديموقراطية هي جوهر المرحلة التاريخية التي نجتازها . ولكن هذا الخط العام تستتبعه تفاصيل غاية في الاهمية ، تدفعنا الى اعادة النظر العميق في المقولات الكلاسيكية للثورة الوطنية الديموقراطية المطلوب انجازها ، وادوات هذا الانجاز .

ان تباين مستويات التطور الحضاري والاجتماعي بين مختلف الاقطار العربية ، سوف يخلق بالضرورة اشكالا متعددة للثورة من حيث الطرق المؤدية اليها ووسائلها وقواها الاجتماعية . ولكن القاسم المشترك الاعظم بينها جميعا يتكون من عنصرين رئيسيين هما القومية العربية والاشتراكية العلمية ــ القومية العربية بمعناها البعيد عن كل عرقية وتعصب عنصري ، بل كتيار حضاري مشترك ، والاشتراكية العلمية بمعناها البعيد عن النظرة الاحادية الجانب والجمود العقائدي ، كدليل نظري للحركة الثورية المطالبة بانجاز ما أخفقت فيه البرجوازيات المتعاقبة ، انجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية . وفي عصرنا ، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، تزداد مهام هذه الثورة وتتضاعف مسؤولياتها . أن « الوطنية » لم تعد الاستقلال الوطني المجرد ، او ما كان يسمى بالاستقلال الاقتصادي حينا والاستقلال السياسي احيانا . لقد اصبحت السلطات الاقطاعية والبرجوازية عاجزة تماما عن حماية هذا الاستقلال المجرد ، بسبب « تجريده » بالذات . حتى ان الاستعمار رغم اعتماده الرئيسي في عصرنا على اساليبه « الجديدة » في ربط الدول الحديثة الاستقلال بالعجلة الاقتصادية لاحتكاراته الكبرى ، فانه لا يتردد في استخدام وسائله القديمة بالاحتلال المباشر ، اذا لزم الامر . ولعل تجربة الوطن العربي مع اسرائيل خير برهان على ذلك . ومن ثم فقد

اصبح الاستقلال الوطني المجرد مهددا مـا لم يرتبط بتحول اجتماعي عميق نحو الاشتراكية . ومن هنا كـان المضمون الاشتراكي للثـورة الوطنية الديموقراطية هو « الجديد » الذي يطرحه عصرنا وتجربتنا . ولقـد اثبتت تجارب ما يسمى بالعالم الثالث ان اي تفريط في هذا المعنى للاستقلال، واي انحراف عنه ، مصيره السقوط المدوي ، من تجربة اندونيسيا في آسيا الى تجربة غانا في افريقيا مرورا بعشرات التجارب التي انهارت لسبب وحيـد هو انها في الاقل ، ترددت امام قبول الحـل الاشتراكي للمسألة الوطنية . والحل الاشتراكي ــ اكرر بلا ملل ــ ليس هو الشعار المرفوع ، بـل هـو الانجاز الثوري في التغيير الاجتماعي . وليست هنـاك اشتراكيـة بغير اشتراكيين ، وليست هناك حركة ثورية بغير نظرية ثورية . ونظرية الثورة ــ الوطنية الديموقراطية ذات المضمون الاشتراكي ــ هي الماركسية .

ولا يستدعي هذا بالضرورة استبعاد العناصر الوطنيـة ذات الاصل البرجوازي من المشاركة في « اعباء » و « مسؤولية » القيـام بالثورة . ان الثورة في جوهرها ثورة وطنية ديموقراطية ، وعلينا الا ننسى هـذا لحظة واحدة ، وبالتالي فان كثيرا من المهام التي تخلت عنها البرجوازية ، تتطلب التحقيق . ان تحولا عميقا في بناء مجتمع بدوي او زراعـي او عشائري او قبلي ، سوف يتطلب في بعض مراحله كثيرا مـن الانجازات البرجوازية . واذا كانت القوى الاشتراكية مدعـوة لان تضع هـذه الانجازات موضع التحقق الفعلي ، فان ذلك لن يمنع بعض الفئات البرجوازية من المساهمة في تحقيق ما فشلت فيه شرائحها الرئيسية . غير ان هذه المساهمة مشروطة بموقف هذه الفئات من الماركسية . ليس مطلوبـا منهـا ان « تعتنق » الماركسية ولكن المطلوب هو انفتاحها الديموقراطي الحـر على « البرنامج » السياسي والتنظيمي الـذي يشارك الماركسيون في صياغتـه الفكريـة والنضالية . والثورة بطبيعتها مراحل ، فالماركسية ليست شرطا على احد لكي يحمل السلاح في مواجهة محتل ، وليست قيدا على مـن يقدم خبرته وماله في خدمة التنمية ، وليست حائلا يمنع القيـام بواجبات وطنية عديدة سابقة على الملكية العامة لوسائل الانتاج ، بل وفي ظلها احيانا . ان التجربة النضالية المشتركة بين كافة قوى الثورة الوطنية الديموقراطية ، هي التي ستحدد الطريق لهذه العناصر « الوطنية » بالاستمرار أو التخلي . ومـن نافل القول ان « الديموقراطية » المقصودة ليست بالقطع هـي ديموقراطية الصفوة الممتازة ، انها ديموقراطية اوسع الجماهير للتحرر الوطني والانتقال

الى الاشتراكية . ان ما عانت ولا زالت تعاني منـــه هــذه الجماهير حين حكمت وتحكمت البرجوازيات « الوطنية » بحزبها الواحــد او بتجمعها غير الحزبي ، وفي الحالين بوسائل قمعهـــا الوحشية ، هـــو حرمانها مـــن الديموقراطية . وقد كان غياب الديموقراطية هو حجر الاساس في الهزائم المتلاحقة ، لان هذا الغياب يخلق تناقضا حادا بين طبيعة « المهمة » الوطنية المطلوب انجازها ، واساليب اداء هذه المهمة .

على ان الاتفاق الديموقراطي الحر حول الماركسية منهجـــا في انجاز مهام الثورة الوطنية الديموقراطية ، لــن يؤتي ثماره الشرعية الا بممارسة الديموقراطية قولا وفعـــلا ، سواء بـــين العناصر « الوطنيـــة » والقوى الاشتراكية ، او بين القوى الاشتراكية وبعضها البعض . ان حوارا واسعا صبورا ، خصبا وخلاقا ، ينبغي ان يدور قبل اتخـــاذ خطوة واحدة . ولا فضل لاحد على آخر الا بمقدار ما يقدمه مـــن فكره بالابداع ، ومـــن ذاته بالتضحية ، للثورة . ولعل ما يدفع الكـــل لالتماس التواضع اينما وجد . اننا جميعا ، يسارا ووسطا ويمينا ، متخلفون . اننا نستنشق كـــل لحظة هواء التخلف . ومن آيات هذا التخلف التفكير الموسوم بـــرد الفعل ازاء الاحداث او الافكار . يهرع البعض منا الى مجلدات الآخرين يتوقع فيهـــا العزاء ، ويفزع البعض الاخر الى المواقف الانفعالية التي تنم عـــن اليأس . والخطوة الاولى في مضمار التقدم ادراك التخلف ، تلمس ابعاده وخفاياه . والخطوة الثانية هي البحث الخلاق عن الصيغة القادرة لدرء هذا التخلف. لنتعلم من الآخرين كل شيء ، ولكن لنتعلم منهم قبـــل كـل الاشياء انهم ابدعوا نموذجهم الخاص في درء التخلف ومقاومتـــه . ان الاكتفاء بالببغائية الثقافية هو من اكثر مظاهر التخلف بؤسا وتعاسة . اننـــا نحترم انفسنا والآخرين حين نضيف الى تجاربهم نموذجا جديدا في مقاومة التخلف .

واذا كانت التقاليد غير الديموقراطية في اسلوب الحكم هـــي ابشع جوانب ميراثنا الفكري والسياسي ، فـــان نموذجنا المقترح يستلهم اروع التجارب الديموقراطية في حياة الشعوب ، واذا كـــان التخلف الحضاري المرعب هو السمة البارزة على تكويننا الحضاري الراهن ، فان مقاومة هذا التخلف على كافة الجبهات ، ينبغي ان يكون ابـرز السمات التي نستطيع اضافتها الى تجربة الانسان المعاصر . وليس هناك كالماركسية دليل عمل في ترسيخ التقاليد الديموقراطية الجديدة ، وليس هناك كالاشتراكية العلمية طريقا لمقاومة التخلف .

وليس هناك وقت ، فالثورة التكنولوجية المعاصرة ، بمقدار ما تضيفه للعالم الاشتراكي من طاقة جبارة تحمي الاشتراكية وتسرع بها الى مراحلها العليا ، فانها تضيف الى المعسكر الرأسمالي الاستعماري طاقة مماثلة يتكيف معها ، ويطيل من ثم عرقلته لمجرى التاريخ . ونحن نعيش في وطن لا زالت بعض اجزائه تغط في نوم عميق ، في الظلال الوارفة للمجتمع البدائي . واجزاؤه الاخرى تساوم التقدم بأحد معانيه ــ وهو التكنولوجيا ــ بمعناه الآخر وهو التقدم الاجتماعي .

وسوف تنعكس مستويات التطور الحضاري هذه بالضرورة على تجارب الاقطار العربية المختلفة ، بالاضافة الى التفاوت الكبير بين مستويات تطورها الاجتماعي والسياسي . وبالتالي ،فليست هناك وصفات جاهزة لكل منها ، والتجربة الناجحة في احداها ليست شفيعا لدى البعض في محاولة فرضها على الآخرين .

واذا كانت نماذج الوحدة العربية التي عرفناها قد أخفقت ، فلأنها كانت نماذج لوحدة الانظمة البرجوازية اللاديموقراطية . وامثال هذه النماذج تؤدي بالضرورة الى نوع من العنصرية والاساليب شبه الفاشستية الى غير ذلك من الصفات التي ينبغي ان تحذرها القومية العربية في عصر الاشتراكية والتقدم . ووحدة الشعوب لا تتم بين يوم وليلة ، وباتفاق علوي يتجاهل الخصائص النوعية لكل شعب . وبالرغم من ان الاشتراكية هي اقصر الطرق ــ اكثرها ثورية ــ الى التقدم الاجتماعي والتكامل القومي ، فانها عميقة الارتباط بالديموقراطية . لذلك ، فالوحدة العربية نقطة رئيسية في الاستراتيجية الثورية الجديدة ، ولكنها ليست تاكتيكا مرحليا. وفي السياق التاريخي لثورتنا الوطنية يتأكد لنا ضرورة نضج الظروف الموضوعية للوحدة على مهل حتى يثمر التفاعل الديموقراطي بين شعوبنا احتياجا فعليا للوحدة الأشتراكية . وحدة الشعوب وليست وحدة الانظمة هي الهدف . ووحدة الشعوب لا تتم الا بانجازات ديموقراطية عميقة في حياة كل شعب على حده . الوحدة الوطنية اولا ، في ظل الثورة الوطنية الديموقراطية ، والوحدة القومية ثانيا ، في ظل الاشتراكية . ومرحلة الانتقال الى الاشتراكية هي مرحلة الصعاب الهائلة ، هي مرحلة ردم الهوة بين التقدم والتخلف ، وتقريب مستويات التطور الحضاري والاجتماعي . حينذاك تصبح الوحدة الشاملة ، مطلبا واقعيا ، لا حلما يتحول على ايدي اللاعبين بمقادير الشعوب الى كابوس يمزق العقل والوجدان .

ولم يعد هناك وقت ، فالرجعية العربية الكلاسيكية والجديدة على السواء ، لن تترك فرصة بكاء البعض منا على الاطلال ، تضيع منها سدى . ان كل ما قامت به حتى الآن من ارهاب دموي ، لا يقاس بما تدخره للايام القادمة . ذلك انها تدرك بذكائها التقليدي والمجتلب ، انها في صراع حياة او موت . والمهام المطروحة على قوى الثورة ، خطيرة خطورة هذا الصراع القادم لا محالة . ومهمة المهام في تقديري هي اعداد البديل الثوري .. فاسقاط النظام العربي الراهن ، فوق انه مستحيل من جانب القوى الثورية بحالتها الراهنة ، فهو مغامرة تمده بسلاح جديد . فليسقط ، بذبوله ومواته العظيم ، كأوراق الخريف . وليحتل مكانه البديل الاكثر رجعية ، انه لن يحل مشكلة واحدة من المشكلات الحالة والملحة وفي مقدمتها الاحتلال الاسرائيلي الرابض كأسد يهوذا . وسوف يسقط هو الآخر ، وغيره وغيره على التوالي .

ذلك ان تحرير الارض لن يتم بمعزل عن تحرير الانسان . وقوى الثورة العربية المعاصرة هي التي تستطيع المبادرة بتقديم الصيغة القادرة على تحرير الارض والانسان . ولكنها لا تزال بديلا نظريا ، يقع في حيز الاحتمال ، لم يصل بعد الى دائرة الامكان ، فضلا عن الحتم . والتحدي العظيم هو اعداد هذا البديل ، حتى اذا سقطت هذه الانظمة ، كان لسقوطها دلالة تاريخية على التقدم .

والاعداد الثوري للبديل المنتظر ، ليس هو الانكباب الاكاديمي الوقور على « التفكير » في الاستراتيجية والتكتيك . ولكنه الى جانب ذلك هو فتح باب الحوار واسعا ، وعلى كافة المستويات ، حول اهم المحاور التي تتضمنها الاستراتيجية الثورية الجديدة . الى جانب ذلك ، هو ايضا الرقابة الايجابية على مسيرة الثورة المضادة . ان المبادرات التي قدمها الشباب في مصر والمغرب وتونس ولبنان هي نوع من انواع هذه الرقابة الايجابية . انها في جوهرها ليست حوارا مع السلطة ، وانما رقابة عليها . ثمة مبادرات اخرى لطوائف من المثقفين واجزاء من الطبقة العاملة ، تدخل في اطار هذه الرقابة الفعالة . ان هذه الرقابة تضعف السلطة ، ولكنها لا تسقطها . الاضعاف بمعنى عدم التهادن وعدم المساومة مطلوب . ولكن الاسقاط عبث اطفال .. فالبديل الثوري لم يتم اعداده بعد . ولكن اذا حدث السقوط فلا خوف منه ، لا رعب من البديل الاكثر رجعية ، انه اعجز

من ان يكون بديلا موضوعيا . انه تراكم ذاتي للمشكلات ، وتعميق حاد متعاظم للتناقض بين الشعب وانظمته العميلة والوسطية على السواء .

.. فاذا نضج البديل ، سوف يكتشف المعيار السليم لمدى نضج الظروف الموضوعية للثورة . وحينذاك ، فالاسقاط سيكون عملا ثوريا .

ولنتذكر دوما هذه الحقيقة ، انه ليس هناك وقت .. فسباقنا مع الزمن لا يحتمل الانصات الى وقع دبيب النمل فوق خدودنا ، بانتظار المعجزة . ★

دراسات عربية ــ نوفمبر ١٩٧٢

★ نشر هذا المقال بتوقيع مستعار « وائل شهدي » في العدد الثالث من مجلة « دراسات عربية » ــ كانون الثاني ــ يناير ١٩٧٣ .

لغة العصر الجديد

ليست هناك « لغة » محايدة ، سوى لغة المعادلات الرياضية في العلوم الطبيعية ، اما لغة العلوم الانسانية ، وفي مقدمتها الفكر السياسي ، فلا يمكن أيا كانت درجة موضوعيتها ، الا ان تنحاز هذه الناحية او تلك وفقا لوجهة النظر السياسية التي يتبناها الكاتب او المفكر . بل ان اللغة في هذا الميدان على وجه الخصوص قد امست سلاحا ايديولوجيا ، سواء باكساب اللفظ مدلولا جديدا او باستخدامه في السياق على نحو مغاير لما درج عليه الاستخدام العام ، او بترسيخ الاخطاء الشائعة واعتبارها قاموسا شعبيا الى غير ذلك من « تحايلات » تختلف درجة المهارة من كاتب الى آخر في اللجوء اليها . من المفارقات الشائعة مثلا في بلادنا منذ ثورة ١٩١٩ ان تسمى وحدة المصريين ـ اقباطا ومسلمين ـ بوحدة « عنصري » الامة مع اننا نحن المصريين عنصر واحد ، وان تعددت الاديان . في هذا التعبير الخاطىء تكريس للعنصرية بالرغم من ان الهدف من استعماله هو التوكيد على الوحدة الوطنية . كذلك كان يقال ـ وما زال البعض يقول ـ ان في المنطقة العربية « وجودا سوفيتيا » ، والتعبير على هذا النحو مجرد من الوظيفة السياسية لما يسمى « بالتواجد » وهي الوظيفة التي تفرض علينا استبدال هذه الكلمة بأخرى ـ هي « الدعم » السوفيتي . ان الجنوح بالالفاظ نحو « التجريد » هو الذي يفرغها ـ شكلا ـ من المضمون الاجتماعي والسياسي ، ولكنها في « حقيقتها » تحمل مضمونا واضحا وموقفا محددا من القضية المطروحة .

وقد تساوق التطور اللغوي الحديث مع « المتغيرات » المحسوسة في مجالات الصناعة والاقتصاد والسياسة ، بحيث انعكست هذه المتغيرات

على « لغة » العصر في ادوات صياغتها وطرق استعمالها حتى يرتفع الاتصال بين البشر الى مستوى التطور المادي المحسوس في حياتهم .

وهكذا كانت السينما والمسرح والاذاعة والتليفزيون من الاشكال الرئيسية التي نقلت اللغة من عصر الى عصر . ولكن الكلمة المكتوبة في الصحيفة والكتاب تظل ابرز هذه الاشكال من حيث درجة تأثيرها وقدرتها على تعميق المعنى والابقاء عليه في العقل والوجدان .

وسوف اعرض هنا لمجموعة من التعبيرات المتداولة في الكتابات العربية المعاصرة خلال الفترة الاخيرة ، ومنها نستكشف المعاني السياسية التي ترمي هذه الكتابات الى شيوعها وسط الجماهير وتسويدها بين الكثرة القارئة بهدف اتخاذ « المواقف » السياسية التي توحي بها رغم التجريد والتعميم والغموض الذي تغلف به الالفاظ احيانا كثيرة . وسوف اقتصر هنا على التعبيرات التي تجسد مفاهيم بعض الكتاب والصحفيين عن « العلاقات الدولية » وذلك لعدة اسباب : أولها ان هذه العلاقات هي المؤشر الجوهري لما طرأ على عالمنا الراهن من متغيرات ، وثانيها ان هذه العلاقات تنعكس على اوضاعنا العربية والمحلية بصورة او بأخرى ، وثالثها ان هذه العلاقات قد عثرت على معادلاتها اللغوية في صحافة الغرب ، ومؤلفات كتابه قبل ان يتم نقلها وتروج بين الأقلام العربية .

لعل تعبير « القوتان الاعظم » او « الدولتان الاعظم » من اكثر التعبيرات لمعانا وجذبا للانتباه ، فهي تعطي انطباعا بالتساوي في النظرة الى المعسكرين الرئيسيين في عالم اليوم . وكلنا يذكر انه غداة انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية دخل المعجم السياسي الدولي في العالم الرأسمالي تعبير « الدول العظمى » ، ولكن الدولة الوحيدة التي الحقت صفة « العظمة » باسمها الرسمي قبل هذا التاريخ هي « بريطانيا ، الامبراطورية التي لم تكن تغيب عنها الشمس » . ولكن الولايات المتحدة الامريكية التي لم تضف الى اسمها الرسمي اية القاب « عظمة » كانت المصدر الاول لشيوع هذا التعبير The Two Super Powers كما يدلنا على ذلك بحث عنوانه The Dynamics of International Politics للكاتبين الامريكيين « ن. بادل فورد » و « ج. لنكولن » (سنة ١٩٦٧ نيويورك) . فتاريخ كلمة « العظمى » أو « الكبرى » مقترن سياسيا بحجم « السيطرة » الاستعمارية لاحدى

الدول . وحين اضفت اجهزة الدعاية الامريكية صفــة « العظمة » عـلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، انما كانت تقصد الـى ترسيخ فكرة « التسوية » بينها وبين نقيضها ، وخاصة امـــام الشعوب المقهورة التـي تحاول فك قيـود الاسر الاستعماري القديم او الجديد . ولم تكـن أجهزة الدعاية الامريكية ، وهي تطلق هذا التعبير تنطلق من فراغ . كـان الاتحاد السوفيتي قد انجز بالفعل ما يشبه المعجزات في كافـة المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية . وكان عنصرا حيويا خطيرا في تحرير شرق اوروبا من جحافل النازي والاسس الراسمالية معا ، كما كـان ولا يـزال ظهيرا قويا لحركة التحرر الوطني فيمــا يسمى بالعالــم الثالث . ان حجم الدور السوفيتي في تاريخ البشرية المعاصرة كبير حقا ومن هذه « الحقيقة » بدأت الدعاية الامريكية لعبتها اللفظية بتفريغ هذه الحقيقة من محتواها السياسي والاجتماعي والايديولوجي ، واضفاء صفة « العظمة » على كـل من امريكا والاتحاد السوفيتي ، وكأن لا فرق هنا بين عظمة الدولة الاشتراكية الاولى وعظمة الدولة الاستعمارية الاولى .

غير ان دهاء الاجهزة الامريكية لم يتوقف عند حدود التسوية المفتعلة بين البلدين النقيضين ، وانما كانت « العظمـــة » بمداولها التاريخي قـد اكسبت التعبير مع التداول صفة « الوصاية » عـــلى الدول غير العظمى . ومن اليسير طبعا البرهنة على ان « تقسيم العالم الى مناطق للنفوذ » قـد تم غداة الحرب الثانية ، بالمؤتمرات التـــي تمت حينـــذاك بين الاتحـاد السوفياتي من جانب وبريطانيا وامريكا وفرنسا مـــن جانب آخـر . ان تقسيم العالم الى مناطق للنفوذ كان منهجا حقيقيـا بين الدول الاستعمارية وبعضها البعض بعد كل حرب . لان طبيعة نظامها الاقتصادي يحتم على كل منها الاستئثار بالمناطق التـــي اخضعتها عسكريا والتـــي حددت اسوار « سوقها » داخلها . أما الاتحاد السوفيتي ، ... فطبيعة بنائه الاشتراكي، لا علاقة له بمناطق النفوذ في اطار هذا المعنى ، وانما لــه علاقـــة وثيقة بعلاقات القوى الدولية كطرف اصيل فيها . ولانــه الطرف النقيض مـن القوى الاستعمارية ، فهو لا يستأثر اقتصاديا بسوق مـن الاسواق (والتي تدعي سياسيا بمناطق النفوذ) وانما هو يسهم في تحرير هذه الاسواق من القبضة الاستعمارية ، وهو بالتالي حين يدعى الى مؤتمرات ما بعد الحرب، فان الدعوة لا توجه اليه « بمناسبة تقسيم العالم » وانما لصياغـة علاقات القوى الجديدة صياغة دولية تعترف بما طرأ على العالم مـن تغيرات شارك

هو في صنعها بالمال والفكر والدم . والولايات المتحـــدة نفسها لا تحتـــرم المواثيق الدولية اذا اختلت علاقــات القــوى لصالحهــا ، فهــي حين رأت نفسها بديلا استعماريا جديدا يحل مكان الامبراطوريات الاوروبية الغاربة. لم تتوان في تعديـــل مناطق النفـوذ الاستعمارية تعديـلا يتفق ومصالحها وبالاساليب التي تروق روح العصر كالانقلابات العسكريـــة الداخلية ، او ربط الموارد الوطنية باحتكاراتها دون الحاجة الى جيوشها الى غير ذلك من وسائل مخابراتها المركزية واجهزة امنها القومي ومؤسساتها الديماغوجية. والاتحاد السوفيتي على النقيض من ذلك ، لان نظامه الاجتماعي يرفض من داخله فكرة مناطق النفوذ الراسمالية والاستعمارية ، ولكنــه لا يتوانى في الحفاظ على علاقات القوى وتطويرها لمصلحة الاشتراكية . هكــذا لم تكن حركة تشيكوسلوفاكيا ابقاء على احدى مناطق النفـوذ ، وانما كانت دفاعا ــ مهما كان لدينا من تحفظات على أسلوب هـــذا الدفاع ــ مـــن تحـول تشيكوسلوفاكيا الى منطقة للنفوذ . بل ان الاتحاد السوفيتي يشارك عمليا في تحرير العالم من مناطق النفوذ المتبقية على ظهر هـذا الكوكب بما يقدمه من عرق الشعب السوفيتي ليل نهار للبلدان المستقلة حديثـا ، او الاقطار التي لا تزال تعاني من النفوذ الاستعماري . وهو لا يتلقى بمشاركته هـذه اي نوع من انواع الربح الشخصي ، الا اذا اعتبرنا التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي للشعوب المقهورة ربحا شخصيا . بل ان كثيرا مـن البلدان التي اعطاها الاتحاد السوفيتي الشيء الكثير قد « اعطته » الكثير ايضا ولكن من اللعنات والسباب وخناجر الظهر .

والقيادات الوطنية للاقطار التي يساعدها الاتحاد السوفيتي عـــلى تحرير نفسها من قبضة النفوذ الاستعمارية تعترف في كافـــة البيانـــات والوثائق الرسمية ان الاتحاد السوفيتي لم يمارس عليها ضغطا سياسيا في يوم من الايام يمكن ان تشم فيه رائحة الوصايـــة . والوقائع تكفينا عنـاء التدليل على صحة ما نراه في علاقة هـــذه القيادات الوطنيـــة بالحركات الاشتراكية العلمية فوق اراضيها ، فبالرغم من ان الماركسية هـــي المنهج الذي يسير الاتحاد السوفيتي على هداه ، وتشترك معه في هذا المنهج بعض الحركات الاشتراكية المحلية ، الا ان اشكال الاضطهاد والقهر المروع الذي تعرضت له ، لم يؤثر على طبيعة التحالف بين الاتحاد السوفيتي والقيادات البرجوازية للتحرر الوطني . ليست هناك وصاية اذن من جانب الاتحـاد السوفيتي ، بينما الوصاية الامريكية على الانظمة التابعـــة لا تحتاج الـى

براهين اكثر من نظرة عميقة على ما يدور في بــلاد قريبة كتركيا وايران واليونان ، او بلاد مزيفة كاسرائيل وروديسيا وجنوب افريقيا ، او بــلاد بعيدة كفيتنام الجنوبية وكمبوديا الراهنة وبعض دول امريكا اللاتينية . ان اوروبا نفسها تحاول التملص من قبضة النفوذ الامريكي ، وان كانت طبيعة النظام الرأسمالي تفرض على السمك الكبير ان يأكل السمك الصغير ما دام منطق العلاقات الاجتماعية بينهما مشتركا واحداً . . .

هل بعد ذلك يقال « القوتان الاعظم » الا اذا كان القائل يدرك طبيعة الصراع الاجتماعي الدائر في وطننا وعلى الصعيد العربي العام ، ومــن ثم فهو يحرك هذا الصراع ــ باستخدام هذا التعبير ــ في اتجاه التسوية المزيفة بين المعسكرين المتناقضين ، أحدهما لا يمارس وصايته علينــا مهما كانت ضخامة حجمه في علاقات القوى الدولية ، والآخــر لا يرضى بغير هــذه الوصاية بديلا ، احدهما يسهم بقدر ما يستطيع في تحريرنا مــن مناطق النفوذ ، والآخر لا يقبل بأقل من ان نكون احــدى مناطق النفوذ ؟ ألا تؤدي هذه التسوية المفتعلة بين النقيضين الى تمييع اختيارنا الوطني ، أم أن هذا التمييع مقصود منذ البداية واختيار ، فاذا كانت « القوتان الاعظم » شيئا واحدا ، فلنختر اذن من له علاقة « أقوى » بعدونا فقد **يرغب** وقد **يستطيع** « الضغط » عليه ، ما دام السلاح الاقتصادي والعسكري لاحــدى هاتين القوتين الحق بنا الهزيمة (كذا) فلا بأس من ان نجرب القوة الاخرى .

ان عظمة الاتحاد السوفيتي ــ ايها السادة ــ هــي عظمة الاشتراكية التي احتلت بقيادته هذا الحجم في علاقات القوى الدولية ، وعظمة الولايات المتحدة هي عظمة الاستعمار ان جاز لنا وصف الاستعمار على هذا النحو ، فهل يمكن ان نجمعهما في سلة واحدة او في تعبير واحــد استدرجتنا الى استخدامه اجهزة الدعاية الامريكية أم ان هذه الاجهزة كانت أسبق فحسب الى اختراع التعبير الذي يصوغ بدقة تفكير البعض منا ؟.

اذا كانت القوتان الاعظم اكثر التعبيرات لمعانا ابان الفتــرة الاخيرة في بعض الكتابات العربية ، فانه ايضا كان التعبير الأم لبعض الكلمات والالفاظ والشعارات الوافدة عــلى الفكــر السياسي العربــي الحديث ، ككلمـة « التقارب » ثم « الوفاق » وتعبيــر « التــوازن النووي » ثــم « التوازن الدولي » . وربما كان « التوازن النووي » هو اكثر هــذه التعبيرات براءة

واكثرها شيوعا ، فاي معهد للاستراتيجية العسكرية في الغرب ، يمكن ان يمدك بقائمة الاسلحة النووية في الشرق الاشتراكي ، ومثيلاتها في الغرب الرأسمالي ، وسوف تغمض عينيك بعد قراءتها على هذه « الحقيقة » وهي ان حربا عالمية ثالثة لن تقع لان المعسكرين متوازنان نوويا . وبراءة التعبير تحمل في تضاعيفها كل امارات الخطر ، لان أصحاب التعبير يقصدون من ورائه أمرين ، أولهما الاستقرار على ان القوة العسكرية ــ التي بلغت ذراها في السلاح النووي ــ هي العامل الحاسم ، ان لم يكن الوحيد ، في توازن او خلل علاقات القوى الدولية . والامر الثاني هو تجريد « القوة النووية » من أية وظيفة غير عسكرية وكلا المعنيين خطير . ذلك ان التوازن اصلا غير قائم في علاقات القوى ، لا على الصعيد الدولي ، ولا على الصعيد الوطني . ان قيام حدود دنيا للتعامل بين البشر لا يعني توازنا ، فالصراع مهما اختلفت مظاهره وتشكلت هو قانون الحياة الابدي . والتناقض الرئيسي في عالمنا لا يزال بين الاشتراكية والرأسمالية ، وبالتالي بين حركات التحرر الوطني والاستعمار . والعصر الذي بدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية هو عصر انتصار الاشتراكية وحركات التحرر الوطني على الرأسمالية والاستعمار . وبالرغم من كل موجات الجزر والانتكاس والهزائم ، فاننا نعيش بالفعل التفاصيل المعقدة لانهيار النظام الاستعماري. ليس هناك من « توازن » حتى بمعناه « النووي » لان القوة العسكرية المجردة ليست هي العامل الحاسم في علاقات القوى الدولية ، فمسيرة « التقدم » اعقد من ان يكون السلاح العسكري هو رمز نضالها . ومن هنا كانت قوائم معاهد الاستراتيجية العسكرية بالاسلحة التي يملكها كل معسكر مضللة رغم ما يمكن ان تكون عليه من صحة الارقام . ان حيازة السلاح والتفوق والمهارة في استخدامه من العوامل الهامة بغير شك ، ولكنه ليس العامل الوحيد ولا العامل الحاسم في علاقات القوى الدولية ... وانما هناك « النظام الاقتصادي والاجتماعي » في كل من المعسكرين ، وفي بقية بلدان العالم ، معدلات تقدمه هنا وهناك ، والتفاصيل الدقيقة لمشكلات التنمية التي تواجه هؤلاء وأولئك ، الى غير ذلك مما يجعل لحركة الشعوب ، واختياراتها المقام الاول في عملية الصراع ــ لا التوازن ــ الدائر اليوم . وهذا يجرنا الى ما دعوته بتجريد اللفظ من محتواه . او اقتصاره على المعنى العسكري . ان « القوة النووية » لا تنتج سلاحا فقط ، وانما هي تشارك في كثير من عمليات الانتاج . ومن هنا فوظيفة القوة النووية في امريكا

مختلفة عنها في الاتحاد السوفيتي ، رغم اشتراكهما في انتاج السلاح . بل ان هذا الفرع نفسه من فروع الانتاج يختلف محتواه كيفيا بين البلدين . فاحتكارات تصنيع وتسويق السلاح الامريكي ، بطبيعة النظام الراسمالي للولايات المتحدة ، هي كتيبة الصدام الاول ضد الشعوب ، هي لذلك « صاحبة المصلحة الاولى » في شن الحروب العدوانية . اما السلاح السوفيتي فهو اداة دفاع وتحرير ، دفاع عن الاشتراكية ، وتحرير للاوطان المقهورة . ذلك ان النظام الاجتماعي للاتحاد السوفيتي لا يعرف اصلا الاحتكارات التي تحتاج الى التسويق ، وانما يعرف التخطيط لبنائه الاجتماعي وتقدم شعوبه والمساهمة في بناء الاقطار التي تركها الاستعمار انقاضا وتحرير الشعوب التي لا تزال في قبضة نفوذه . ولان مهمة السلاح السوفيتي محصورة في هذه الحدود التي تغاير راسا على عقب حدود الاحتكارات المجنونة بفتح الاسواق ، فان « القوة النووية » بالاتحاد السوفيتي لا تقتصر على انتاج السلاح ، ولا يتم توظيفها لاشباع احتياجات الصفوة الطبقية ، واحيانا الصفوة الطفيلية على الانتاج . وانما التخطيط لبناء المجتمع وفق الاحتياجات الموضوعية للتقدم التاريخي الشامل لمجموع الشعب ، هو الذي يتجه بالقوة النووية ــ وغيرها من القوى ــ في الاتحاد السوفيتي اتجاها نقيضا لهذه القوى في الولايات المتحدة . ومن ثم فنتائج الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية لهذه القوة في الاتحاد السوفيتي تختلف عنها في امريكا بحيث لا يمكن ان يقال ــ موضوعيا ــ بتوازن نووي بينهما . ذلك ان ما حققته القوة النووية السوفيتية ومعدلات هذا التحقيق ونوعيته تتفوق اهميتها التاريخية بالنسبة للمجتمع السوفيتي والعالم الاشتراكي والانظمة الوطنية ، على اهمية الانجاز النووي الامريكي .

وكما ان « التوازن النووي » مقولة مضللة رغم القوائم الصحيحة لمعاهد الاستراتيجية العسكرية ، فان « التوازن الدولي » هو الاخر تعبير لا يقل تضليلا رغم البيانات الاحصائية التي يمكن ان تمدنا بها اليونسكو ، بل وما نشاهده هذه الايام بعيوننا ونسمعه بآذاننا من الاتفاقيات السياسية والاقتصادية التي تبرم بين الشرق والغرب . اذا كانت الحركة الاجتماعية لا تعرف « الجمود » فان علاقات الدول بعضها ببعض هي مرآة الحركة الاجتماعية على نطاق العالم . ان الفكرة الخبيثة في ثنايا تعبير « التوازن الدولي » هي ان « النظام الدولي » الراهن ، أصبح عاملا حاسما في توجيه

الشؤون الوطنية للدول « الصغيرة » اي ان العنصر « المحلي » لم يعـد ذا قيمة كبيرة وبخاصة في امور الحرب والسلام . بهذه الفكرة نعلق آمالنا على احد طرفي التوازن الدولي من ناحية ، وعلى ضوئها نكاد نصل الى شاطىء اليأس ما دامت الدولتان اللتان يملكان وحدهما مقاليـد الامور متوازنتين . وهي دعوة للاستسلام لجمود متوهم في الحركة الاجتماعية الوطنية . انـه جمود متوهم لان الحركة الاجتماعية داخل الوطن لـن تتوقف ، وسيظل العنصر الوطني المحلي عنصرا رئيسيا وحاسما في توجيه حركـة الاحداث . اما القوى الخارجية فستظل دوما في مكانها الطبيعي ، مجرد عامل مساعد. هذا من ناحية الفكرة الخبيثة في ثنايا التعبير اما التعبير ذاته فبالغ الضلال والتضليل ، لان « المتغيرات » التي طرأت على عصرنا لم تغير جوهر التناقض الرئيسي في العالم ، وأكاد اقول ان ما يتم اليوم من « اجراءات » سياسية بين الشرق والغرب ليس اكثر من تتويج قانوني لنتائـج الحرب العالميـة الثانية التي كانت نهايتها هي البداية الحقيقية للعصر الجديد . وما يحدث الآن ليس اكثر من تطوير ومرحلة في بناء العصر . وبالتالـي فليس صحيحا ان هناك توازنا بين القوتين المتصارعتين ، وانما هنا تصفية حسابات قديمة لعلاقات القوى الدولية التي لا تعرف التوازن ، بـل تعرف التفوق المتزايد لقوى الاشتراكية والتحرر الوطني . ومن العسير القـول بان هناك « نظاما دوليا » وانما هناك مجتمع دولي تتعدد انظمتـه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، يجتمع عند حدود دنيا تمليها علاقات القوى المتغيرة كل لحظة. هكذا نرى في قرارات الامم المتحدة وشكل « مجلس الامن » تعبيرا عن هذه الحدود من ناحية ، وتجسيدا لتقدم القوى الاشتراكية والوطنية يوما بعـد يوم . ويبقى ان قرارات الامم المتحـدة ومجلس الامن ليست فيصلا فيما يجري من احداث فوق الارض التي صدرت من أجلها ، بل هي مجرد مؤشر لتطور « العامل المساعد » الدولي . ولهذا من الخطـأ اتهام قرارات الامم المتحدة بالسلبية لانها لم توقف الحرب هنا ، ولم تنجـز الاستقلال هناك ، لان اصحاب الحرب وقضية الاستقلال هم المسؤولون أولا واخيرا .

ومـن كتـاب المؤلف الامريكـي « ن. سبايكمـان » وعنوانـه The geography of peace الذي صدر عـام ١٩٤٩ في نيويورك نتعرف على جذور هذا التعبير ، « التوازن الدولي » الذي افرخ فيما بعـد عديدا من الالفاظ كالتقارب والوفاق . ولكن المؤلف الامريكي لم يكن قـد اضاف الى كتابه ما استجد من تعبيرات مثل « عصر الثورة التكنولوجية » و « انتهاء

عصر الايديولوجيات » ، ولكنـــه اكتفى باستخدام مناهـــج الجغرافيـــا السياسية في تحليل العلاقات الدولية ... ومن هنا أصبح العالم مكونا من دول كبيرة ودول صغيرة ، من دول متقدمة ودول متخلفة ، مـــن دول غنية ودول فقيرة . وللوهلة الاولى يمكن القول بأن مناهـــج الجغرافيا السياسية لا تكذب ، فلا شك ان هناك دولا متقدمة وغنية واخـــرى فقيرة ومتخلفـــة . ولكن هذه المناهج تكذب فعلا حين تضم تقدم الاتحاد السوفيتي مـــع تقدم الولايات المتحدة ، او تضم شرق اوروبا مع تقدم غربها ، وتقول هـــذه هـــي الدول المتقدمة الغنية وبقية العالم « الثالث » شيء آخـــر هـــو الفقـــر والتخلف . ومن الطريف ان هـــذه الفكرة الوافدة مـــن المناهج اليمينية المتطرفة قد لقيت هوى من بعض الاقلام اليسارية المتطرفة . مـــرة اخرى لا تبدأ أجهزة الدعاية الامريكية من فراغ ، فتقدم الاتحاد السوفيتي وثراءه ليس موضع خلاف . ولكن الهدف من تقسيم العالم عـــلى هـــذا النحو « المبسط » يستهدف محو الخط الفاصل بين الاشتراكيـــة والراسمالية ، ويشرك النظامين المتضادين في « نظرة واحدة » الى العالم الفقير المتخلف . هذا على الرغم من ان طبيعة التقـــدم والثراء في المجتمع الاشتراكي تختلف كيفيا عن طبيعة التقدم والثراء في المجتمع الرأسمالي . واختلاف الطبيعـــة ـ الذي هو حصيلة اسلوب الانتاج وعلاقاته ـ ينعكس بالضرورة على وظيفة هذا التقدم والثراء .. فبينما يقوم التقدم الامريكي في جانب مـــن جوانبه على افقار الجماهير الواسعة لمصلحة القلة ، وفي جانب آخر على نهب ثروات الشعوب المتخلفة والفقيرة . يقوم التقدم السوفيتي لا على الاثراء والافقار ، وانما على اساس تغيير العلاقات الاجتماعية نفسها مـــن مستوى الاستغلال الى مستوى التكافؤ ، فالثراء يعم المجتمع بأسره بمعنى التقـــدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لا بمعنى الاثراء الرأسمالي . كذلـــك ينهض التقدم في العالم الاشتراكي بدرء التخلف والفقر فيما يسمى بالعالم الثالث . وبالتالي فوظيفة التقدم السوفيتي ـ مثلا ـ تقف على الطرف النقيض مـــن وظيفة التقدم الامريكي، الاول يناضل ضد الفقر والتخلف في عقر دارهما،لان طبيعة النظام الاشتراكي ومصلحة الاشتراكية تقتضي ذلـــك ، اما الآخر فيفاقم التخلف ويغذي الفقر لان طبيعة النظام الاستعماري ومصلحـــة الرأسمالية تقتضي ذلك . فهل نستطيع بعدئذ القول بأن الخط الفاصل ـ عـــلى ظهر الكرة الارضية ـ يقسم العالم بين دول غنية متقدمة واخرى فقيرة متخلفة ، ام أن هذا الخط الفاصل هو بين الاشتراكية التـــي تنشد التقدم الاجتماعي

لشعوب الدنيا قاطبة ، والراسمالية التــي تبغي التخلف والفقـر لاوسع الجماهير ولحساب الصفوة ؟

ومن هنا نتساءل هــل يمكــن ان نستخدم ــ موضوعيـا ــ لفظ « التقارب » او « الوفاق » بين هذين الطرفين النقيضين ، تعبيرا عما يجري بينهما من « اجراءات » سياسية واقتصادية ؟ قبل ان تجيب على هــذا السؤال لا بد ان نناقش التعبيرين الكبيريــن « عصر الثورة التكنولوجية » و « انتهاء عصر الايديولوجيات » ، وكلاهما مقترن بالاخر ... فلا ريب ان ثورة صناعية ثانية قد تم انجازها فيما يسمى بعلم « السبرنتيك » . وقد كان المفكرون الماركسيون انفسهم من اوائل الذين اهتموا بانعكاسات هــذه الثورة على اسلوب الانتاج وعلاقاته . وربما كانت كتابات جرامشي الايطالي و « جارودي » الفرنسي من بواكير المحاولات الفكرية الماركسية في هــذا الصدد . وايا كانت التحفظات التي يرصدها الكثيرون على النتائج التــي توصل اليها هذان المفكران فانهما لم يقولا بأن هــذه الثورة الالكترونية من شأنها ان تلغي نظام الاستغلال في ظل الرأسمالية او انها تلغي الحاجة الــى الاشتراكية كنظام اقتصادي واجتماعي . وانما كان اقصى مــا حصل عليه جرامشي وجارودي من نتائج هي ان اسلوب الانتاج ــ توازيا مــع هــذه الثورة ــ يحتاج الى قدر اكبر من الديمقراطية في ادارة المؤسسات والمصانع وان علاقات الانتاج سوف يصيبها قدر من التغيير ، اذ عليها ان تستقبل ما يدعوه بالكتلة التاريخية الجديدة التي تضم الــى الطبقة العاملة فئــات المهندسين والفنيين . على ان هذا التغير الذي يطالب بــه الكاتبان ــ حتى تستوعب الاشتراكية منجزات العصر العلمية لمصلحــة التقدم ــ لا يؤدي مطلقا الى ان الثورة التكنولوجية تعقد قرانــا سعيــدا بين الاشتراكية والراسمالية . ان الراسمالية نفسها لم تغير جلدها ، ولكنهــا غيرت بالفعل من وسائل التكيف مع المنجزات الجديدة لاطالة عمرها . وعلــى الاشتراكية الا تتوانى عن احتواء هــذه المنجزات لمصلحــة تقدمهــا في الصراع ضد الراسمالية بالذات . وهكــذا فالثورة التكنولوجية لا تنهــي عصر الصراع الايديولوجي ، فأسبابه كامنة في عمــق الاعمــاق ، في الجذرين النقيضين للنظامين ، وانما تنتقل هذه الثورة بهذا الصراع الــى مستوى جديــد . بموجب هذه الثورة تزدهر الاشتراكية بالقطــع وتستفيد الراسمالية بغير شك ، ويحتل الصراع الايديولوجي ــ عــلى غير مــا يتصور البعض تماما ــ حيزا اكبر وأعمق واكثر ضراوة ، لانه يحتــل امكنــة « اشكال » اخرى

للصراع كالحرب ، ولان التقدم الـذي تحرزه الاشتراكية بمساعـدة الثورة التكنولوجية ليس تقدما تكنولوجيا مجردا ، وانما هو تقدم اجتماعي شامل يحمل في طواياه تقدما ثقافيا . هذا التقدم الثقافي ينعكس بالضرورة عـلى « السؤال والجواب » داخل المجتمع وخارجه . وبينما لا يتناقض البنـاء الاشتراكي للمجتمع مع الثورة التكنولوجية بـل ان هـذه الثورة ــ على العكس ــ سوف تدعم هذا البناء وتطوره الى مرحلة ارقى ، فان تناقضات لا حصر لها تتوالد في احشاء البناء البرجوازي ــ رغم استفادته مـن الثورة التكنولوجية ــ تنعكس بدورها على مرآة الفكر والثقافة البرجوازية التـي امست في مأزق حقيقي وازمة ضارية تتجسد في الحلقة المفرغة من « الاسئلة دون اجوبة » . وهكذا يصبح الصراع الفكري ــ مـرة اخرى عـلى نقيض ما يتصور البعض ــ كتيبة الصدام الاولى بين النظامين . انه يعكس بطبيعة الحال تناقضا حادا بين التطـور الاقتصادي والاجتماعي عـلى الشاطئين المتقابلين ، ولكن الجبهة الايديولوجية ستظـل اسخن الجبهات في المواجهة الشاملة .

ان القول بأن الثورة التكنولوجية قـد قاربت بين النظامين العالميين ، وانها تحل تدريجيا مكان الصراع الايديولوجي بينهما هو محاولة للفرار من وطأة هذا الصراع الذي يعلن عن نفسه كـل لحظة ، سواء عـلى النطاق المحلي ، او على الصعيد العالمي . وربما كانت حركات الطلبـة والشباب في العالم الغربي مـن اكثر الظواهر تدليلا عـلى ضراوة الصراع ، وربما للفكر البرجوازي الذي رأى الحـل السحري في تمويـه الخطوط الفاصلة بين النظامين . ان هذا « الفكر » يعبر عن نفسه احيانا مـن داخل البرجوازية نفسها ، ومن اقصى يمينها كما نلاحظ على آراء شرايبر الفرنسي في كتابـه « التحدي الامريكي » ويأتينا احيانا أخرى مـن داخـل الماركسية بهدف تشويهها ، كما نلاحظ على كتابات مركيوز التي يلغي فيهـا الدور التاريخي للطبقة العاملة ويحل مكانها الطلبة والشباب .

على اية حال ، فالصراع الفكري يحتـدم اليوم اكثر مـن أي وقت مضى . وبالتالي فان استخدام تعبيرات مثـل « التقارب » و « الوفاق » و « التفاهم » ــ وكلها مترادفات تكاد تهمس بلفظ التواطؤ ــ انما يراد بهـا طمس معالم الصراع الضاري في عالم اليوم . ان الصراع الطبقـي في العالم لا تجمده الاجراءات الاقتصادية والمؤتمرات الدوليـة واللقاءات الثنائية ،

فهذه كلها اشكال للصراع وميادين للقتال ، حتى « معاهدات السلام » هـي احدى صيغ هذا الصراع والقتال . ومحاولة « تبرير » ازماتنا الوطنية من جانب احدى القوى بما يتم بين النظامين العالميين مـن اجراءات لا « يحل » هذه الازمات بل يفاقم منها لان اضفاء شبهـة التحالف بـين الاشتراكية والاستعمار هو ـ في الجوهر ـ محاولة لفصم عـرى التحالف الحقيقي بين الاشتراكية وحركات التحرر الوطني . ان « التعايش السلمي » ليس نظرية جديدة على موقف المعسكر الاشتراكي مـن قضايا الحرب والسلام ، فقـد كان لينين هو أول من نادى بالتعايش ـ او التنافس ـ السلمي بين انظمـة العالم المختلفة ، ولكن الفكـر البرجوازي العالمي ـ ومـن ورائه الفكـر البرجوازي ، العربي ـ هو الذي اعطى التعايش السلمـي مدلولا مغايـرا لمضمونه الاشتراكي .

وفي كتاب « ج. ب. واريـرج » وعنوانـه The West in Crises يعني بالتعايش السلمي الابقـاء عـلى الوضع الراهن بـين الرأسمالية والاشتراكية ، اي الحفاظ على الاوضاع الطبقية في العالم . وهـو المعنى النقيض للمفهوم الاشتراكي عن التعايش السلمي . وهـو المعنـى الـذي يستهدف « استبعاد الحرب » كشكل مـن اشكال الصراع العالمي ، ولكن الصراع في جوهره باق ما بقيت الراسمالية عـلى ظهر الارض . ولا يملك الاشتراكيون بأنفسهم ايقاف ، او تجميد الصراع الطبقـي في العالم ، لانه ليس مرهونا بمشيئتهم ، وانما هو ظاهرة موضوعية لهـا قوانينها المستقلة عن الرغبات الذاتية ولو افترضنا نظريا ـ او جدلا كما يقال بصيغة أدق ـ ان المعسكر الاشتراكي « يرغب » في تجميد الصراع ، فان الرأسمالية مـن جانبها لن تتوانى لحظة في الهجوم واحتلال المواقـع . ان مجـرد تصور الحركة في حالة سكون ، هو تصور معاد للفكر الماركسي ، وبالتالي فالرغبة في هذا السكون تعني التنازل والتراجع . واخيرا الاندحار . ولا يخطر ببال الاشتراكيين في العالـم ـ وهم يجلسون ويجتمعـون ويوقعـون مـع الراسماليين ـ ان هذه هي النهاية . وانما هي في حقيقة الامر نهايـة الذين يتصورون ويصورون للآخرين « التعايش السلمي » بمعنى التقارب والوفاق والتواطؤ . وهي الالفاظ التي مهـدت لتعبير « عصر التفاوض » . وربما كانت « المفاوضات » من اساليب السياسة الدولية منـذ اقـدم عصور التاريخ . وبالتالي فهي ابعد ما تكون علامة صالحة على عصر بالذات . ولكن اصحاب التعبير في العصر الحديث يتجاهلون اشكـال الصراع الدموي في

فلسطين وفيتنام — مثلا — ويركزون الضوء على احدى وسائل الصراع وهي « المفاوضة » مستشهدين في ذلك بما يتم بين شطري المانيا وشطري كوريا، وقد نسوا تماما انهار الدماء التي سالت هنا وهناك حتى جـــاء الوقــت للتفاوض . بل هم يغضون البصر عن الحقيقة التي لا تحتاج الى « النظر » في فيتنام حيث تدور رحى اروع ملاحم البطولة في عصرنا جنبا الـى جنب مع مائدة المفاوضات في باريس . ان المفاوضة بمعنى « القاء السلاح » هي استسلام حتمي لاحد الجانبين ، وانما المفاوضة هي أحــد اشكال الصراع الرامزة الى الوضع الواقعي في ميدان القتال . ليست هنـــاك مفاوضات تجريدية او عاطفية ، وانما هي الوجه الآخر لاستخدام السلاح وعصرنا في ذلك ليس بدعة بين مختلف عصور التاريخ ، وانما يجيء تركيز احد وجهي العملة — وهو التفاوض — وتعميم هذا الوجه على نطاق العصر بأكمله يعني في خاتمة المطاف اننا لا ينبغي ان نخرج على قوانين هذا العصر وفي مقدمتها التفاوض : هذا المطلق المجرد من سياقه وملابساته .

★★★

هذه كلها ليست اكثر من نماذج وعينات لمجموعة التغييرات والالفاظ التي شاعت بيننا هذه الايام على ضوء ما يسمونه بمتغيرات العصر الجديد . وهي في مجملها تشكل معجما جديدا في فهم العلاقات الدولية من وجهة نظر تعني بعض الاطراف الوطنية التي ترى — بذكاء وخبث — في هذا المعجــم ، بالرغم من مصادره الاصلية الامريكية ، لغتها الفكرية والسياسية .

واذكر انني قرأت في صباي كتابا صغيرا لستالين عن اللغة ، ابعدهـــا فيه عن البناء الفوقي للمجتمع واعتبرها ظاهـــرة « قوميـــة » تخص كـــل الطبقات الاجتماعية فهي « لسان الوطن » وليست أداة طبقية . ولعـــل اضافة العصر الذي لم يره ستالين ، هي انه رغم الأصالة القومية للغــة ، فان وجهها الاجتماعي لا يقل هو الآخر اصالــــة . ان منجزات الثـــورة التكنولوجية فيما يسميه البعض بثورة المواصلات قـــد منحت الوظيفـة الاجتماعية للغة ابعادا جديدة بحيث لم يعد ممكنا القول بأن هناك « لغــــة محايدة » ... بل لقد أمست اللغة في الفكر السياسي والاجتماعي سلاحـــا ايديولوجيا ، ما اخطره .

الطليعة — يناير ١٩٧٣

المنظمة الوطنية

لدخول الجنة ..

ايا كانت النتيجة التي سوف تسفر عنها التحقيقات المصرية في قضية « الكلية الفنية العسكرية » ، فان الملاحظة الرئيسية على ردود الفعل الاولية هي : وصف الحركة في البداية بانها ذات ميول يسارية ، ثم التركيز الاعلامي المكثف حول جنسية زعيم التنظيم وهو فلسطيني ، ثم نسبة العمل كله الى دول خارج الحدود .

تقودنا هذه الملاحظة الى ان التصور الفوري لدى بعض أجهزة السلطة في مصر هو « اتهام اليسار » مباشرة بأي عمل تخريبي ، بالرغم من ان ملفات نيابة امن الدولة ، والمحاكم العسكرية والمباحث والمخابرات ، تشهد بأن يساريا واحدا لم يقبض عليه طيلة السنوات العشرين الماضية وفي بيته مسدس ، وتشهد بأن العنف لم يكن واردا على الاطلاق ، حتى ولا في النوايا من جانب اليسار . اما الكتب والمنشورات وأجهزة الطبع البدائية ، فقد كانت كل مضبوطات اليسار والقرائن والادلة المأخوذة عليه .

تقودنا هذه الملاحظة ايضا الى ان التصوير الفوري من جانب بعض اجهزة السلطة في مصر ، هو ان « العرب » اساس الشغب داخل البلاد و « الفلسطينيون » على وجه الخصوص ما دام زعيم التنظيم ليس مصريا. هذا في الوقت الذي تثور فيه النعرة الاقليمية من جديد على السنة واقلام عتاة الرجعية المصرية .

وتقودنا هذه الملاحظة اخيرا الى ان « الداخل » سليم ، لولا « الخارج » الذي يهددنا دائما .

لماذا ؟ لماذا ، بالرغم من ان المعلومات التي تأكدت حتـى الآن هـي أن الحركة يمينية متطرفة ، وان زعيمها الفلسطيني محكوم عليه من احـدى منظمات المقاومة ، وانه مطرود من احدى الدول التـي اقترن اسمه باسمها في البدايـة ؟

السبب ببساطة هو ان بعض اجهزة السلطة في مصر يمينية بطبيعتها وبظروف تكوينها وتاريخها ، بحيث انهـا لا تستطيع أن تصور « يمينيا » خارجا عليها ، وبحيث تفترض دون تفكير او تأمل ان اليسار متهم دائمـا ولو ثبتت براءته .

السبب ايضا هو ان هذه الاجهزة تربت وتفذت وترعرعت في الظـلال الوارفة للاقليمية .. ان الوطن العربي بالنسبة لها لا يعني سوى مجموعة من العواصم والبؤر والاشخاص الذين يعملون معها .

السبب اخيرا هو أن هذه الاجهزة من الفرور والانتهازية والتآمـر بحيث لا ترى او لا تريد ان ترى او انها ترى ولا تريد لغيرهـا ان يـرى « الداخل » عليلا ، لذلك كان من أيسر الامور ان يكـون « الخارج » كبش الفـداء .

هكـذا !..

بينما كان الاجدر بها ــ بدلا من تعقب المناضلين الوطنيين الحقيقيين ــ ان تفتح ملفات اليمين المصري المتطرف ، لتلاحظ دونما عناء انه منذ عام ٥٤ الى عام ١٩٧٤ لم يرفع احد غيره السلاح في وجه النظام المصري ! منـذ حادث « المنشية » حين أطلق احد الاخوان المسلمين الرصاص على جمـال عبد الناصر في الاسكندرية ، الى حادث « الكليـة العسكريـة » مـرورا بمؤامرة ١٩٦٥ ظل التيار الارهابي للاخوان المسلمين ، هو أكثـر التيارات ضراوة في مواجهة السلطة . وكان « الدين » دائما هو الستار الايديولوجي الذي يختفون بأهدابه .

والسؤال البديهي : كيف استطاع ان يعيش هذا التيار كل هـذا الزمن ، رغم البطش والقهر الذي وصل الى درجة الحكم بالاعدام عـلى قيادتين متعاقبتين للاخوان المسلمين ؟

أجيب : لهذا السبب نفسه ، فالتصفية البوليسية والدموية لتيارات اليمين الديني المتطرف ، قد أذكت النيران بلهب جديد . انهم يتحولون في

نظر المتعصبين الى شهداء يدخلون الجنة من اوسع ابوابها . وقد كانت التصفية السياسية هي الشكل الوحيد الذي يؤدي بهم الى النهاية المحتومة . ذلك ان القضية ليست محصورة في عشرة زعماء يمكن الخلاص منهم ، وانما هي قضية الآلاف المؤلفة من الشباب الذي يستغلون نقاءه وبراءته والارضية الدينية التي يقف عليها . هذا الشباب ، لم يعط بعد فرصة الحوار الديمقراطي العميق حول الاسس الجوهرية التي يقوم عليها الفكر اليميني المتطرف . لم يناقش احد كتابات سيد قطب بما هي جديرة به من مناقشة علمية موضوعية بعيدة عن المهاترات ، وانما صادروا « معالم على الطريق » و « جاهلية القرن العشرين » ، فأصبحا اكثر رواجا في السر منهما في العلن . ولم يسمح لليسار بالرد على هذا الاتجاه رغم تسلحه بكافة ادوات المعرفة القادرة ، خشية ان يكون رد الفعل هو انتقال بعض العناصر من المواقع اليمينية الى المواقع اليسارية .

لقد استراحت السلطة الى اسلوب القهر البدني وحده ، كأقصر طريق في ظنها ، الى اغتيال التيارات السياسية . ونسيت انها بذلك تحاول ما هو ابعد استحالة من المستحيل . قد يهزم التعذيب والموت بعض الناس ، ولكنه لا يهزم الفكر ، خاصة اذا تحول الى عقيدة دينية ، وخاصة اذا كانت اسسه الموضوعية راسخة في بناء المجتمع ومؤسسات النظام وبرامج الوعي .

وتنسى السلطة ان الاخوان المسلمين في ظل أكثر فترات الديمقراطية ازدهارا — قبل حركة ٢٣ يوليو — لم يحصلوا على مقعد واحد في مجلس النواب ! ولكنها فضلت ان يطلب جمال سالم — عام ١٩٥٤ — من أحدهم ان يتلو الفاتحة بالمقلوب ، وان يقرأ احدى السور من نهايتها !! وكانت النتيجة ان الاخوان المسلمين لم يلقوا السلاح من ايديهم في اي وقت .. طيلة العشرين عاما . بل لعلهم ازدادوا مع الايام عددا وعتادا وصلابة واصرارا .. ذلك ان اقصى درجات التوعية التي قامت بها « الثورة » ، انها استكتبت بعضا من مشايخ الازهر كراسة بعنوان « اخوان الشياطين »! كلها سباب وتهافت لا يقف على قدمين .

على « الارضية الدينية » لن يستطيع اي عضو في هيئة كبار العلماء ان يربح معركة فكرية جادة من احد مثقفي الاخوان المسلمين . الحجة الدينية في يد الاخير أقوى .

مع هذا فقد كان رد الفعل الاعلامي والرسمي من جانب النظام هـو المزيد من التظاهر بالدين . وقد كانت هذه بداية التنازل الايديولوجي لليمين الديني ، لان الاستقامة المنطقية للتظاهر بالدين هي اتخاذه دعامة عقائدية ، كانوا يضعون البنزين على اعواد الكبريت وهم لا يدرون ، او يدرون ! كانوا يقولون ان الدين شيء والسياسة شيء آخر ، وان الدين شيء والسلاح شيء آخر !

ولم يصدقهم احد ! استفحلت الظاهرة واصبحت خطرا حقيقيا على النظام ! كان اعتبار الدين مادة رئيسية في برامج التعليم وتخصيص حيز ضخم للبرامج الدينية في الاذاعة والتلفزيون والصحافة وادخال مواد جديدة على الدستور لا تكتفي بدين الدولة الرسمي بل وتجعله مصدرا اساسيا للتشريع مجرد مناورة من جانب السلطة للدفاع عن النفس .. فاذا بها تصبح الوقود الذي اشعل المحرك لقلب نظام الحكم بالقوة المسلحة . حتى عندما كان الانذار الاول على هيئة فتنة طائفية لم ينتبه احد الى الجذور ، او ان احدا لم يشأ ان ينتبه .

وقد كان البديل الوحيد ممنوعا ، ولا يزال ! ومقدما ، اقول ان هذا البديل لم يكن في يوم من الايام هو الالحاد ! اكثر من ذلك اقول ان البديل ليس هو اليسار بالضرورة ! ان تقليدا فكريا عظيما ينحدر الينا من رفاعة رافع الطهطاوي ، هو التيار العلماني الديمقراطي ، قد كان ولا يزال جديرا بأن يكون البديل . ان معركتنا ليست مع السماء ، وانما هي على الارض ، لذلك فالالحاد ليس هو الحل .. بل « فصل الدين عن الدولة » في كافة التشريعات والبرامج والمناهج واساليب التربية هو المقدمة الصحيحة لبناء مجتمع حديث ومتحضر وعصري ، مجتمع برجوازي مستنير . ومعركتنا – ايضا – لا تدور عشية الثورة الاشتراكية حتى يصبح اليسار هو الخطر الداهم !! معركتنا مع التخلف والتقدم الاجتماعي تدور في اطار بالغ الرحابة يتسع لمختلف الطبقات الوطنية . ومعركتنا ضد الاستعمار والصهيونية تدور في اطار يستلزم الاسلوب الديمقراطي في الحكم .

هذا الاتجاه العلماني الديمقراطي هو صلب التجارب البرجوازية كلها ، وهو رصيد التحول الاجتماعي العميق نحو الاشتراكية .

ولكن بعضا من السلطات الوطنية في بلادنا تتبنى ماديا الدعوة الى التصنيع والتكنولوجيا ، وتتبنى روحيا الافكار البدائية والعبودية

والاقطاعية . ومن هذه الثغرة تنفذ القوى اليمينية المتطرفة : فليس هناك اتساق بين البنى التحتية والبنى الفوقية للمجتمع ، وانما هنالك شرخ مرده التذبذب في اختيار الطريق وهبوط مستوى الوعي والمصالح الموقوتة لبعض الفئات والشرائح الطبقية .

ولا أحد يقدم « الحركة الاجتماعية » كأرضية للصراع بدلا من « العقيدة الدينية » ومحتواها السياسي .

على صعيد الحركة الاجتماعية لا يمكن لطالب ان يرفض مجانية التعليم ، ولا لعامل ان يرفض المشاركة في الادارة والربح ، ولا لفلاح ان يرفض التعاونيات الزراعية التي تمده بالقروض والبذور وادوات الحرث والري ، ولا لمثقف ان يعمل موظفا عند رأسمالي ، ولا لبرجوازي صغير ان يكون مهددا كلّ لحظة بالافلاس والانتحار .. وكل هذه الفئات والشرائح والطبقات هي الخامة الاساسية للتيار الديني المتطرف . على أرضية العقيدة يكسبه اليمين الاخواني مالئا فيه كافة الفراغات والحفر التي احدثتها الثقافة التافهة وغياب التنظيم السياسي ، اي انعدام الديمقراطية والعلم .

.. فلو انه لم تكن هناك السلة الواسعة المسماة بالاتحاد الاشتراكي، ولو ان كافة السلع الفكرية مطروحة في السوق بمساواة كاملة ، ولو ان مستوى الوعي لم يصبه الانحطاط المزري والمخزي معا .. لما استطاع الاخوان المسلمون ان يظلوا على قوتهم « التنظيمية » هذا الوقت الطويل .

ان قوتهم « الفكرية » من التهافت بحيث لا تحتاج الا الى الحوار الديمقراطي الحر .

وهم ، سوف يبقون في اوكارهم ، طالما ان هذا الحوار لم يفتح بعد..

وهم ، يشجعون « الظلمة » التي يعيشون فيها ، لا يريدون الحوار ولا الشمس ولا الهواء .. وانما يريدون حياة الجحور . لانهم يدركون اكثر من غيرهم ان فتح باب الحوار هو بداية تصفيتهم السياسية من الجذور ، من اعماق الارض . اما القمع الاداري فيزيد مبررات وجودهم ، ويطيل — من ثم — في عمرهم .

وهم لا ينتظرون « اوامر من الخارج » ليتحركوا .. لأنهم ظاهـــرة موضوعية من داخل المجتمع ، قد تربطها وشائج الفكـر والمصلحة بـــــل والتنظيم ، بخارج الحدود .. ولكنها في الاصل ظاهرة اجتماعية اصيلة ..

بمعنى ان ظروفا داخلية صميمة ـ لا خارجية ـ هي التـــي هيأت للاخوان المسلمين مناخ الولادة والنمو والاستمرار .

وما دامت « الولادة » لا تتصل بموضوعنا وما دام النمو قـد حـدث فعلا ، فان نضالنا ضد « الاستمرار » هو الواجب الوطني الملح .. قبل ان تتكرر مأساة « الكلية الفنية العسكرية » !

نضالنا يتركز على سحب « الارضية الدينية » من تحت اقدامهـم ، بعلمنة الدولة وديمقراطيتها .. وبطرح الحركة الاجتماعية كأساس للصراع بدلا من العقيدة .

ولندرك تماما ان الديمقراطية ـ دائما ـ تدعم التيار الاكثر تقدمـا . فلا ينبغي ولا يصح ان نخشاها .. وحين تخطـىء الديمقراطية ، فالعـلاج الوحيد هو المزيد من الديمقراطية .

وقد آن الاوان لان يدرك « البعض » ان اليسار ليس ارهابيا ، وان العرب ليسوا هم التتر ..

.. بل اليمين الديني المتطرف !

هذه البديهية ، متى يدركوها قبل فوات الاوان ؟

الدستور ١٩٧٤/٥/٦

يلح الاستاذ محمد حسنين هيكل الحاحا متواصلا على فكـرة تبـدو جديدة ولامعة ، وهي ان ثورة المواصلات المعاصرة قـد استحدثت أدوات جديدة لتنظيم الجماهير وتعبئتها ، كالراديو والتلفزيون ، وبهما ينتهي دور الحزب الذي يشرف فعلا على الانتهاء في اكثـر بلـدان الغرب ديمقراطية . ذلك ان الحزب ليس أكثر من همزة وصل بـين الزعيم والجماهير ، فـاذا استطاعت التكنولوجيا الحديثة ان تؤدي هذه الوظيفة على نحو أفضل من التنظيم الحزبي وجب الغاؤه .

والطريف ان هيكل بهذا التصور كان يحاول ان يبرر الفشل الـذي منيت به التجربة التنظيمية في ظل عبد الناصر . وقد استدرجته المحاولة الى حدود التعميم المطلق .. فهو لم يكتف بقلب الحقائق الخاصة بتجربـة ٢٣ يوليو ــ تموز مع التنظيم السياسي، وانما أراد أيضا أن يدعم «التبرير» بركائز من روح العصر ومنجزات العلم .

والحقيقة هي ان عبد الناصر كان اول مـن اعترف بهـذا النقص الخطير في حركة الثورة ، وهي أنها صفت الاحزاب القديمة ولـم تقـدم البديل . وكان دائما يردد أن « الرجعية » لها حزبها المنظم النشط ، بينما « الاشتراكية » بلا حزب . وظل الى قبل رحيله بعام واحـد يؤكـد ان الاتحاد الاشتراكي ثوب فضفاض وعباءة واسعة تضم الكثير مـن عناصر اليمين والانتهازيين واعداء الثورة . وكان « التنظيم الطليعي » املا عنـد مؤسس الناصرية ، ليكون نواة الحزب في المستقبل .

ونحن مطالبون بأن نصدق جمال عبد الناصر أكثر مـن غيره لانـه

صاحب التجربة اولا ولانه يتكلم بشأنها في مجال النقد الذاتي اي في مجال استخلاص العبرة وليس الفخر او الادعاء .

كيف اذن قفز هيكل فوق حقائق التجربة واعترافات رائدها ، ليصل الى تخوم هذه الفكرة « الجديدة » و « اللامعة » القائلة بانتهاء دور الحزب في حياة الدول والبشر ؟

لعلنا يجب ان نقر بأن الاستاذ هيكل في هذه النقطة كان منسجما مع فكره التبريري الباكر .. انه صاحب كتاب « نظرة الى مشاكلنا الداخلية على ضوء ما يسمونه أزمة المثقفين » الذي صدر عام ١٩٦١ بعد نشره مقالات في « الاهرام » وقبل صياغة « الميثاق » وتأسيس الاتحاد الاشتراكي . في هذا الكتاب يدين هيكل الاحزاب القديمة التي رفضت الثورة من اليوم الاول برفضها تحديد الملكية والاصلاح الزراعي . ثم تنتهي به ادانة الاحزاب الى رفض مبدأ الحزبية ذاته ، والتنظير لفكرة التنظيم الواحد الجامع المانع ، بحجة جاهزة هي الوحدة الوطنية وحماية الثورة من التطرف يمينا او يسارا .

لم يكن هذا الكتاب مجرد تبرير لما حدث وما سيجيء . وانما كان — ولا زال — منهجا في التفكير السياسي لدى بعض النظم الحديثة الاستقلال والتي تنتمي بلدانها الى العالم المتخلف . هذا المنهج يقول :

● ان مجرد قيام الطليعة المسلحة بتغيير السلطة ، انما يلغي عمليا الدور القديم والوحيد للحزب : فالكتيبة العسكرية هي التي تملك « القوة » على احداث التغيير ، وليس الحزب الذي لا يملك سوى « التعبئة الفكرية » .

● الزعيم او قائد الثورة هو الرجل الاول صاحب القرار ، ولا يحتاج الامر — ليصل هذا القرار الى الجماهير — الى حزب ، وانما الى الاجهزة الادارية والتكنولوجية : الاولى للتنفيذ والثانية للاقناع .

● الجماهير او القوى الشعبية ليست طبقات اجتماعية متباينة المصالح وانما هي « كتلة بشرية غلابة » لا بد من قيادتها بصورة مباشرة

ومركزية لا بصورة هرمية متعددة المراكز .

★★★

في واقع الامر كان هذا المنهج في التفكير السياسي يؤصل التناقض المفتعل بين الديمقراطية والتحول الاجتماعي ، ويفتح الثغرات الواسعة في جدار البناء الجديد .. وهي الثغرات التي نفذت منها مخالب الثورة المضادة سواء كان « الزعيم » حيا كما حدث مع سوكارنو ونكروما ، او كان ميتا كما حاول البعض غداة رحيل عبد الناصر .

ذلك ان الطلائع المسلحة التي قامت بالتغيير في بعض اقطار ما يسمى بالعالم الثالث لم تتخلق في الفراغ ولم تولد من الروح القدس .. وانما هي ارتبطت مباشرة او بطريق غير مباشر بالاحزاب القائمة في هذا البلد او ذاك ، ارتبطت بحركة المد والجزر الثوري والفليان الشعبي المنظم . ان تنظيم « الضباط الاحرار » هنا او هناك لم يكن كائنا ميتافيزيقيا معلقا في الفضاء ، والا كانت حركته مجرد « مغامرة » او في احسن الاحوال « مقامرة » لا تترك اثرا يذكر . انه عدوان سافر على التاريخ القول بأن تنظيمات الضباط الاحرار في آسيا وافريقيا وأميركا اللاتينية — بل وفي اوروبا كالبرتغال — كانت بعيدة عن الحياة الحزبية للبلاد .

كذلك فانه مع احترامنا لدور الفرد في التاريخ ، فانه لم يثبت حتى الآن ان هناك فردا — ايا كان حجمه — قد ادار دولته بسماعة التليفون او عبر ميكروفونات الاذاعة وشاشات التلفزيون . ان الحكم الفردي — اي في غياب تعدد الاحزاب — لا يعني مطلقا ان فردا واحدا هو الذي يحكم . وانما يعني ببساطة ان هناك قبيلة من الضباط او المدنيين او منهما معا هي التي تحكم في غياب « المشاركة الجماهيرية » . ان تقديم الهاتف والراديو والتلفزيون بديلا للحزب ، ليس تقدما عصريا كما يتراءى للوهلة الأولى ، وانما هي عودة بدائية الى النظام القبلي في ادارة الدولة . ذلك ان الهدف الحقيقي من هذا البديل « العصري » هو احلال البيروقراطية محل الديمقراطية واحلال الشرطة محل الجماهير . كما ان المقصود بهذا البديل التكنولوجي هو تمجيد العفوية اي تلك الهبات الشعبية التلقائية . وقد كان رد التاريخ على هذه الدعاوى المزيفة ساحقا : فدولة الاجهزة في اي نظام هي التي تسقط ، ولا ينقذها جبروت البيروقراطية من السقوط

المدوي . كذلك فالهبات التلقائية للجماهير غير المنظمة مصيرها المحتم هـو الزوال والتبدد او الاحتواء من جانب الثورة المضادة المنظمة .

أما النظر الى الجماهير او ما يسمونه عامدين « القـوى الشعبية » وكأنها كتلة سديمية يمكن توجيهها مباشرة ومركزيا ، والا فزمام « الوحدة الوطنية » يفلت ، والا تعرضت « الثورة » لخطر الانقلاب .. فانه نظـر قصير مرده عدم الايمان الحقيقي بالجماهير واهتزاز الانتماء اليها . ويبدو المرء في وضع مهين حين يضطر الى تكرار الاوليات التـي أصبح أعـداء الديمقراطية في « العالم الحر » لا يتجاهلون موضوعيتها : وهي ان الجماهير طبقات اجتماعية تتباين مصالحها الاقتصادية والسياسية . وقد كان ظهور الاحزاب في التاريخ البشري انجازا باهرا وان يكن طبيعيـا ومحتومـا . فالحزب هو الشكل الضروري لمضمون الطبقة الاجتماعية عـلى كافـة الاصعدة المادية والفكرية . والشكل هنا ليس وعاء زجاجيا جامدا ، وانما هو حركة حية متفاعلة بغير انقطاع مع المضمون الاجتماعي المتطور . لذلـك كانت الاحزاب وستظل لامد طويل هـي التعبير السياسي الاكثر وفـاء وتجسيدا لحاضر الطبقات المختلفة ومستقبلها .

★★★

اي ان الحزب في جوهره العميق ليس اداة توصيل قرارات ولا أداة شحن انفعالات ، فهو شيء مختلف أصلا عـن وسائل المواصلات الحديثـة السلكية واللاسلكية . وعندما يقـال ان الحـزب اداة الجماهير في تغيير السلطة ، فان كلمة « أداة » هنا مجاز لغوي لا علاقـة لـه بمعنى الاداة الميكانيكية او الكهربائية . الحزب ـ كتنظيم سياسي لا كلافتـة ـ هـو الطلائع المقاتلة في مقدمة صفوف احدى الطبقات . اي ان الحزب في حقيقة الامر هو النقيض الديمقراطي لحكم الفرد ونظام القبيلة .. فالميكروفون أو شاشة التلفزيون لا تتحول الى حزب عنـد انصار التكنولوجيا وانما القبيلة المحيطة بالزعيم هي التي تحتل عمليا مكانة الحزب ، اي انها ـ بصراحة ! ـ تغتصب دور الجماهير وتشل فعاليتها وتسحقها .

ان اقحام الراديو والتلفزيون في هذه القضية يبدو كاريكاتوريا الـى أقصى الحدود .. لان منجزات التكنولوجيا الحديثة يمكن توظيفهـا سواء بسواء ، في خدمة القبيلة او في خدمة الحزب .

ان جماعة ١٤ مايو — أيار ١٩٧١ في مصر كانت تملك كافـة وسائـل الاعلام ومختلف « أجهزة » الدولة ، ومع ذلك سقطت ، اسقطها منطقهـا ذاته ، منطق « القبيلة » وليس منطق الحزب .

ولكن افتعال هذه الفكرة « الجديدة » و « اللامعة » والتي تبدو في عصريتها آخر مودة ، كانت ذات قيمة عند اصحابها حين كان عبـد الناصر في الحكم .. اما الآن فانها تقتحم الساحة ، وكأنها لم تستفد من التجربـة وهزائمها واعترافات رائدها .

فالوحدة الصوفية بين القائد والجماهير عبـر همزات الوصـل التكنولوجية لا تؤدي في خاتمة المطاف الا الى نوع من الفاشية الجديـدة . انها تفترض في الجماهير « أجهزة استقبال » آلية ، اي انها تنفي الحـوار وتلغي العقل .

أما الوحدة الوطنية فلا تتم بالوصاية من أعلى ، وانما تتـم الوحـدة الحقيقية من خلال صراع المتناقضات في صفوف الشعب . واما « حمايـة الثورة » فلا تتم بقوات الامن المركزي وفتـح السجون والمعتقلات باسم سيادة القانون .. وانما يحمي الثورة اصحابها من الطبقات الاجتماعيـة المستفيدة منها عبر تنظيماتها المستقلة .

★★★

وغير ذلك ، سيظل الطريق مسدودا ، وستتسع الثغرة اكثر وأكثر في جدار البناء الذي أرسى دعائمه جمال عبد الناصر ..

سيظل الطريق مسدودا أمام تحريـر الارض ، وامـام الازمـة الاقتصادية الحادة ..

فالديمقراطية هي الحل الوحيد : على الصعيـد الاجتماعي هـي مشاركة اوسع الطبقات الشعبية في الانتاج والاستهلاك . علـى الصعيـد السياسي هي مشاركة هذه الطبقات في صنع القرار ..

ولن يكون ذلك الا برفض الفكر القبلي حتـى ولـو تمسح في اهـداب

التكنولوجيا الحديثة .. انه الفكر الذي يقفز فوق الطبقات ولكنه ينتهـي الى الفراغ والهزيمة . انه الفكر الذي يستدرج غرور « الفرد القـــوي » ليحكم من ورائه بالاجهزة ، انه الفكر الذي يستدرج « عفويـة الجماهير » الى مصيدة الصدفة . انه فكر القرار لا فكر الحوار .

ولن يكون ذلك أيضا ، الا بقبول فكرة الحزب الذي يجسد قولا وعملا حاضر الطبقة التي يعبر عنها ومستقبلها .. الحزب الـــذي يواكب روح العصر ولا تعشعش داخله روح القبيلة ، الحزب الذي لا يكذب على اللافتة التي يرفعها .. ولكن هذه قصة أخرى .

المحرر ١٩٧٥/٢/٣

ما كانت ٦٧ نهاية التاريخ ..
ولا كانت ٧٣ بدايته

من الآفات الرئيسية في الفكر العربي الحديث ، النظرة الاحادية الجانب . وهي ليست مرضا خاصا بمدرسة فكرية دون اخرى ، وانما هي مرض شائع بين مختلف المدارس والاتجاهات . انها ليست مجرد رؤية يقينية تجنح الى « الايمان » اكثر من العلم ، وليست مجرد رؤية لوجه واحد من وجوه الحقيقة . ذلك ان الايمان بالشيء مرحلة تالية للكشف العلمي ولا تناقض بينهما ، كما ان الحقيقة كل واحد لا يتجزأ الى عدة وجوه ومن يستطيع رؤية جانب منها يقدر على رؤية بقية الجوانب . أما النظرة الاحادية الجانب ، فهي اولا نظرة اسقاطية ان جاز التعبير ، بنفيها للواقع الخارجي وأسره في شباك الذات . وهي ، ثانيا ، نظرة تجريدية تخضع الكثافة الموضوعية للواقع للعبة الرمز والتعميم . وهي ، ثالثا ، نظرة سكونية تنطوي على الجمود بانعدام قدرتها على رؤية الظواهر في حالة حركة ، سواء كانت الحركة الداخلية للظاهرة او الحركة خارجها او حركة التفاعل بين الداخل والخارج . وهي ، رابعا ، نظرة تفتيتية تجزيئية لا لا تتبين همزات الوصل العديدة بين مختلف الظواهر ، طبيعية كانت او انسانية ، وانما هي ترى الاشياء معزولة عن بعضها البعض ، فتهمل السياق الديناميكي الذي يربط المقدمات بالنتائج . وهي ، خامسا ، نظرة فوقية نتيجة تشابك العناصر السابقة مجتمعة ، فلا ترى سوى سطوح الاشياء بخطوطها المستقيمة او المتوازية او المتقاطعة .

★★★

اكرر ان هذا المرض الشائع في فكرنا الحديث ، والذي ندعوه بالنظرة الاحادية الجانب ، قد افترس الغالبية العظمى من التيارات

والاتجاهات الفكرية المصطرعة في الوطن العربي . بل ان تغلغل هذا المرض كشف تلقائيا عن خلل مروع في رؤانا ، نستطيع تسميته برد الفعل الانفعالي . النظرات الاحادية كانت ولا تزال تستولد نقيضها الاحادي النظرة كرد فعل عفوي يؤكد من زاوية اخرى ان الاستعداد الاولي لدى الاطراف الاخرى من الحوار لا تختلف عناصره ، حتى وان اختلفت « الآراء » فالرؤية جوهريا واحدة .

وكانت الهزيمة العربية عام ١٩٦٧ عينة نموذجية ، ومحكا كاشفا للمرض الرئيسي ومضاعفاته الثانوية . كما اقبلت حرب اكتوبر - تشرين الاول ١٩٧٣ لتؤكد ولا تنفي .

ماذا قيل بشكل عام عن الهزيمة ؟

● قيل انه « التخلف » هو السبب ، فغياب الدولة العصرية والتكنولوجية الحديثة ، هو الذي ادى بنا الى خسران الحرب ، « فاسرائيل » متفوقة علينا في الحضارة والمدنية بتفوقها التكنولوجي والعلمي وخاصة في المجالات العسكرية . ودعا اصحاب هذا الاتجاه الى الاخذ الفوري بأسباب الحضارة العلمية الحديثة اذا شئنا النصر على عدونا من ناحية واذا شئنا اللحاق بركب العالم المعاصر من ناحية اخرى .

● وقيل انها « الدكتاتورية » هي السبب ، فغياب دولة المؤسسات ادى الى غياب الديموقراطية ، والمواطن الذي لا يملك حريته في الداخل لا يستطيع ان يدافع عن حرية الوطن وحدوده . ان بطش اجهزة القهر بالانسان العربي سلبه القدرة على القتال . ولا بد من « العودة » الى الديموقراطية اذا شئنا الانتصار على عدونا « الديموقراطي » من ناحية واذا شئنا الانتساب الى « العالم الحر » من ناحية اخرى .

● وقيل انها « الثيوقراطية » هي السبب فالمجتمع القائم على الخرافة والمستنيم للغيبيات والمخدر بالتراث ، هو مجتمع مصاب بالفالج الروحي . ولا سبيل امامنا الا بثورة علمية لا تبقي على الخزعبلات والدراويش والمجاذيب والاحجبة والتعاويذ والتمائم . ان « اسرائيل » القائمة على اسطورة ، هي نفسها دولة « علمانية » ولذلك تمكنت من هزيمتنا ، لان العلم هو الذي هزم الخرافة ، والعلمنة هي التي هزمت الثيوقراطية .

● وقيل العكس ، أنه « الالحاد » هو السبب ، فانهيار القيم الروحية وغياب التعاليم الدينية هو الذي أشاع التفسخ العائلي والتحلل في العلاقات الانسانية . بينما عدونا يواجهنا وحدة واحدة أساسها الدين .

● وقيل انها « البرجوازية » هي السبب ، فهي مصدر التخلف والقهر ولا مصلحة لها في تحرير الارض .

● وقيل العكس انها « الاشتراكية » هي السبب ، لان المال العام كان مالا سائبا أغرى بالسلب والنهب والفساد ، أفقرت الاغنياء وزادت الفقراء فقرا . ثم ان بلادنا بطبيعتها ضد الاشتراكية (اما لانها ضد حرية الفرد عند بعضهم واما لانها ضد الدين كما زعم البعض الآخر) .

● وقيل انه لم يكن في الامكان أبدع مما كان وانه « الاستعمار » هو السبب ، فقد أراد ان يضرب الانظمة التقدمية وان يسقط قادتها ، لذلك فان ما حدث في ٦٧ ليس هزيمة ما دام الهدف من الحرب لم يتحقق ولم تسقط الانظمة .

● وقيل انها « الصهيونية » هي السبب ، انها الاخطبوط ذو الألف رأس ، والذي يتحكم بالعالم كله كالقدر ، انها في الهواء الذي نتنفسه .

وليس هذا رصدا لكل ما قيل ، وانما هو مجرد خطوط عريضة لمجموعة « النظرات الاحادية الجانب » التي استولت على الرؤى العربية غداة الهزيمة في ٦٧ . وفي مجملها العام كانت ترى في هذا العام نهاية التاريخ بالنسبة للامة العربية ، اذ سوف تموت – في ظنهم – أجيال واجيال قبل ان تحبل أمتنا من جديد بالديموقراطية او العلمانية او الاشتراكية . وسوف يموت الاحفاد وأحفاد الاحفاد قبل ان تموت الصهيونية والاستعمار والبرجوازية والرجعية . وقد نضحت آدابنا وفنوننا بهذه الدماء السوداء زمنا طويلا ، حتى ان قارئها أصبح يشك في نفسه ويتساءل نيابة عن وطنه : كيف لم ينقرض منذ زمن طويل ؟ وفي ميدان الفكر السياسي تولد الشعور المبالغ بعبث النضال ما دامت « اسرائيل » عدوا لا يقهر ، او حتمية النضال لاسقاط الانظمة التي صنعت الهزيمة . اما الذين رأوا اللون الوردي يرفرف مع ثبات الانظمة فقد ناموا في سبات عميق .

★★★

ثم اقبل السادس من اكتوبر – تشرين الاول ١٩٧٣ اي بعد حوالي ستة اعوام من الهزيمة . وكانت « الحرب » . فماذا قال هؤلاء انفسهم ؟

● قال فريق ان الحرب تمثيلية محبوكة الاطراف والاخراج .

● وقال فريق آخر انها الحرب الاولى التي ينتصر فيها العرب منذ قرون بعيدة امتدت لدى البعض الى صلاح الدين ولدى البعض الآخر الى أحمس أيام الفراعنة . وقال هؤلاء واولئك انها الحرب التي تفتح صفحة جديدة في التاريخ الانساني بأكمله لا في تاريخ العرب وحدهم .

غير ان الفريقين كليهما تجمعهما روح « المفاجأة » لا بمعناها العسكري المحدود ، وانما بدلالتها الفكرية الشاملة . فوجئوا بهزيمة ١٩٦٧ وها هم يفاجئون بحرب ٧٣ وكلاهما لا يرى سوى الظلمة الدامسة او انبلاجة الفجر البيضاء . لا وسط بينهما رغم ان طريقة النظر واحدة ، هي الرؤية الاحادية الجانب ، ذلك المرض قد يصيب العين اليمنى او العين اليسرى ، فيختلف هذا الجانب عن ذاك ، ولكن جوهر الرؤية لا يتغير ، ونتائجها الواقعية واحدة .

ويضيع التوفيقيون ضياعا مؤكدا حين يتصورون العلاج السحري والشفاء العاجل في تلك المعادلات الرياضية البسيطة التي لا تخرج غالبا عن حاصل الجمع بين المتناقضات متوهمين ان لكل وجهة نظر وجاهتها ونصيبها من الحقيقة، فحين نجمع السلبيات المختلفة التي عددتها الاتجاهات المذكورة سوف نعثر على الحقيقة الضائعة ، حقيقة الهزيمة . كما اننا حين نجمع بين شك المتشككين وايمان المؤمنين بحرب اكتوبر ، سوف تكتمل بين ايدينا الصورة الحقيقية لهذه الحرب .

والتوفيقيون ، شأنهم شأن الاطلاقيين ، اناس يريحون انفسهم من عناء التفكير . انهم بدلا من ان يضعوا علامة (–) او علامة (+) يضعون هذه الى جانب تلك هكذا (– +) وكفى المؤمنين شر القتال . هؤلاء هم المبررون الكبار فهم يستخرجون من الانشاء العربي كنوزا في الالفاظ والتعبيرات ، تقيهم شر اتخاذ المواقف وتضفي عليهم ثوب كافة المواقف . انهم « جاهزون » دائما ، وبمأمن من التقييم او التقويم . هؤلاء ، ايضا ، فوقيون ، لانهم بتوفيقيتهم – او تلفيقيتهم – جمعوا بين مشاهد الاسطح

العلوية ، جمعوا بين المستقيمات والمتوازيات والمتقاطعات ، اي انهم جمعوا بين « وجهات النظر الاحادية » ولم يستكشفوا المسافة من المقدمات الى النتائج ليتعرفوا على فساد السياق او صوابه . وانما هم اكتفوا بالنتائج ـ مهما تضاربت ـ في سلة واحدة .

الاطلاقيون والتوفيقيون جميعا لا يرون التاريخ وانما هم مولعون بتحديد نقاط البداية ونقاط النهاية دون اعتبار للسياق الكامن والظاهر بين البداية والنهاية. هذا السياق المتقطع والمتصل معا، هو التاريخ . وهو ليس كمجرى النهر له منبع وله مصب . وانما هو كالماء ذاتها بلا بداية او نهاية ، مناسيبها ترتفع او تنخفض تتحول الى جبال من الثلج في مكان وتهدر شلالات في مكان آخر ، تغطيها الاعشاب وتستظل بها وحوش البحر في موقع ، وتطاول زرقتها السماء ويسبح في موجاتها البشر في موقع آخر ، وهكذا . وليست الاحداث الصغيرة او الكبيرة الا علامات في مجرى التاريخ ، تزيد الانسان خبرة ووعيا باتجاهه العام وخصوصيات مراحله ، يتسلح بمعرفتها المناضلون لدعم تياره الذي لا يغلب وحتى تصبح رحلة البشرية وهي تمخر عبابه متعة في هذه الدنيا . اما اولئك الذين يقفون في وجه التيار الرئيسي لحركة التاريخ ، فهم بعض الاعشاب السامة والوحوش البحرية التي لا تستطيع ان تحول في خاتمة المطاف دون هديره .

وقد كانت الهزيمة العربية عام ٦٧ نقطة جزر في سياق النضال العربي المعاصر . تشابكت في صنعها جدليا عوامل محلية وعربية وعالمية ، فالتحول الوطني المستقل عن الارادة الاستعمارية والذي رسخته الثورة المصرية عام ١٩٥٢ ، والتحول القومي الكاسح بعد عدوان ١٩٥٦ ومحاولة الوحدة العربية عام ١٩٥٨ والانفتاح السياسي والاقتصادي والعسكري على الدول الاشتراكية ، كل ذلك كان يسحب الارض من تحت اقدام الاستعمار القديم والجديد . والصهيونية التي نجحت عام ١٩٤٨ في ان تجسد ايديولوجيتها العنصرية في دولة « اسرائيل » التقت موضوعيا مع التخطيط الامبريالي للسيطرة على منابع البترول في الشرق العربي . كذلك فان الانقلابات التي توالت على الرجعيات العربية في المنطقة ، لم تكن لديها الخبرة ولا الاستعداد الطبقي ولا الكفاءة ولا القدرة على بناء الانسان والوطن ، بمعزل عن بقية القوى الوطنية والتقدمية الفاعلة منذ زمن بعيد

في التمهيد لهذا البناء . كما ان « التخلف » بمعناه الشامل لا بدلالته التكنولوجية وحدها ، كان آخطر الجراثيم التي اورثها الاستعمار للهواء الذي نتنفسه ، فجاء « التلوث » شاملا لمختلف أرجاء حياتنا . وقد كان الانفراد بالحكم وتأميم الصراع الطبقي وشيوع قيم التخلف من الميكروبات المخيفة التي هددت البناء وشاركت في تطويق عام ١٩٦٧ .

ولكن هذا لا ينفي اننا خلال اكثر من عشرين عاما كنا نقاوم الاستعمار والصهيونية والرجعية المحلية ، بتأميم قناة السويس والثورة الجزائرية والوحدة المصرية السورية والثورة العراقية وولادة اليمن الديموقراطية وليبيا الجديدة والمقاومة الفلسطينية ومعارك التعريب والتأميم عموما والنفط خصوصا ، ومشاركة العمال في الادارة والربح والاصلاح الزراعي ومجانية التعليم والتصنيع الثقيل ، الى غير ذلك من « نقط » احرزها النضال العربي المعاصر رغم التخلف والقهر والتفرق بين فصائل حركة التحرر العربية . وكنا نقاوم ــ خلال اكثر من عشرين عاما ــ الانفراد بالحكم وتأميم الصراع الطبقي والثيوقراطية بعشرات الانتفضات الثورية للعمال والفلاحين والطلاب والمثقفين على طول الارض العربية وعرضها . وقد عرفت السجون والمعتقلات والمشانق الوف الضحايا .

الم يكن ذلك كله رصيدا تاريخيا لحرب السادس من اكتوبر عام ١٩٧٣ ، كما كانت السلبيات المضادة رصيدا لهزيمة ١٩٦٧ ؟ كل ما هنالك ان حزيران كان نقطة جزر وصلت فيها عناصر الثورة المضادة داخليا وقوميا وعالميا الى مرحلة القدرة على الضرب ، بينما كان اكتوبر نقطة مد تمكن خلالها النضال العربي من القدرة على الضرب . على ان هزيمة ٦٧ لم تكن نهاية التاريخ ولم تجيء ٧٣ لتكتب بدايته ، فالسنوات الست التي مضت على الهزيمة لم تقض على سلبيات الماضي ، حتى يصبح السادس من اكتوبر تتويجا للديموقراطية او الاشتراكية او العلمانية . والاستعمار هو الآخر لم يغير جلده والصهيونية لم تنتحر بعد والبرجوازية لم ترفع أعلام الوطنية من الوحل الى عنان السماء . كلا ، وانما الظاهرة لا زالت في خطها العام ، يحتدم بداخلها الصراع التاريخي بين الرصيد السلبي والرصيد الايجابي للنضال العربي المعاصر . وقد كانت ٦٧ انعطافا سلبيا في مجرى هذا النضال ، ولكنها لم تكن قط نفيا نهائيا ومطلقا لما يزخر به من ايجابيات . وقد كانت ٧٣ انعطافا ايجابيا في مجرى هذا النضال ، ولكنها

ليست نفيا نهائيا ومطلقا لما يزخر به من سلبيات شاركت بالضرورة في صياغة شكل الحرب ومضمونها .

لذلك كان القول بأن ٦٧ كانت نهاية التاريخ كالقول بأن حرب ٧٣ كانت تمثيلية ، كلاهما أنكار مروع لنضال الانسان العربي ، هو ثمرة النظرة الاحادية الجانب ، السطحية الفوقية المعزولة عن الواقع . كما ان القول بأن ما حدث في ٦٧ لم يكن هزيمة كالقول بأن ٧٣ كانت حربا كاملة وانتصارا مطلقا وصفحة جديدة في كتاب التاريخ الانساني ، كلاهما ثمرة النظرة الاحادية الجانب ، السطحية الفوقية المعزولة عن الواقع .

اننا لا زلنا متخلفين مقهورين ، ولا زال الاستعمار قويا والصهيونية نشيطة و « اسرائيل » قائمة والرجعية مقاتلة . ولكننا ايضا لا زلنا نقاوم التخلف والقهر والاستعمار والصهيونية والرجعية . والصراع محتدم ، داخلنا وخارجنا ، في صفوفنا وصفوف عدونا . والرؤية القادرة على استبصار هذا الصراع هي التي تحياه بتفاصيله ودقائقه فلا تسقط عليه أوهام الذات ، ولا تجرده بالتعميم ، ولا تلتقط له مشهدا فوتوغرافيا من أعلى فتتخيله ساكنا معزولا عما سبق وما يمكن ان يلحق . هذه الرؤية القادرة على معايشة الصراع الراهن ، هي الرؤية الشاملة التي لا تبصر الكل « حاصل جمع » الاجزاء ، وانما تلمس الوحدة الحية الدينامية بين الاعضاء . انها أخيرا الرؤية ذات البعد التاريخي الذي ينير حركة الواقع بربط الماضي والحاضر والمستقبل في خيط واحد : قد لا يهدينا الى نهايته ، ولكنه بالقطع سوف يدلنا على التاريخ ذاته ، على تياره الرئيسي وموقعنا منه وفي أي اتجاه نسير .

الشرارة ــ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤

عندما استيقظ شارع الشواربي ذات صباح

يبدو انه اصبح خطا سياسيا ان يقود البعض داخل مصر وخارجها حملة ضد « عرب النفط » لينقذوا شعب مصر من المجاعة !

هذا الخط السياسي يكاد يقول : انقذوا مصر من اليسار بملايين الدولارات ، والا فالعاقبة وخيمة ! وقد وصلت اللهجة بهذا البعض الى حد الصراخ « يا تلحقوها يا متلحقوهاش » . وصل الانذار الاعلامي الى اذان الملوك والامراء والدكتور كيسنجر والرئيس فورد .

ولا شك ان مصر تمر بأزمة اقتصادية حادة وعنيفة . ولكن معرفة الاسباب وحدها هي التي تفصح عن العلاج الحقيقي والحاسم .

ولعل المفارقة بين ما آلت اليه الامور الاقتصادية بعد هزيمة مروعة في ١٩٦٧ وما آلت اليه بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ تلقي بعض الاضواء على المقدمات التي ادت الى الازمة الراهنة . لقد عاش الناس في مصر بين الهزيمة والحرب سنوات صعبة مليئة بالمرارة والتقشف . ولكن احدا لم يجرؤ — بحجة الهزيمة — على ان يفتح جيوبا لسماسرة الاستهلاك المجنون وعملاء الازدهار الطفيلي . . بل كان الهم الاول للسلطة هو انقاذ خطة التنمية بمزيد من الحراسات والقيود على الشرائح الموالية للقطاع الخاص ورؤوس الاموال الاجنبية . لذلك تحمل الشعب المصري في شجاعة فائقة استمرار شد الاحزمة على البطون . فقد كان يرى بعينيه ويلمس بيديه ان مدخراته تذهب الى القوات المسلحة وقطاع الخدمات والتنمية الاقتصادية والتصنيع ورغم التخريب والعديد من الثغرات ، فان التلاعب بلقمة العيش وارزاق المواطنين كان محدودا للغاية . وهكذا ،

وبالرغم من ان الهزيمة تربة خصبة للتجار والمرابـــين ويسهل استثمـــار مناخها المظلم لسحق المحرومين فان اليقظة السياسية النسبية لم تتـــح لسلاطين الظلام فرصة العمر .

وحين اقبلت حرب اكتوبر تفاءل الناس البسطاء تفاؤلا تاريخيا ، ذلك ان الحرب عمل سياسي واجتماعي الى جانب كونها عملا عسكريا . لـــم تكن الحرب خلاصا نفسيا من المرارة فحسب ، بل كانت ـ عند اصحـــاب الامل ـ خلاصا قوميا بتحرير الارض ، وخلاصا اجتماعيا بتحرير الانسان.

ولكن شيئا ما استثنائيا ومعاديا لجوهر التاريخ ، قد حدث .. فبدلا من الاستثمار الطبيعي للحرب من جانب اعرض القطاعات الجماهيرية ، فان العكس تماما هو الذي وقع .

اصبح الخلاص النفسي شيئا كالخدر ، وتحول الخلاص القومي الى طموحات اقليمية تكرس التجزئة ، اما الخلاص الاجتماعي فقد ارتد خنجرا في ظهور الجماهير ...

اقبلت بعض رؤوس الاموال الاجنبيـــة ، وبعض رؤوس الامـــــوال العربية ، لتفرش الشقق غير المفروشة ولتعمر بيوت الليـــل الخاويـــــة ، ولتشيد ناطحات السحاب بعيدا عن الاكواخ ، ولتعيد تركيب السيـــارات الفارهة ، ولتستورد احدث مودات الملابس الداخليـــــة وأرقـــى ادوات الزينـــــة .

وارتفع سعر الارض ارتفاعا جنونيا ..

وكان من الطبيعي ان ترتفع اسعار محصولات الارض ..

ومن الطبيعي ايضا ان ترتفع اسعار الصناعات المحلية المعتمدة عــلى الارض ومحصولاتها وحيواناتها ..

واستيقظ الموظف المصري ذات صباح ، ليجد نفسه في طابور واحـــد مع العامل والفلاح والطالب .

ليجد انه لا يستطيع ان ياكل ولا ان يسكن ولا ان يلبس الحـــذاء ولا ان يشرب المياه النظيفة . ولا سيجارة كليوباترة .

واستيقظ شارع الشواربي ذات صباح ليجد نفسه قد أصبح زقاقا صغيرا في حي كامل ـ وسط البلد ـ يعرض المعاطف والقمصان والاحذية القادمة من اوروبا .. وتقف سيارات ١٩٧٥ ليشتري اصحابها ما كانوا يعانون الاهوال في سبيل تهريبه .

وهكذا أصبح المشهد مأساويا وهزليا في وقت واحد : الغالبية الساحقة لا تجد طبق الفول المدمس ولا كوب الشاي ... والقلة القليلة تسهر في الشيراتون والميريديان بعد ان أصبح هلتون وسمير أميس من الذكريات !

هناك مجاعة حقيقية في مصر ..

وهناك ايضا ازدهار ..

هناك جوع الملايين وازدهار المئات ، انها مأساة طبقية لا مهزلة قومية. انها مشكلة داخلية وليست بخلا عربيا ..

ولا حل لها بمليارات الدولارات السعودية والاميركية : ان هذه المليارات سوف تعمق الشرخ الاجتماعي داخل مصر ، سوف تلهب الازمة .

حلها الوحيد هو العودة عن معاداة التاريخ ، العودة الى مجراه الطبيعي ، الى استثمار حرب اكتوبر المحدودة بما يتفق وجوهر التاريخ ..

حلها الوحيد هو سد الطريق امام الليبرالية الاقتصادية ، وفتح الطريق واسعا امام خطة التنمية في ظل القطاع العام . حلها الوحيد هو سد الطريق أمام اللصوص من اصحاب مكاتب الاستيراد والتصدير وتجار الجملة ومقاولي القطاع الخاص ووكلاء الشركات الاجنبية . حلها الوحيد اغلاق شارع الشواربي وتوابعه ورموزه وفتح الشوارع المؤدية الى السيدة زينب والامام الشافعي وشبرا .

حلها الوحيد داخل مصر .

و ...

التخطيط القومي ، وليس العطف العربي ولا الكرم النفطي .

والتخطيط القومي لا علاقة له بالهبات والمنح التي تستهدف انقاذ بعض النظم من اليسار ، والتي تستهدف اثراء القلة .

التخطيط القومي له علاقة بالثورة العربية وحدها ، ثورة مركزها مصر .

★★★

قال لي السفير العربي الشاب وهو منفعل : دعك من مصر ، انني احدثك عن بلدي الفقير ، ليس عندنا طفيليون ولا سماسرة ولا حتى طبقة متوسطة ، مع ذلك فاقتصادنا كما تعلم ، مختنق ، لقلة مواردنا أصلا ، وقلة الكادر التقني .. ان عدالة التوزيع وحدها لا تكفي ، والتوعية السياسية بضرورة التقشف لا تكفي . لا بد ان يكون لدينا ما يمكن توزيعه اولا قبل عدالة التوزيع ، اليس كذلك ؟

ثم استدرك قائلا : طبعا ليس البديل هو العودة الى الاقتصاد الحر وفتح البلاد امام رؤوس الاموال الاجنبية ، ليس هذا بديلا لانه يعني في خاتمة المطاف مزيدا من الفقر والتخلف والتبعية . حتى غلاة الدعوة الى الارتباط بالغرب يفهمون الآن انه لم تعد هناك فرصة « المنافسة » مع الرأسماليات العالمية ، وان الاقتصاد العالمي لم يعد « حرا » وان عليهم الاكتفاء بدور الشريك الاصغر في أحسن الاحوال ، والعميل والسمسار او الوكيل في اغلب الاحيان .

ثم اختتم رأيه متسائلا : والحل ؟ ماذا نفعل بفقرنا وتخلفنا نحن الذين رفضنا الطريق الراسمالي للتطور ؟ هناك طريق واحد ولا طريق سواه ، ان نأخذ من الدول العربية الغنية بالنفط ، من حقنا ان نأخذ ومن واجب تلك الدول ان تعطي .. بدلا من ان تذهب الاموال العربية الى جيوب الاباطرة الاميركان ، نحن اولى بها وأحق . وليست مصر وحدها هي التي تحتاج ، ولا دول المواجهة وحدها هي التي تحتاج ، وانما كل بلد عربي فقير الموارد يجب ان يأخذ حصته حسب الامكانيات والاهداف .

قلت للسفير العربي الشاب المنفعل : اي انك لا توافقني على ما ابديته ــ الاسبوع الماضي ــ من تحفظات حول الحملة الاعلامية التي تطلب انقاذ مصر من المجاعة بأموال النفط العربي ؟

اجاب : نعم ، مع تقديري الكامل للاسباب التي ذكرتها وانتهيت منها الى ان الازمة داخلية في جوهرها .

قلت : لعلك تذكر ايضا انني اشرت الى جانب الحـــل « الداخلـــي » لازمة مصر ، الى ما اسميته بالتخطيط القومي او الحل القومي .

قال : نعم ، كيف ؟

قلت : يجب أن نستبعد اولا من حوارنا مفردات المعجم الاخلاقي اذا شئنا ان نتكلم في السياسة والاقتصاد . ان الشهامة والنخـوة والكـــرم والمروءة وغيرها من قائمة الفضائل العربية ليست اخلاقا مجردة من الزمان والمكان ، ليست معزولة عن التاريخ والمجتمع. انها « البطانة » الايديولوجية الحريرية للقرار السياسي والاجراء الاقتصادي . وعندما اشترطت احدى الدول العربية على مصر أن تغير نظامهــا الاقتصادي والسياسي والثقافـي والتربوي والاعلامي مقابل سداد الديون وطرد شبح المجاعة وانقاذ الحكـم من الانهيار ، كانت هذه الدولة في غايـة الانسجام مع النفس . انهـا حين تمارس « الضغط » السياسي على مصر لقبول الحـل الاميركي للمسألـة الوطنية وضرب اليسار وتصفية القطاع العام وفرض عقلية القرون المظلمة ، فان ذلك ليس « بخلا » . وانما هو عمل سياسي . كذلك فانهـا حين تغدق العطاء ، فان هذا ليس كرما ، وانما هو ايضا عمـل سياسي . وهكـــذا فالمليارات الاميركية والسعودية لم تصل مصر رغم الوعود ، لا نتيجة شـح او نذالة ، وانما ثمرة مخطط استراتيجي كامل يستهدف تركيع مصر مرة واحدة والى الابد .

والحل اذن ؟

كما قلت ، يكمن الحل داخل مصر اولا ، انها لا تزال عـــلى مفتــرق الطرق ، رغم كافة السلبيات في الجو السياسي ، فان مصر لم ترتد نهائيـا بعد على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي . اي ان القاعدة الماديـــة لمصر الناصرية ، ان جاز التعبير ، لا زالت باقية . كما ان القاعـــدة البشرية لا زالت حية تتنفس ، واحيانا يعلو صوتها على صوت الاجهـــزة الرسمية . ولعل أزمة الناصرية ـ كايديولوجية وانجازات ـ انها تواجـه على صعيـد الواقع نقطة تحول تاريخية ، فهي لكي تحافظ على الماضي لا بد ان تتجاوزه، اي ان تعتبر الفكر والمنجزات اساسا صالحا للتطور ، لا نهايـة التاريخ . على الناصريين في مصر قبل غيرهم، ان يعوا هذه الحقيقة، وهي ان الناصرية بسلبياتها وايجابياتها مجرد مرحلة ، وان الحفاظ على الايجابيات لا يتـم الا بتطويرها الى أرقى . . . فلم يعد هناك وقت لانصاف الحلول . ان العدو

الطبقي والقومي لن يمنـــح احـــدا فرصة التمتـــع بالوقوف في الوسط ولا فرصة الرقص على الحبال ولا امساك العصا من المنتصف .

ان مصر ، شعبا ونظاما ، تجابه نقطة تحول حاسمـــة في تاريخهـــا الحديث . وأزمتها الاقتصادية الطاحنة هي انعكاس امـين كذروة صراع . انها ليست ازمة طارئة يمكن ان تمر بسلام ، وانما هي امتحان عسير لكافة القوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، انها امتحان للشعب والسلطة معا . وحين تحسم القوى الداخلية هذا الصراع ، يجيء التخطيط القومـي ليستكمل ملامح الصورة الجديدة .

فاذا أسقطت مصر في الايدي اليمينية المسعورة بضربة قاضية ــ وهذا ممكن الحدوث لوقت قصير ــ فـــان الكـــرم الحاتمي ســـوف يغمـر اصحـــاب الـولاء عرفـانـا بالجميـل . ولكـــن مشكلـة مصـــر لـــن تكـون حينذاك قـد حلت . قـد تعود سينـاء بكاملهـا ، ولكن مصر كلها تكون قد ضاعت . وهذا لن يحـدث ــ اكرر ــ الا لوقـــت قصير ، لسبب بسيط ، هو ان جوهر المشكلة لن يحل . وحين نردف ان التاريخ لا يعـود الى الوراء ، فاننا لا نردد شعارا حماسيا . وانما لان مصر ٥٢ لا يمكـن ان تعود . في مصر ٧٥ مجتمع بشري جديد لا بد من تصفيته دمويا حتى يمكـن اقامة مصر الاخرى التي يحلمون بها . ان اعتقال مئات وآلاف المناضلـين الناصريين والشيوعيين من الطلاب والعمال لا يجدي شيئا . عليهم قبـــل التفكير بالغاء القطاع العام مثلا تصفية ثلاثة ملايين عامل نقابي من الوجود . عليهم قبل استرداد الارض من الفلاحين مثلا ايضا ، أن يقضوا على حيـاة الملايين من الفلاحين . عليهم اخيرا قبل التفكير بالغاء مجانية التعليـم ، ان يقتلوا ملايين التلاميذ والطلاب .

والجيش نفسه لم يعد جيش حيدر باشا ، ان الغالبيـة العظمى مـن الضباط ــ لا الجنود وحدهم ــ هم ابناء الطبقات الشعبية ، هـم ثمـــار القطاع العام والاصلاح الزراعي والتعليم المجاني .

رغم ذلك كله ، فانه يمكن لوقت قصير ، وعلى بحر من الدمـــاء ، ان ينتكس مجرى التاريخ للحظات . ثم يعاود سيره الى الامام .

وكما ان الاستقطاب الاجتماعي في مصر يقترب مـن مرحلة الانفجار . فان الحل القومي لا يخرج غالبا عن حدود هذا الاستقطاب .

اي ان القوى العربية المنتمية اقتصاديا الى العالم الغربي وفكريا الى جهالة العصور السحيقة لا تترجم عروبتها الى احساس قومـي ومشاعـر وطنية ، وانما الى احساس عرقي ومشاعر دينية . وليست صدفـة ان هذه القوى هي التي صورت الخبرات المصرية في بلادها ، في مجالات التنمية والتقنية والخدمات ، وكأنها غزو مصري ، كما صورت ما يسمى بدعم دول المواجهة مع اسرائيل وكأنه تسول . حتى اصبح الامر مهينـا بالفعـل للمواطن المصري الذي يعمل في بعض الاقطار العربية . ينسون النـور والحضارة ويتذكرون المال . ينسون العروبة فجـأة ويتذكرون جنسيتهم الاقليمية وحدها .

هذه القوى ليست عربية الا بالاسم ، فاقتصادها العشوائي التابـع تلقائيا للاجنبي ، لا يعرف التخطيط داخل الحـدود ، فكيف يمكـن ان يشارك في التخطيط القومي ؟ انه قد يساهم في مشروعات الثورة المضادة ، وقد يمد جسورا لاقتصاده العشوائي التابع الـى فنـادق القاهـرة والاسكندرية وملاهي العاصمتين . ولكنه لن يشارك مطلقا ، وفـق تخطيط قومي ، في انقاذ الاقتصاد المصري او خطة التنمية .

التخطيط القومي ليس صندوقا عربيا للاغاثة ، ليس جمعية خيريـة او وزارة للشؤون الاجتماعية تابعة لجامعة الدول العربيـة . وانمـا التخطيط القومي هو علم الثورة العربية المعاصرة . اي انـه في المـدى الاستراتيجي وفي اطار الحركة التكتيكية يقف في الطرف النقيض من قوى الظلام المسيطرة على غالبية ما يسمى بالمال العربي .

التخطيط القومي – كعلم للثورة العربية المعاصرة – يبدأ من اسفـل المجتمع العربي اي من قاعدته البشرية ومـوارده الطبيعيـة ومستواه الحضاري .. ولا يبدأ مطلقا من اعلى السلطة او قمة النظام . هكذا تصبح الاراضي الشاسعة في العراق او السودان او ليبيا امتدادا طبيعيا لـوادي النيل ، ويصبح من حق هذه الاراضي غير المزروعة ان ترتوي بعرق الفـلاح المصري ، ويصبح من حق وزير الزراعة في بغـداد او الخرطوم او طرابلس ان يشارك وزير الزراعة المصري في تحديد المحصولات التي تزرع هنـا ولا تزرع هناك . ويصبح من حق الحكم العراقي او السودانـي او الليبـي ان يشارك النظام المصري في تخطيط الملكية التعاونية او ملكية الدولة او ملكية الفلاح . ويصبح من حق وزير التموين والتجارة الداخلية هنا وهناك ، ان يشارك الوزير المصري في تحديد الاسعار . ويصبح من حـق وزير التجارة الخارجية في هذا القطر او ذاك ، ان يشارك زميلـه المصري في اختبـار

الاسواق الاجنبية واساليب التعامل معها . وهكذا في التخطيط القومي ايضا يبدأ الناس بالتفكير في العمل الاستراتيجي ، فتقام المصانع الثقيلة في الاقطار ذات القدرة على تقديم الخامات او الخدمات او الاقطار ذات الاحتياجات .. ايهما اوفر واكثر عطاء للجميع . حينئذ يصبح المهندس المصري عراقيا في بغداد والطبيب العراقي جزائريا في الجزائر والمعلم السوري لبنانيا في بيروت .. عنيت ـ بتعبير ادق يصبح الكل عربا في بلادهم ، لان المشروع العراقي لن يكون بعيدا عن طموحات العامل المصري والاراضي الليبية لن تكون غريبة عن احلام الفلاح المصري . وهكذا ..

لا ينبغي النظر الى الوحدة العربية ـ والتخطيط القومي اول دعائمها ـ من فوق السحاب .. قبل تغيير مناهج التعليم والاعلام والثقافة ، قبل المساعدات العاجلة والدعم الطارىء لا بد من تخطيط قومي لوسائل الانتاج الرئيسية .. في الصناعة والزراعة والمواصلات .

وليس بالتفاعل وحده بين المصريين والسوريين والليبيين واليمنيين والعراقيين سوف يتغلب الوجدان العربي على المشاعر الاقليمية . وانما سوف تصبح هناك مصلحة قائمة ومستمرة ومتطورة ، هي التي ستجذر الشعور العربي وهي التي سترسخ الكيان العربي والعقل العربي جميعا . وتأتي بعدئذ الثقافة والتربية والاعلام وبرامج التعليم لتفسر وتبلور الحقيقة الحية ، لا لتخلق شعورا من العدم .

هذه المصلحة التي تنبع من التخطيط وتصب في مجرى الوحدة القومية لن تكون مصلحة عربية مجردة او مطلقة انها مصلحة اولئك الذين شاركوا في صنعها والذين افادوا منها . انها مصلحة الملايين من الفلاحين والعمال والمهنيين العرب ، هم الذين يبنونها ويزرعونها وهم أصحاب البناء والمحصول . هكذا تصبح المصلحة القومية ـ بالضرورة ـ هي مصلحة الاشتراكية . انها لمجموع الشعب العربي وليست ـ بالقطع ـ للعاطلين بالوراثة . لذلك يقف ضد التخطيط القومي داخليا : الاقليميون واعداء الاشتراكية معا ، سواء في مرحلة التشريع او في مراحل التنفيذ . يساندهم « عربيا » اكثر الناس تباهيا بالعمامة والعقال والتقاليد العربية « الاصيلة » وهم اكثر الناس عداء لوحدة العرب ، خصوصا اذا تمت من تحت وبالنفس الطويل .

قاطعني ــ اخيرا ــ السفير العربي الشاب وقد برد انفعاله : ألنفس الطويل جدا .. انت تحلم .. المريض بالقلب يحتاج الى الكورامين فــورا قبل التفكير الهادىء المتزن في تغيير صمام بالجراحة .

قلت له : الكورامين يؤجل الازمة ولكن لوقت قصير جدا ، ثم تعــود من جديد .. انت الذي تحلم اذا توهمت ان مــا يسمى بالمال العربي قادر على انقاذ مصر من السقوط ، اكاد اجزم بأن هذا المال وكل ما يرمز اليــه هو السقوط نفسه .

قاطعني من جديد : قلت لك منذ البداية انني لا احدثك عن مصر .. انني اكلمك عن بلادي . قلت له : كنت اكلمك عن بلادك طول الوقت .

الدستور ١٩٧٥/٢/١٠

يـا يتامى العالم .. اتحـــدوا

يبدو انه قد اصبح واجبا ملحا على جميع البشر ان يتيتموا ويترملوا ويثكلوا حتى ينتفض القلب الاميركي محبة ورحمـــة وشفقا بالانسانيـــة واندفاعا الى البر والاحسان والتقوى وتفانيا في التخفيف مـــن العـذاب البشري .. فها هـي « العائـلات » الاميركية تتدافـع في تبنـي اليتامـى الفييتناميين ، وها هي الطائرات الاميركية تغامر بانقاذهم ، وهـــا هـــو الرئيس الاميركي يناشد الاجهزة الادارية أن تنعتق من بيروقراطيتها حتـى يتمكن « الاطفال المساكين » من الوصول الـى شاطىء الولايات المتحـــدة بسلام . واصبح الاميركي السعيد هو الذي يفوز قبل غيره بيتيم فييتنامي يربيه تحت ظلال وارفة من العطف والنعيم . ولا شك ان اليتامى في جميع انحاء العالم قد اصبحوا يحسدون « زملاءهم » الفييتناميين على هـــذه العاطفة الاميركية المتدفقة بغير حساب ، بل لعل الحسد راح ينبت فـــي قلب كل طفل لا زال أبواه على قيد الحياة ، فهما يحرمانه الحق في الحصول على السعادة الاميركية ، خاصة اذا كان قد ولد في أرض تبعـد قليـلا او كثيرا عن فييتنام الجنوبية .

ولا ريب ان الناس في جميع انحاء الدنيا قد استقبلوا هـذه الظاهرة المفاجئة بعيون مشدوهة وكأن الذي يجري أمامهم لا يصدر عن أميركا التى يعرفونها . انهم يعرفون مثلا :

● ان الجيش الاميركي الـذي اقتحم ارض الصراع في جنـوب شرق آسيا ، هو الذي دمر مدنا كاملة في فييتنام الشمالية بالصواريخ والنابالم وقنابل الجراثيم .. وهو الذي ارتكب الفظائع التي اقشعر منها الضمـير الانساني اينما كان ، حين عمد الى قتـل المدنيين بالجملة في احـدى القرى

ثم مثل بجثث الاموات كأحقر ما يكون التمثيل ، وارتكب مـن الجرائـم الخلقية ما ينحدر به الى مستوى ادنى من السلوك الحيواني في الغابات .

كانت القوات المسلحة الاميركية هـي التـي أحرقت البشر احيـاء في احراج غابات فييتنام الشمالية ، وهي ايضا التي اغرقت الملايين حـين حطمت الجسور وفتحت الانفاق لطوفان لم نعرفه منذ أيام سيدنا نوح عليه السلام . ولم يكن جحيم النيران يشبع نهمها الى الخراب ، وكذلك طوفان الانهر المسمومة بالالغام ، فانت تلجأ الى اقذر اساليب القتل في التاريخ ، وهو ان تملأ الجو بالاوبئة الكيميائية والجرثومية حتىيموت الكائن البشري بمجرد ان يتنفس الهواء .

في تلك الايام القريبة التي لم تبرح بعد ذاكرة الناس البسطاء فـي جميع أنحاء الدنيا ، كانت الالوف من البشر تلفظ أنفاسها ودماءها كـل لحظة ، وكان مئات الالوف يرحلون كل شهر ، وكان حصاد القتلى بعـد سنوات بالملايين . لا بد انهم تركوا من الثكالى والارامل والايتام ، ما يفوق الحصر والتصور . واذا عدنا الى محاضر جلسات المحكمة الضميرية التـي أقامها برتراندراسل وجان بول سارتر ، واذا عدنا الى بعض افلام السينما الاميركية ذاتها ، فان الرعب لن يغادر مخيلتنا الى الابد ونحن نكتشف ان احفاد رعاة البقر لا زالوا مخلصين لعهد سري اقسموا بـه لاجدادهم : ان يروا العالم كله من حولهم هنديا أحمر يستوجب القتل .

لذلك يدهش الناس في مختلف ارجاء المعمـورة ، وهـم يستقبلون المفاجأة الاميركية الجديدة المفعمة بالعطف والفجيعـة عـلى الاطفـال الفييتناميين .. لان تمثال الحرية الشامخ عند مدخل نيويورك لـم تنزف عيناه دمعة واحدة حين كان أصحاب البيرهات الخضراء يقتلون « الهنـود الحمر » في فييتنام الشمالية منذ فترة قصيرة وهم يقهقهون بالخمر فـي احضان الغواني . بل ان نغمة الاحتجاج الرئيسية كانت « عدم التضحيـة بالدم الاميركي على الارض الصفراء » لذلك فقـط مـزق بعض الشباب الاميركي بطاقات التجنيد . وحين وقف احد الضباط المسؤولين عن المجزرة القذرة في احدى القرى الفييتنامية امام القضاء تشفع له الطب كالعـادة باختلال القوى العقلية وافرج عنه بعد عامين فقط في احـدى مستشفيات السجون .

ايامها لم تتقدم اسرة اميركية واحدة بطلب تبني طفل فييتنامي ، لانها كانت تعلم سلفا ان احد ابنائها البررة الاوفياء للتقاليد الاميركية العريقة ، هو الذي قتلَ اب الطفل وامه ، هو الذي يتمه ،وهو ايضا قادر علـى اراحته من عذاب اليتم باراحته من الحياة نفسها . وايامها ايضا لم يناشد الرئيس الاميركي احدا باسم الانسانية لمساعدته في انقـاذ ضحايـا الحرب الفييتنامية ، بل هو اجتذب سبع دول أخرى للمشاركة في الحرب معـه . وكان الرئيس الاميركي هو الذي يبادر ـ بغض النظر عن رأي الكونغرس ـ الى تصعيد القتال والمزيد من سفك الدماء والدمار . بل حـين كانـت المفاوضات توشك على الانتهاء في باريس ، كان الرئيس الاميركي هـو الذي يأمر بمحاصرة هانوي بحريا وضربها من الجو .

فما الذي تغير حقا ، حتى أصبح القلـب الاميركي ينتفض كقلـب عصفور ذبيح ، وحتى أصبح وجه الرئيس الاميركي كوجه طفل شاهد دماء العصفور بعد صيده ؟

● أليست اميركا ـ يتساءل الناس البسطاء ـ هي صاحبة المعجزات التي يلخصها جيمس بوند ، في تخريب الانظمة الوطنية مـن الداخـل ان أمكن ، وبالغزو المباشر من الخارج ان لم يكن ذلـك ممكنـا ؟ أليست المخابرات المركزية التي اصدر عملاؤها عشرات المجلدات المليئة بالاعترافات المخزية ، هي التي قلبت حكم الرئيس الراحل نكروما في غانا ، وهي التي قلبت حكم الامير سيهانوك في كمبوديا ، وهي التـي غـزت الدومينيكان وحاصرت كوبا ، وهي التي قلبت حكم الرئيس الشهيد الليندي في تشيلـي واغرقتها في بحر من الدماء ، وهي التي قتلت البطل جيفارا في احـراج بوليفيـا ؟

أليست المخابرات الاميركية هي الاخطبوط ذو الالف راس ، والـذي تطا لاذرعه الالكترونية و « عملياته القذرة » قارات الدنيا الخمس .. فهي التي تشيع رائحة الموت في كل بيت تدخله كلمة « السياسة » ، امـا اذا دخلته « الثورة » من الباب ، فان اهله ـ والاطفال منهم يتامى ـ يخرجون جثثا من النوافذ ؟ ان الاعترافات المتتابعة لعملاء وكالة المخابرات المركزيـة تشكل في جملتها التي لا تنتهي أكثر المجلدات سوادا في تاريخ الانسان ، اذ هي تجسد خير تجسيد وسائل وغايات « عدو البشر » كما انطبـع فـي أذهاننا من الاساطير والحكايات .

● اليست اميركا ـ هكـذا تتراءى الكوابيس في ذاكـــرة النـاس البسطاء ـ هي التي « جربت » قنبلتها الذرية فـوق مدينتين يابانيتين ، هما ناجازاكي وهيروشيما ، منـذ اكثر من ربع قرن ، فأهلكت انفس مئات الالوف في دقائق معدودات ؟ ولم نسمع قط ان الضمير الاميركي قد اهتز او تلوثت شفافيته بالغبار الذري فانتحر ؟ ام ان مئات الالوف من سكان هيروشيما لم يكن بينهم اطفال ؟ ام ان « التجربـــة » نجحت دون ازهاق الارواح فلم يتيتم احد ؟ ام ان الاسر الاميركية حينذاك كانت متخمة بتبنـي اليتامى ، فلم يكن لديها مكان للجدد ؟ ام ان الاجهزة التكنولوجية في ذلـك الوقت كانت من الضعف والنظم البيروقراطية كانت من القوة بحيث لـــم يستطع الرئيس الاميركي ان يهزم الروتـــين وينقـــذ الشيـــوخ والنساء والاطفال ؟

لا احـد يدري !

● ولكن الذي يدريه المواطن العربي البسيط ان طائرات الفانتـوم الاميركية هي التي ألقت جحيمها على مدرسة بحر البقر احدى قرى الوجه البحري بمصر ، وان قنابل النابالم هي التـــي مزقت اجساد الاطفـــال المصريين ، اليتامى منهم وغير اليتامى . كما يدري هذا المواطن ان الصواريخ الاميركية هي التي احالت مصنع ابي زعبل في حلوان الى جهنم من النيران القاتلة لعشرات الرجال : ذهبوا قطعا من الفحم الـــى قبورهم وتركـــوا اطفالهم يتامى ، فلم يهتز القلب الاميركي الفياض بالعواطف الحارة ، بـل راح يستنزف حياتنا قطرة قطرة في صراعنا طيلة ربع قرن مـــع قواتـــه « الاسرائيلية » المسلحة .

وانصافا للحق والتاريخ معا ، فقد كسر الرؤساء الاميركيون ـ ابـان هذه الفترة ـ عظمة البيروقراطية ، فأقاموا الجسور الجوية المتلاحقة بين كيب تاون ومطار اللد ، ووقفوا بجسارة في جميع المحافل الدولية الى جانب حق اسرائيل في قتلنا واغتيال أطفالنا .

● والمواطن الفلسطيني البسيط يدري ان الآلاف المؤلفـة مـن خيرة شبابه واطفاله احترقوا بنيران الاسلحة الاميركية ، وان ترسانة البنتاغون في تـل ابيب هـي التـي تحمـي لصوص الارض وغاصبيهـــا . ولكـــن اليتيم الفلسطيني لا يهرول الى سفينة « الانقاذ » الاميركية ، وانما هـــو

يتعلم في المهد كيف يدمرها ، لانها في ناظريه تبدو كحصان طروادة يخفي داخله قتلة الآباء والامهات بالامس ، وقاتليه غدا .

● ولم نذهب بعيدا ، واقرب الناس بحسابات الجغرافيا الى « العائلات » الاميركية الملتاعة هم الزنوج ! لماذا – يتساءل الناس البسطاء في اميركا نفسها – تغلق دونهم ابواب الكنائس والمدارس والمطاعم اذا كان السادة البيض يدخلونها ؟ لماذا يصبح لونهم الاسود عقابا ابديا يستوجب القتل الابيض ؟ وهل تختلف الوجوه السوداء ليتامى الزنوج عن الوجوه الصفراء ليتامى فييتنام ؟

★★★

هكذا يتساءل الناس العاديون البسطاء بعيون مشدوهة ، في مختلف أنحاء العالم ، وهم يستمعون بدهشة بالغة الى أجهزة الاعلام الغربية ، عن « الشهامة » الاميركية و « الكرم » الاميركي و « النبل » الاميركي الذي سارع الى نجدة يتامى فييتنام الجنوبية .. فما السر حقا في هذا الانقلاب الذي أصاب القلب الاميركي ، من الوحشية والسادية والافتراس الى الرهافة والحساسية المعطرة بالدموع ؟

لان لغة الوحش المنتصر تختلف عن لغته وهو ينزف الدماء مهزوما . هذه هي الحقيقة دون زيادة او نقصان ، فما يجري الآن على أرض الهند الصينية هو الفصل الاخير من الهزيمة الأميركية التي رفع عنها الستار على مائدة المفاوضات في باريس . انها الهزيمة التي بدأت ايضا برحيل آخر جندي اميركي عن فييتنام . ليس جنود فييتنام الجنوبية هم الذين هزموا أمام القوات الشيوعية ، بل الولايات المتحدة الاميركية هي التي هزمت . ليس حكم الجنرال ثيو في سايغون هو الذي تصدع ، وانما نظام الحكم في الولايات المتحدة الاميركية هو الذي ترنح .

وليست المظاهرة الاعلامية الصاخبة حول « اللاجئين » او « اليتامى » الفييتناميين الا صرخة الحزن المرير على ما فات . انها عبرة النهاية التي عاجلت بها قوات الفيتكونغ اكبر دولة استعمارية في التاريخ الحديث .

ليس هناك « لاجئون » في فييتنام ، وانما هم يحاولون اسدال ستار انساني على خاتمة العمل غير الانساني الذي قاموا به في فييتنام ..

ذلك انه لم يكن هناك في اي وقت مبرر فييتنامي للحضور الاميركي . وقد تسبب هذا الحضور في كافة الكوارث والمآسي التي لحقت بالشعب الفييتنامي : اليتيم قتل ابواه بالسلاح الاميركي او في ساحة الصراع مع هذا السلاح .

وليس هناك شعب يلجأ من مختلف المدن والقرى الى عاصمة البلاد . وتهجير بضعة آلاف من هذه المدن والقرى الى سايغون ، هو استمرار يائس من جانب مجرمي الحرب في رهان خاسر . كما ان نقل عدة مئات من الاطفال الى نيويورك ليس اكثر من حملة اعلامية باهظة التكاليف : فقد قرر الرئيس الاميركي صرف مليونين من الدولارات فورا لشركات الطيران التي كلفت بالتنفيذ ، ونسى بالقطع المليارات التي خسرها سلاح الجو الاميركي في الحرب .

ان لغة الوحش منتصرا تختلف عن لغته مهزوما ، ولكنه يظل دائما وحشا !

لذلك فان احدا من الناس البسطاء لا ينخدع بالانسانية الاميركية المفاجئة ، الناس جميعا يتحسسون ملامح الوجه الحقيقي تحت القناع الزائف ، والناس جميعا يتلمسون الجلد وما تحت الجلد ويفرقون جيدا بين الذئب والحمل . والناس جميعا يعرفون ان اميركا الحاكمة لا تملك ضميرا يعذبها حتى تنتشل اليتامى من ارضهم ، وانها بلغت من الشر حدا تتاجر فيه باليتم والعذاب والموت !

حتى وهي تجر من خلفها ذيول الهزيمة المرة ، تحاول ان تبدو للبعض « بطلا انسانيا » ، ولكن الاكذوبة سرعان ما تنكشف حين يضمد الوحش جراحه ويكشر عن أنيابه في مكان آخر من العالم ! وتبقى الهزيمة هي الجوهر كل مرة .. فحين تتمكن الانياب الاميركية من فريستها لا تبقي على الاطفال ولا النساء ولا المرضى ولا الشيوخ ولا الاشجار ولا الحيوان ولا الاحجار ولا الهواء ، بل يصبح شعارها المزيد من اليتم والموت والخراب . أما حين يتصدى للوحش الاميركي فارس شجاع يؤمن بشعبه وارضه ويكافح لاستردادها رغم الضنى والعذاب ، فان الانياب الاميركية تتهشم

وتنبثق من عين التمساح الدموع .. دموع الهزيمة التي لا تنطلي على اي يتيم في العالم ، فضلا عن اليتيم الفيتنامي ، لانه يدرك انها دموع الحزن على النفس لا على الآخرين ، ولأن يتامى العالم اجمع سوف يكتبون على جدران السفن الاميركية :

شكرا .. لن نذهب الى واشنطن .. سنبقى في بلادنا حتى لا نزداد عددا في المستقبل .

المحرر ١٩٧٥/٤/٧

نمــر مــن ورق

بما كان مشهد السفير الاميركي في سايغون وهو يمتطي الهليوكبتر من فوق سطح منزله مشهدا مسليا . ولا شك ان هذا السفير اوفـر حظا مـن بعض زملائه الذين لن تكون لبيوتهم اسطح تهبط فوقها الطائرات ، لـن تكون لديهم فرصة الهرب من حكـم التاريخ والشعوب . واذا كان السفير – اي سفير – هو الممثل الشرعي لبلاده ، فان المشهد المثير لسفير اميركا في سايغون ليس مشهدا مسليا فقط ؛ وانما هو مشهد سياسي من الطـراز الاول . انه صورة تاريخية مكثفة للولايات المتحدة الاميركية وهي تبدأ عصر انهيارها الرائع والمروع . ان اليوم الاخير من شهر ابريل – نيسان عـام ١٩٧٥ ليس عيدا فيتناميا خالصا ، ليس عيدا اشتراكيا فقط ، وانما هو يوم الانسانية كلها وعيد العالم بأسره ونقطـة تحـول حاسمة في مجـرى التاريـخ .

ولسوف ينكب اهل البنتاغون حول مائدة بطول واشنطن وعرضهـا يدرسون الاسباب « العميقة » التي أدت الى الهزيمة العسكرية التاريخية. وسوف يجتمع الكونغرس حول مائدة بحجم احـدى ناطحات السحاب في نيويورك ليدرس أعضاؤه الاسباب « العميقة » التي ادت الـى الهزيمـة السياسية المنكرة . وسوف يدعى وكلاء المخابرات المركزيـة مـن شتى اطراف العالم الى اجتماع عاجـل لبحث الاسباب « العميقة » التـي ادت الى هزيمة أخطر جهاز امن عالمي .

واكاد أرى النتائج « البالغة الاهمية » التي سيخرجون بها جميعـا على النحو التالي :

● سيقول العسكريون ان الدبلوماسيين هـم سبب الهزيمـة ، لان

مائدة المفاوضات في باريس هـي التـي ادت الـى الانسحاب الاميركي مـن فيتنام ، وان الجنرال ثيو هو سبب آخر للهزيمة لان قواته لـم تستطـع الصمود . اما العسكرية الاميركية فانها لم تخطىء قط ، لقد قتلت مئات الالوف وشردت الملايين وخربت المدن ودفنت القرى بمن فيهـا تحـت الانقاض . ان الشرف العسكري الاميركي قد بذل ستين الف شهيدا مـن خيرة شباب الولايات المتحدة ، واصيب بعاهات دائمة ما يقترب من المليون. لقد ادينا واجبنا التاريخي ايها السادة دفاعا عن الحرية ، يشهـد بذلـك تمثالنا العتيد الذي انبثقت عيناه بالدموع فهطلت الامطار على نيويورك في عز الربيع . ولنقف ربع قرن حدادا على المجد الضائع في غابـات فيتنام ، والشرف المثلوم بين احراجها والتاريخ العريق في مستنقعاتها .

وسوف يصفق الحاضرون لخطيبهم المفوه ، ويستديرون مهرولين الى موعد الشاي بعد الظهر .

● اما اصحاب الياقات البيضاء من السياسيين في مجلس الشيوخ والنواب ، فسوف يلقون اللوم كل اللوم على السيء الذكر نيكسون وسوف يغمرون باللعنات فتى العصر المدلل كيسنجر وسوف يغمزون مـن طرف خفي جيرالد فورد قائلين : لقد ابتلانا الزمن برؤساء قصيري النظر ضعاف القلب فاسدي الخلق ، هم الذين القوا براية الحرية الاميركية في الوحـل الاصفر بذكائهم المحدود على مائدة القتال وتعهداتهم القاصرة والمغـرورة لعملائنا المخلصين . ان البيت الابيض وحده هو الـذي يجب ان يطلـى بالسواد في هذا اليوم الحزين . اما نحن فقد انتجت مصانعنا اعظـم آلات الدمار ، وكانت خزائننا مفتوحة لعلماء الحرب ورجال المخابرات ورفـاق السلاح من امثال الجنرال ثيو . لقد ضربنا المثل الاعلى على انكار الـذات والسخاء بلا حدود . لتذهب فيتنام الى الجحيم ، ولكننا ادينا واجبنـا التاريخي نحو التراث الاميركي العريق حفاظا عـلى الحضارة ومحبـة للانسانية التي استغاثت بنا وعشقا صوفيا للتقدم وصلاة حارة من اجـل السلام .

وسوف يتوقف المجتمعون عن النقاش لاداء صلاة صامتة ، يهرعـون بعدها الى موعد شاي بعد الظهر .

● اما اساطين وكالـة المخابرات المركزيـة فسوف يلعنـون الجيش

والبحريــــة والطيران والمشاة والرؤساء والكونغرس ووزارة الخارجيــــة والفييتناميين والصينين والروس ، والبرتغاليين ايضا . ان هؤلاء جميعــا لم يتركوا لهم حرية العمل العظيم من أجل أمن العالم ورفاهيته التــــي تحققت في تشيلي بموت ايندي وفي أندونيسيا بموت سوكارنو وفـــــي اليونان بعد خلع الملك وفي قبرص بعد مطاردة مكاريوس وفي بوليفيا بعــــد اغتيال جيفارا وفي الشرق الاوسط صيف ٦٧ .. ان أمجــــاد المخابــرات الاميركية تترك بصماتها على كل جزء من اركان المعمورة بالرغم من الشهداء الذين يسقطون والخونة الذين يتخلون ويفضحون ، فاننا لـم نلــق علـــم الجاسوسية في الطين كما القاه السياسيون والعسكريون . ان الطريق الى سلطة العالم يمر في ما يبدو بالاستيلاء عــلى سلطة الولايات المتحــدة التــي يستحوذ عليها الاغبياء الاغنيـــاء . ان واجبنـــا التاريخي يحتم علينـــا التفكير بشجاعة الانبيــاء ــ بعــد اخفاقهم الذليــــل خــارج الحــدود ــ ان نوجــه غايــة الجهــد الــى الداخــل لعــــل وعسى . أن الناس لــن يصدقوا بعد اليوم افلام جيمس بوند ، فلنرتب بيتنا من جديد وننطلق .

.. ثم يتوجهون الى موعد شاي بعد الظهر .

وفي قاعة كبيرة يلتقي الجميع باسمين : العسكريون بأزيائهم المهيبــة والسياسيون بقبعاتهم العالية ورجال الامن بنظاراتهم الزجاجية ، يشربون الشاي وينادون على الصحفيين في بيان مشترك « لقد اتفقنا على نسيــان الماضي . لم يقصر فريق منا في حق الولايات المتحــدة . انسوا فييتنام . ولنبحث معا عن فييتنام جديدة فهذا هو قدرنا في الدفاع عــن الحريـــة والحضارة » .

★★★

ليس هذا التصور لما يجري داخل اميركا ــ الآن ــ تبسيطا للمسائل . وانما الاصداء الفورية لما حدث في فييتنام على صفحات الجرائد الاميركية ، لا تخرج عن حدود هذا التصور ، باستثناء كلمات كيسنجر التي قال فيها : لهذه النهاية انعكاسات على العالم أجمع . وهي كلمات تختلف عمــا قالــه قبلها بأيام : ان نهاية الوضع في كمبوديا مأساة ، ولكن الوضع في فييتنــام مختلف رغم خطورته ! هكذا صاغت الجملة الاولى التعبير العفــوي عـــن الحقيقة ، بينما صاغت الجملة الثانية التعبير السياسي عـــن الحقيقـــة الاميركيــة .

ما هي « الحقيقة » وحدها ؟ وما هي الحقيقة الاميركية ؟

الحقيقة هي ان تحرير فيتنام ليس مجرد حلقة في مسلسل التحرر الوطني في العالم المعاصر ، ولعبد الناصر كلمة دالة في هذا الصدد ، قـال فيها « ان الحرب الفيتنامية هي حرب البشرية كلها » .. والعبارة فـي ظني ليست من قبيل الحماس الانشائي بقدر ما هـي ايجـاز لرؤيـة ستراتيجية صحيحة .

.. فالحرب الفيتنامية منذ اوائل الستينات لم تكن بين الفيتناميين و « احدى » الدول الاستعمارية ، وانما كانت مع اميركا قائـدة الامبريالية العالمية ، بكل ما تعنيه الولايات المتحدة من قوى عسكريـة وتكنولوجيـة وبشرية هائلة ، لعلها في ذلك الحين كانت أقوى القوى في عصرنا الحديث .

.. والحرب الفيتنامية بدأت مع مقدمات التوازن العسكري بـين النظامين العالميين وما أثمرته هذه المقدمات من انفراج دولـي في العلاقـات بينهما .. اي ان اسلوب المفاوضات والتعايش السلمي كان قد حل رسميا محل الصراع المسلح .

.. والحرب الفيتنامية بدأت مع ارهاصات الصراع المؤسف داخل الحركة الشيوعية العالمية بين الصين والاتحاد السوفياتي ، اي ان شرخـا مثيرا للاسى كان قد بدأ يفتح ثغرة واسعة في الجدار الصلـب للنظـام الاشتراكي العالمي . وقد كان الفيتناميون بين حجري الرحا ، فهم قريبون من الصين لاكثر من السبب الجغرافي ، وهم قريبون من السوفيات لاكثـر من سبب التسلح ، وهم يقفون في مواجهة أعتى النظم الرجعية في العالم ، وهي — اميركا — تخطب ود الروس وتطرق ابـواب الصـين ، وتضرب هانـوي ..

اي ان المناخ الخارجي المحيط بالصراع الفيتنامـي الاميركي ، كـان في أسوأ احواله تقريبا ، خاصة وان الولايات المتحدة هي التـي استفادت من جو التعايش السلمي طيلة الستينات بدءا بأزمة الكاريبي وانتهاء بهزيمة حزيران في الشرق الاوسط مرورا بسقوط اندونيسيا واليونان .. اي ان حركة التحرر الوطني العالميـة كانت تعانـي جزرا حقيقيـا ، بالرغم مـن اشعاعات الضوء الخافتة هنا وهناك . ولكن فيتنام قبلـت التحـدي

الاميركي قبولا ستراتيجيا ، معتمدة اولا وقبل كل شيء ، على المناخ الداخلي ، اي على قواها الذاتية :

● انها وطن ممزق بين الشمال والجنوب ، حيث تحكم الثورة مجتمع الشمال ، وتحكم العمالة المباشرة مجتمع الجنوب . لتكن اذن وحدة الوطن في مقدمة الاهداف الاستراتيجية ، ولان البرجوازية الفييتنامية في الجنوب هي التي كرست تمزق الوطن تحميها الترسانة الاميركية المسلحة ، فان النضال من أجل التوحيد القومي يعني في اللحظة نفسها التغيير الثوري للخريطة الاجتماعية في الجنوب بحتمية انتقاله الى الاشتراكية . واذا كان الشيوعيون هم نواة الثورة وقادتها ، فان هذا لم يمنع شرائح واسعة من الشعب المتعدد الطوائف والاتجاهات ان ينضم اليهم في « جبهة » تقود النضال الديمقراطي ضد الوجود الاميركي واعداء وحدة الوطن ومناهضي الاشتراكية . واذا كانت فييتنام الشمالية لها مصلحة مصيرية مزدوجة في التوحيد القومي والثورة الاشتراكية . فلتكن قاعدة الانطلاق . ولكن الجنوب يبقى في مختلف الظروف والاوقات مسرح العمل .

● لا حركة ثورية بغير نظرية ثورية ، لذلك كانت العقيدة هي سلاح العمل السياسي بين الجماهير . والفييتناميون شعب عريق في التدين ، ولكن أحدا لم يتهم الثوار باستيراد الافكار الاجنبية حين اتخذوا من الماركسية عقيدتهم ، لم يقل لهم احد ان الانبثاق عن واقعنا يتطلب البحث في البوذية لعلها تمدنا بالعقيدة المطلوبة او انه يتعين علينا تلفيق اشتراكية فييتنامية خاصة بنا .. وانما راح الثوار بعقول مفتوحة على التراث الانساني فأيقنوا ان أصالتهم تدعوهم الى الاخذ بروح العصر ، فليبق جسد فييتنام كما رسمته الطبيعة والتاريخ ولتدب في أوصاله روح التغيير الثوري المعاصرة وهي الماركسية : انها عقيدة بلا جنسية ولكنها هوية الثورة الحقيقية الكاملة . انها في حركة النضال تصبح جزءا من التراث .

● ولا عقيدة ثورية بغير تنظيم ثوري يؤصلها في التربة ويحولها الى دماء تسري في شرايين البشر ويبدع من خلالها شكل الحاضر والمستقبل . لا يمكن للعقيدة ان تكون مجرد موجة هائمة على وجه الماء ، ولا مجرد تيار هائم على وجهه في مهب الريح . كما انه لا يجوز بالمقابل ان تكون مجموعة آراء لرجل من الرجال . انها دليل العمل الثوري الحي بجماهيره الخلاقة ، فالنظرية ليست عرشا من ذهب يستكين فوقه الزعيم كما انها ليست

تابوتا من خشب يتخبط داخله النظام او التنظيم ، بل هي شرارة تفجر قوى الابداع الكامنة في روح الشعب الذي يضيف اليها ولا ينقص منها .

● وكان التطبيق الفييتنامي للماركسية هو الكفاح المسلح في حرب شعبية طويلة الامد ، استمدت لهيبها من تراث المعارك الوطنية المتصلة ضد اليابانيين والفرنسيين . لم يكن الكفاح المسلح ثمرة تفكير جغرافي في الغابات والمستنقعات التي أجاد الاميركيون تصويرها والتدرب عليها والخوض فيها ، وانما كان الكفاح الفييتنامي المسلح نتيجة تفكير تاريخي يفهم معنى الاستعمار والامبريالية ومعنى الاستقلال والحرية ومعنى الحاضر والمستقبل . ويدرك من ذلك كله ان لغة الدم هي اللغة الوحيدة التي تسترد بها الارض والانسان ، وان لغة الكلام حين يجيء وقتها حول موائد المفاوضات ، فلكي تؤكد ما قالته اللغة الاولى في ميدان القتال ، لترسم له فقط شرعية المواثيق .

● وكان التطبيق الفييتنامي للفكر الثوري في مجال العلاقات الدولية، ، هو ان اميركا هي العدو وليست الدمى المتحركة في سايغون الا عرائس من ورق تحركها الخيوط المرئية وغير المرئية . واميركا ليست عدوا شخصيا لثوار فييتنام اذا حلت عقدتهم تصالحوا معها ، وانما هي عدو استراتيجي لحركة الثورة في العالم . انها قائدة الاستعمار العالمي المعاصر في الحرب والسلم ، وبالتالي فنهاية الكفاح المسلح معها لا تعني نهاية النضال ضدها ، فهي العدو الرئيسي لتقدم البشرية جمعاء .

● وكان التطبيق الفييتنامي للعقيدة الثورية في مجال التصدع الذي أصاب معسكر الثورة العالمية هو التحالف الاستراتيجي مع مختلف فصائل الثورة الاشتراكية لا خوفا من الصين ولا احتياجا للاتحاد السوفياتي ، وانما اقرارا وقناعة بالاطار الاممي الذي يضم كافة اتجاهات الثورة ، وثقة غير مغرورة بالنفس . ولا شك انه كانت للفييتناميين تحفظات على الفكر الصيني وكذلك على السلوك السوفياتي ، ولكنهم لم يسمحوا لهذه التحفظات ان تكون جسرا يمر عليه الاستعماريون . ولم يستخدموا قط اللعبة الانتهازية بأن يكونوا مادة للمباراة الدعائية بين موسكو وبيكين ، ولا مادة للمنافسة – عليهم – من كلا الجانبين . ولم يكن ذلك تحسبا للقرب الجغرافي من الصين ولا تخوفا من امدادات السلاح السوفياتي ، فالكفاح المسلح لا يشترط سلفا بيئة جغرافية مناسبة ولا عتادا محددا بكم ونوع

السلاح . انه اسلوب في التفكير وطريقة في النضال بغض النظر عما توفره الظروف . وانما كانت علاقة الثورة الفييتنامية ــ وستستمر ــ بالصين والاتحاد السوفياتي وبقية البلدان الاشتراكية وحركات التحرر الوطني ، علاقة ستراتيجية حقيقية لا شعارا ولا تاكتيكا . وكما ان الانفراج الدولي بين الشرق والغرب لم يعق مسيرة الثورة ، فان الازمة الحادة بين الصين والسوفيات لم تعق هذه المسيرة .

● وربما كانت كوبا هي التي اضافت الى نظرية الثورة في شخص كاسترو ، أنه لا بديل لحركة التحرر الوطني من المضمون الثوري في استقامته المنطقية القصوى ، حتى ان فيدل ــ لاول مرة في التاريخ ــ قد تحول الى الشيوعية ، وهو في قمة السلطة ، ولم يكن الحزب الشيوعي الكوبي هو الذي قاد الحركة المسلحة ضد الدكتاتور باتستا . ولكن فييتنام تضيف اليوم النقطة الحاسمة في بداية انهيار الولايات المتحدة الاميركية قائدة الامبريالية المعاصرة ، وذلك لانها خاضت حربا لا ضد النظام العميل في سايغون وانما ضد القوات الاميركية المسلحة على ارض فييتنام ، حربا استمرت خمسة عشر عاما كاملة ، جيشت فيها الولايات المتحدة سبع دول آسيوية وجربت خلالها أحدث منجزات التكنولوجيا الحربية غير النووية .

وهذه هي « الحقيقة » التي جرت على لسان كيسنجر عفوا ــ او سهوا ــ غداة تحرير سايغون ، فقال ان انعكاسات هذا الحدث سوف تشمل العالم بأسره . انه لا يقصد بطبيعة الحال ان الفرح سيعم الدنيا التي شاركت الثورة الفييتنامية بالقلب ، حتى الشباب الاميركي نفسه كان يرفض التجنيد . وانما هو يقصد بالتأكيد ما طرأ على خريطة التاريخ ان جاز التعبير ، فما جرى هذا الاسبوع ــ ولتحفظ ذاكرتكم جيدا اليوم الاخير من شهر نيسان ١٩٧٥ ــ ليس تحريرا لعاصمة ولا تطهيرا لوطن من حكم عميل فحسب ، وانما هو النقطة الفاصلة التي بدأت عندها نهاية العصر الاميركي في استعمار الشعوب . ذلك انها الحرب الاولى التي تنهزم فيها الولايات المتحدة هزيمة صريحة ومباشرة وحاسمة في التاريخ الحديث. وفي ظل موازين القوى المتعادلة بين المعسكرين ، وفي ظل الشرخ القائم في جدار الحركة الشيوعية العالمية ، وهما الامران غير القابلين للجمود والثبات في مستقبل الايام . لقد تبدل الاسبوع الماضي ميزان القوى بين الشرق الاشتراكي والغرب الاستعماري حين أخذ جنوب شرق آسيا في الافلات من

قبضة النفوذ الامبريالي .. فالقضية ليست حصادا معنويا بقدر ما هي افلاس مادي للاستعمار يقابله من الجهة الاخرى مد ثوري على جبهة الاستقلال الوطني والاشتراكية .

لا شك اننا كنا نعيش منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، عصر انتصار الاشتراكية حين أصبحت نظاما عالميا لا بلدا واحدا محاصرا ، ولا شك اننا نحيا خلال ربع القرن الاخير عصر التحرر الوطني للمستعمرات . ولكن الثوة الفييتنامية وحدها هي التي وضعت بدماء الملايين من ابنائها الخط الفاصل بين عصر التوازن — وقد كان بدوره كسبا تاريخيا — وبين عصر الانهيار الحقيقي للاستعمار .. فلم يعد التوازن النووي بين الشرق والغرب ، هو المعيار الصالح لقياس القوة . يبقى له ، بالطبع ، اهمية كونه اللجام القادر على كبح جماح التهور الاستعماري وتقييد المغامرة الامبريالية عند حد . أما بعد ذلك فقد دخلنا عصر التوازن المختل لمصلحة الشعوب . هكذا تغيرت خريطة العالم خلال اسبوعين تغيرا كيفيا أتاح للتاريخ الانساني ان ينعطف الى مجراه الرئيسي ، واتاح للبشرية ان تجدد ايمانها بالحتمية التاريخية .

ولن ترد هذه المعاني على المخيلة الاميركية القائدة للنظام الاستعماري داخل الولايات المتحدة وخارجها .. حتى ان الانعكاسات التي تحدث عنها كيسنجر ، وسوف تشمل اميركا بالقطع ، لن تكون أكثر من مزايدة او مناقصة انتخابية ، أما جوهر ما حدث فلن يخطر لهم على بال . ذلك ان الولايات المتحدة نظام اقتصادي واجتماعي ، وليست مجرد « سياسة خارجية » اخفقت او « معركة عسكرية » انتهت بالسقوط المدوي . وليست المشكلة في ان عائلات الستين ألفا الذين ماتوا في ادغال فييتنام سوف يبكون هذه الايام بدماء القلب . وانما القضية الحقيقية هي النظام الاقتصادي الذي سيصطدم بمرور الزمن مع الانتاج ، وبخاصة انتاج المواد الحربية وصناعات الاسلحة وما يتفرع عنها من آلاف المصالح التي يضيرها توقف الحرب . ان توقف ميادين القتال خارج اميركا يعني مباشرة توقف العديد من فروع الصناعة الاميركية والاقتصاد الاميركي . ان توقف جبهات القتال خارج الولايات المتحدة يعني مباشرة توقف العديد من الاسواق والمواد الخام والايدي العاملة الرخيصة .

وهذا ما لن يسمح به النظام الاحتكاري الاميركي . ومن هنا فلن

يتفهم جوهر درس فييتنام . لقد بدأت النهاية حقا . ولكنه لم ينته بعـد . وانما هو سيحاول يائسا تغيير الجلـد الخشن بآخر ناعم ، وقـد يستعيد الخشونة مرة اخرى . وهكذا .. فان درس فييتنام الحقيقي لنـا نحن ، ومن حق هذه الثورة العظيمة علينا ان نستلهم جوهرها وان نضيف اليهـا وان نثري مسيرتها . ولعلنا نحن العرب بين شعوب العالم أجمع أحوج مـا نكون الى زاد هذه الثورة التي صححتمجرى التاريخ واستعادت للانسانية شرفها .

واذا كانت الثورة الفييتنامية قد وضعت الخط الفاصل بـين عصر وعصر ، فاننا من بين شعوب العالم اجمع مرشحون للانتقال بالبشرية الـى عصر جديد .. فقط لو لم يهرول البعض منا في التيار المعادي للتاريخ حيث يبدو الحليف الطبيعي عدوا ويصبح العدو الحقيقي « عزيزا » .. فقط لـو لم يفاجأ البعض منا بأن اميركا هي التي تحاربه فيجره الخوف منها الـى صداقتها والغرام بها .

.. فقط لو أدركنا حتى العظم ان اميركا بالفعل لا بالمجاز ، هي نمـر من ورق حتى ولو كانت له أنياب ذرية !!

وطوبى لهوشي منه الرجل الذي دخل التاريخ وهو ميت ، حيـث خرج منه بعض الاميركيين والعرب وهم بعد « أحياء » !!

المحرر ١٩٧٥/٥/٥

العيـد .. والمأتم !

يحق للعالم الاشتراكي ان يحتفل هذه الايام مرتين ، اولاهما في ذكرى مرور ثلاثين عاما على اندحار النازية الهتلرية التي وصلت جحافلها حتـى ابواب موسكو ثم طاردتها قوات الجيش الاحمر حتى قلب برلين . والثانية هي الانتصار الفيتنامي الساحق على اكبر جهاز عسكري عدواني في العصر الحديث وهو القوات الاميركية المسلحة . ويحق ايضا للعالم الغربـي ان يحتفل بذكرى انتصار الديمقراطية عام ١٩٤٥ على الفاشية العالمية ، ولكن الارجح ان الدوائر الاستعمارية على مستوى القمة سوف تستبدل الاحتفال بمأتم جنائزي اسود على سقوطها المدوي في جنوب شرقي آسيا . غـير ان الذكرى الثلاثين لاندحار النازية القديمة والعيد الطازج بهزيمـة الفاشية الجديدة ، يستحقان منا نحن العرب ما هو أبعد من المشاركـة في الاحتفال الاشتراكي ، وما هو ابعد من مشاهدة الجنازة الاستعمارية . يستحقان منا معايشة الحدثين عن قرب لان العيد الشرقي والمأتم الغربي وجهـان لعصر واحد ، عصرنـا الذي لا نستطيع ـ حتى ولـو اراد البعض منا ـ ان نحيـا خارجـه .

وفي مثل هذه المناسبات يجمع الناس في كافة انحاء العالم عـلى تحية الجيش الاحمر السوفياتي تحية خاصة يتميز بها عن مختلف الجيوش التي حاربت هتلر :

● ذلك انه الجيش الذي استطاع في اخطـر اللحظات ان يحـول هزيمة الحلفاء الى نصر تاريخي .. فالثابت في جميع الوثائق عـن الحـرب العالمية الثانية حتى الآن ، ان الغرب الذي اجتاحته القوات النازية كان قد ترك « الجبهة الشرقية » لقدرها . ومن ناحية اخرى كانت الخطة الهتلرية

هي تأجيل الحرب على هذه الجبهة فترة قصيرة ـ من قبيل الخديعة والخلاص من اوروبا الغربية ـ والتفرغ لها نهائيا بعد ذلك بصفتها الجبهة الرئيسية الحقيقية . الاتحاد السوفياتي هو الهدف . الشيوعية هي الهدف . وقد استطاعت القوات الهتلرية ان تصل حتى ابواب موسكو . وهنا بدأ التاريخ يصحح مسيرته ، اذ كانت هذه النقطة هي التي تراجعت عندها جحافل النازي فلم تتوقف في تقهقرها حتى الجحر الذي كان يختفي فيه قائد قوادها . هناك سقطت الراية السوداء وارتفع العلم الاحمر .

● ان الجيش الاحمر لم يكن مجهزا بأكثر مما كانت عليه جيوش هتلر ، بل ربما اقل في النوع والكم . ولم يكن هذا الجيش اكثر تقدما من جيوش « الحلفاء » الذين ركعوا احيانا في ساعات واخرى في شهور . ولكن المؤكد ان هذا الجيش العظيم قد حقق معجزة التاريخ ، لانه كان جيش الشعب السوفياتي ولم يكن قط جيشا لاحدى الطبقات او احد الافراد . كانت مهمته الوحيدة هي حراسة الارض السوفياتية ورد اي اعتداء عنها لا حراسة احدى الطبقات او احد الافراد . ذلك ان هذا الجيش كان ولا يزال مكونا من لحم ودم وعظم الشعب السوفياتي ، من ابناء العمال والفلاحين والمثقفين ، وليس طبقة متميزة او فئة مختارة ، فوق الشعب او من خارجه . ولان هذا الجيش ـ من داخله ـ لم يكن هرما طبقيا ، ضباطه هم الصفوة وجنوده هم الرعاع ، بل كان ولا يزال هرما تنظيميا عسكريا فنيا فحسب . ولان هذا الجيش اخيرا لم يكن محصورا في ثكناته ملفوفا بأزيائه ونياشينه بعيدا عن الشعب . وانما هو في وقت السلم يعمل يدا بيد في صفوف الشعب ، وفي وقت الحرب ايضا .

● ان الجيش الاحمر هو احد فصائل الثورة الاشتراكية ، فهو ليس درعا من نحاس او فارسا ترنو له الجباه ، وانما هو احدى الخلايا النابضة في جسد الثورة وروحها . انه لا يحرس أرضا بورا بدافع من النخوة والشهامة والشجاعة ، وانما هو يحرس وطن الحاضر والمستقبل ، وطن الثورة . لذلك كان ولا يزال جيش الحزب الشيوعي السوفياتي ، حزب لينين العظيم . انه ليس جيشا محترفا ولا جيشا للزينة ، وانما هو جيش مناضل ملتزم بسلطة الحزب . انه حين كان يحرر الارض كان يحمي الاشتراكية . هكذا انصهرت في شرايينه دماء الوطن بدماء الثورة . ومنذ ثورة اكتوبر عام ١٩١٧ لم يطلق الجيش السوفياتي رصاصة الا في وجه اعداء الوطن والثورة .

● ولانه جيش وطني حتى النخاع دفع غائلة الوحش النازي عن الارض ، ولانه جيش أممي حتى العظم طارد الوحش الى عقر داره حتى قتله محررا شرق اوروبا بكامله . وبعد التحرير كان عليه ان يعود الى أرض الوطن مسلما السلطة التي شارك في انتزاعها من الاوصياء على شعوب الشرق الاوروبي الى أبناء هذه الشعوب ومناضليها .

● ولانه جيش الشعب لم تتركه جماهير الشعب السوفياتي « يؤدي واجبه » ، فكما انه رافقها وقت السلم وهي تبني ، انخرطت في صفوفه وقت الحرب وهو يقاتل . اصبح الجيش والشعب وحدة واحدة ، غنت بدماء عشرين مليونا من البشر أعظم قصيدة في تاريخ الانسان . ان معارك ستالنجراد وبطولات لننجراد وبقية المدن والاقاليم والقرى والانهر السوفياتية ، ليس مما تقدر على تصويره أحدث منجزات السينما . . فالعشرون مليونا الذين بذلوا أرواحهم من الشعب السوفياتي ، هم انفسهم الذاكرة الجديدة والتاريخ الجديد لعالمنا .

● ولا شك ان عقيدة هذا الشعب وتنظيمه السياسي ـ الحزب الشيوعي ـ والقيادة التاريخية لستالين هي السلاح السحري الذي استقطب الجيش والشعب والانصار في أعظم الحروب قاطبة حتى ذلك الوقت ، فقادها الى النصر المعجز . لم يكن الاتحاد السوفياتي يومها احدى القوتين الاعظم (!!) بل كان وطنا اشتراكيا وليدا منذ حوالي ربع قرن ، ورث البؤس والتخلف والفقر وواجه التحدي والحصار وحروب التدخل، كان في اول الطريق يبني . ولكن العقيدة الثورية والتنظيم الثوري والقيادة القادرة الواعية المؤمنة بشعبها ووطنها وثورتها ، هي العناصر الاولية التي خططت ونفذت وانتصرت ، وبغيرها لم يكن النصر ممكنا ، لم يكن الا انشودة حلم في ذكرى الشهداء .

***

تلك هي التحية التي يجمع عليها الناس من مختلف انحاء العالم في هذه الذكرى . .

ولكن الناس تتابع أيضا ـ بمزيد من التأمل ـ ما جرى للوحة العالم والعصر طيلة السنوات الثلاثين الماضية :

● فلا شك ان عصرا جديدا كان قد ولد عام ١٩٤٥ بانتهاء الحرب العالمية الثانية على النحو الذي انتهت اليه . وما لا يقوله الاستعماريون في مأتمهم الجنائزي الراهن ، هو ان الثمرة الحقيقية للحرب كانت هزيمة أعلى ذرى النظام الرأسمالي الاحتكاري ... فالحرب لم تكن معركة سياسية مجردة من سياقها الاقتصادي فضلا عن انعكاساتها الايديولوجية . ان الدول التي هزمت ـ المانيا واليابان وايطاليا وتركيا أساسا ـ هي دول رأسمالية وصل تطورها الصناعي والاقتصادي الى مرحلة تناقضت عندها مصالحها تناقضا حادا مع بقية « العالم الحر » وتناقضا جذريا مع الدولة الاشتراكية الوحيدة . من هنا قام التحالف المؤقت بين الاتحاد السوفياتي واوروبا الغربية والولايات المتحدة . وكان تشرشل على صواب من وجهة نظره الى اقصى الحدود حين قال في بداية الحرب ـ مشيرا الى روسيا ـ « انني مستعد للتحالف مع الشيطان » وحين قال عند نهاية الحرب « عدونا الحقيقي لم ينهزم بعد فحربنا القادمة على الجبهة الشرقية ذاتها ، تلك التي أعترف انها جلبت لنا النصر » .

كان تشرشل صادقا ، فالنظام الراسمالي العالمي قد نال هزيمة محققة حين ركعت المانيا الهتلرية والعسكرية اليابانية وايطاليا الفاشية . ومن ناحية اخرى كان قيام الاشتراكية في شرق اوروبا عنوانا مزدوجا على تدهور الرأسمالية في جزء كبير من العالم الصناعي المتقدم ، وعلى ولادة النظام الاشتراكي العالمي بعد ان كان محصورا في بلد واحد . ومن ناحية ثالثة أصبح الحديث « الايديولوجي » عن الاقتصاد الحر فكاهة مبتذلة من تراث الماضي ، فالرأسمالية تحمل في بذرتها الاولى عناصر التركيز والتركز اي احتكار الاسواق داخليا ، وتصدير رأس المال المسلح عسكريا لاستيراد المواد الخام والايدي العاملة الرخيصة ، اي الاستعمار الامبريالي . ومن هنا ايضا كانت الرأسمالية تحمل في بذرتها الاولى عناصر الحرب ، سواء بين الاحتكارات وبعضها البعض حول الاسواق ، او بين الاحتكارات المسلحة والشعوب المتخلفة . ومن هنا اخيرا كانت الراسمالية تحمل في بذرتها الاولى نواة العنصرية والتعصب العرقي والديني . ذلك ان الايديولوجية النازية المؤمنة بنقاء العنصر الآري والطامحة لامتلاك العالم ، لم تكن في ذلك تجسيدا لجنون الفوهرر او النرجسية القومية للشعب الالماني ، وانما كانت تتويجا فكريا لآخر مرحلة وصلت اليها الاحتكارات الالمانية في ذلك الوقت .

ان العصر الجديد الذي افتتحه عشرون مليونا من السوفيات ، هو عصر انتصار الاشتراكية ،كنظام اقتصادي واجتماعي وكفكر سياسي وايديولوجي معا . وليس هناك انتصار في جانب الا وهناك خسارة في الجانب الآخر . لذلك كانت نهاية الحرب الثانية من احدى الزوايا خسارة مؤكدة لجوهر النظام الرأسمالي في العالم .

● وقد اكدت السنوات التالية للحرب مباشرة ملامح العصر الجديد .. أكدت من جهة اننا في عصر انتصار الاشتراكية بانتصار الثورة الصينية وولادة كوريا وفييتنام الشماليتين . بل وارتسمت نقطة التحول التاريخية في لوحة العصر بولادة حركة التحرر الوطني العالمية في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . وكانت الثورة المصرية بقيادة جمال عبد الناصر عنوانا بارزا في وطننا العربي على شمول التحول الجديد للعالم المتخلف ومستعمرات ما يسمى بالعالم الثالث . كما اكدت من جهة اخرى ان الراسمالية كنظام ، مهما ادعت الديمقراطية ، فانها تسير حتما في طريق الاحتكار نحو النازية والفاشية من جديد . وكانت الولايات المتحدة الاميركية قائدة الامبريالية المعاصرة، هي المرشحة لوراثة الامبراطوريات التي لا تغيب عنها شمس انجلترا وفرنسا وايطاليا . وهكذا حين وصلت اقتصاديا وصناعيا وعسكريا الى ذرى النظام الراسمالي العالمي ، فانها كانت قد وصلت في نفس الوقت الى كل ما اتسمت به النازية والفاشية من ايديولوجيات القهر الداخلي والاستعمار الخارجي والفكر العنصري . ضاعت آيات جورج واشنطن في الرغام ، وصلوات روزفلت في الوحل ، ومبادىء ولسن في الطين .. واصبحت الحرب العنصرية ضد الزنوج من مباذل العصر ومخازيه ، واضحت وكالة المخابرات المركزية قاموسا شيطانيا لضرب الدول المستقلة حديثا او التي تناضل من اجل حريتها ، وأمست « اسرائيل » و « روديسيا » و « جنوب افريقيا » محميات اميركية تعمد الى الاستعمار الاجلائي الاستيطاني . واذا كانت اميركا في ظل مناخ العصر الجديد قد ابتكرت « الاستعمار الجديد » الذي يربط مصير الاوطان المستقلة شكلا بعجلات التبعية الاقتصادية والسياسية دون الاستعراض العسكري القديم ، فانها لم تتورع عن التدخل السافر المسلح في فييتنام لمدة خمسة عشر عاما كاملة .

● ان الانتصار التاريخي العظيم للانسانية جمعاء سنة ١٩٤٥ قد افتتح حقا عصرا جديدا لونه البارز هو الاشتراكية والتحرر الوطني ،

ولكنه لم يكن قط عصرا وحيد الجانب ، فالديمقراطيات الغربية بقيادة الولايات المتحدة والتي كانت بالامس قد تحالفت مع « الشيطان » عادت بعد الحرب مباشرة لتصبح العدو الرئيسي للنظام الاشتراكي وحركة التحرر الوطني العالمية . ونكص « العالم الحر » عن وعوده التي قطعها – مثلا – لشعوب الجزائر ومصر والسودان ، بل هو سارع – مثلا ايضا – الى زرع « اسرائيل » لتشق قلب الوطن العربي . ولم يخرج الفرنسيون من الجزائر الا بعد حرب ولم يخرج الانجليز من مصر الا بعد حرب ، ولن يخرج الاسرائيليون والاميركيون من فلسطين الا بحرب .

وقد كان من الممكن لتشرشل وحلفاؤه ان يستديروا الى « عدوهم » الحقيقي لولا ان الاتحاد السوفياتي كان قد استطاع ابان فترة قصيرة ان يحقق ما يشبه المعجزة التكنولوجية والعسكرية ، وذلك بلحاقه السريع بالعصر النووي واقتحامه عصر الفضاء والصواريخ العابرة للقارات ، مما أقام توازنا عسكريا بين النظامين العالميين ، كان من نتائجه الحاسمة ردع الدوائر العدوانية الاستعمارية عن مجرد التفكير في المساس بالعالم الاشتراكي ، وكانت أحداث المجر عام ١٩٥٦ برهانا اكيدا على هذا التحول الجديد في موازين القوى ، كما جاءت حركة تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ بمثابة التوقيع النهائي من جانب الراسمالية العالمية على انها لن تغامر مرة اخرى . كما أنه كان من النتائج الحاسمة لهذا التوازن ان انتهت الحرب الباردة بما احرزه الخط السياسي السوفياتي في اوروبا ، وذلك بدخول المانيا الشرقية هيئة الامم المتحدة ، وبتوقيع المانيا الغربية على الخطوط الفاصلة بينها من جانب وكل من بولونيا والمانيا الديمقراطية من جانب آخر .

● وقد كان الانتصار التاريخي عام ١٩٤٥ هو المدخل الاساسي الى عصر الانفراج الدولي ، فأصبح من الممكن لدولة كوبا الاشتراكية ان تبقى في حضن القارة الاميركية رغم أزمة الكاريبي ، واصبح من الممكن للثورة الفييتنامية العظيمة ان تلحق الهزيمة بأكبر جهاز عسكري عدواني في عالمنا ، واصبح من الممكن للفاشية البرتغالية ان تحتضر على ايدي الثوار الديمقراطيين ، واصبح ممكنا لاية حركة تحرر وطني تستكمل مقوماتها الذاتية ان تعتمد على حليف دولي يقوم – على الاقل – بدور اللجام الكابح للعدوان النووي ، ويقوم أيضا بكل ما يستطيعه من امدادات السلاح ، ذلك

هو الاتحاد السوفياتي ، بشعبه وحزبه وقواته المسلحة . ان الانتصار الفييتنامي العظيم منذ اسابيع قليلة فتح عصرا جديدا في الخط البياني لانهيار الراسمالية ، ومن هذه الزاوية هو امتداد عضوي للانتصار السوفياتي منذ ثلاثين عاما والذي كان قد بدأ عصر اندحار الفاشية .

اي ان الخط الصاعد للنضال الانساني منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ، رغم كافة مراحل الجزر ، يسجل بوضوح ان نقطة البداية كانت انتصار الاشتراكية ، كما يسجل هذا الخط وبنفس الدرجة من الوضوح ان تطور الراسمالية يؤدي حتما الى الفاشية سواء في الشكل السياسي أو في المضمون الاجتماعي . ويسجل هذا الخط أخيرا ان تحرير الارض لا سبيل الى انجازه بغير تحرير الانسان .

ولعلنا نحن العرب وفي وقتنا الحاضر على نحو خاص احوج ما نكون الى وعي هذه الحقائق فهي متغيرات العصر الذي نعيش فيه أردنا ذلك او لم نرد ، فبعيدا عن « الاحتفال » بالعيد الاشتراكي او « العزاء » في المأتم الاستعماري ، يجدر بنا ان نعيش روح العصر الجديد برؤية الماضي واستشراف المستقبل حتى نعرف مكاننا في الحاضر ، ونتحرك بمنطق الذين يريدون الحياة فيناضلون من اجلها بدلا من المشاركة الهزلية في كرنفال الموت العالمي . يجدر بنا أن نعي .

● ان الانتصار السوفياتي على الفاشية ليس « ذكرى » وانما هو نقطة فاصلة بين عصرين . وهي ليست نقطة اكاديمية في احد متاحف التاريخ ، وانما هي نقطة حية متصلة بغيرها من النقاط التي تشكل مجتمعة خطا اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا واضحا في حياة مئات الملايين من البشر الذين يحيون في الاتحاد السوفياتي والصين واوروبا الشرقية وكوريا وكوبا وفييتنام وغيرها من الاقطار التي اتخذت « الاشتراكية » طريقا ومنهجا . انه الخط الذي يتعاظم يوما بعد يوم ، لانه المستقبل .

● لذلك كان التحالف بين حركة التحرر الوطني العالمية والمعسكر الاشتراكي هو التحالف مع المستقبل الوحيد الممكن للبشرية .

● ان المأتم الاستعماري الذي يقيمه الامبرياليون في مختلف عواصم الغرب بقيادة الولايات المتحدة على ضياع فييتنام من مخالب العبودية

والقهر الاجنبي ، ليس طقسا لاهوتيا ولا سذاجة سياسية ، وانما هو الادراك المضني بالنهاية المحتومة والمصير الفاجع للراسمالية . لذلك تلقى الانتفاضات الفاشية في المانيا الغربية وايطاليا تأييدا متزايدا من « ديمقراطيات العالم الحر » التي حاربت هتلر وموسوليني بالامس القريب .

● لذلك كان التحالف بين بؤر العدوان العنصرية كاسرائيل والمعسكر الاستعماري هو التحالف مع اكفان الماضي الميت .

★★★

ولا « وسط » او طريق ثالث بين الموقفين ، سواء في علاقاتنا الخارجية او بحياتنا داخل الحدود .. فأيا كانت التحفظات على التفاصيل والجزئيات والدقائق الصغيرة التي يمكن رصدها على هذا او ذاك من بلدان المعسكر الاشتراكي ، فان التحالف المصيري معها هو قدر الذين اختاروا تحرير الارض وتحرير الانسان . وبالعكس ، ايا كانت المغانم والمغريات التي يمكن رصدها أيضا في علاقات « المودة » مع بلدان المعسكر الاستعماري ، فان الارتماء بين أحضانها هو قدر الذين اختاروا – بوعي او بغير وعي – ان يربطوا اقطارهم بعجلات عربة الموت في جنازة الراسمالية .

اما في داخل الحدود ، فان المعادلة البسيطة تنعكس بحذافيرها : اي ان انتهاج الاشتراكية العلمية الحقيقية – مهما تعددت الوسائل اليها – هو السبيل الوحيد لمنع الفاشية من اغتيال انساننا ، ولاننا في الاغلب شعوب حديثة الاستقلال ، فانها ايضا السبيل الوحيد لمنع الفاشية من احتلال ارضنا .

وحين نمضي خطوة – او نتراجع خطوة – الى الراسمالية ، فاننا في واقع الامر نمضي ونتراجع نحو الفاشية .

ولم يعد ممكنا الضحك على الجماهير باقناعها انها تستطيع التضحية بحريتها في سبيل لقمة الخبز ، لقد ايقنت الشعوب ان الذين يسلبون الحرية يفعلون ذلك سلفا ليسلبوا لقمة الخبز .. تماما كالذين يسلبون الارض بغية سلب الانسان .

.. فالوطنية والثورة الاشتراكية وجهان لعملة واحدة في عصرنـــا ، كذلك الحرية والتغيير الاجتماعي . وقد دفعت بعض « تجارب » التحـرر الوطني ثمنا فادحا لانها لم تع هذه الدروس .. وبعضها لا يزال الـــى الآن « يحتفل » بعيد الانتصار السوفياتي على الفاشية ، بينما دموعه الساخنة تشق مجراها الى المأتم الاميركي .. فمتى تتوقف هذه المفارقة الراقصةعلى حبال الموت ؟

المحرر ١٩٧٥/٥/١٢

حتى لا ننسى « العالم » من حولنا

وسط الضجيج الذي يصم الآذان في الوطن العربي ، سواء من انفجارات بيروت او الاتهامات المتبادلة بين بعض الاقطار العربية او اخبار التسوية الاميركية الاسرائيلية ، نكاد الا نسمع « غيرنا » وان ننسى تماما العالم من حولنا .. بالرغم من ان هذا « العالم » يلتقط انباءنا ويحيا مشكلاتنا بدرجة او بأخرى ، وبالرغم من ان انباء هذا العالم تؤثر في مجرى حياتنا سلبا وايجابا .. ولكن المؤسف ان علاقتنا بالدنيا المحيطة تقتصر على المصارف والسياح واحدث منجزات التكنولوجيا الاستهلاكية . والنتيجة هي اننا نعيش أيامنا بعقلية القروي الذي لا يدري بما يدور خارج حدود قريته ، بالرغم من ان اسماء بلادنا تحتل الصفحات الاولى من جرائد العالم والمواقع الاولى من اذاعاته . وهي مفارقة تحمل بعضنا احيانا على الغرور لانه ينظر الى الامر من زاوية « احتياج » الآخرين الينا ، وينسى بالقطع احتياجنا المؤكد الى الآخرين .. والا فخلل « المعادلة » يصيبنا نحن وفي الصميم اولا واخيرا ، وفي المدى البعيد أن لم يكن القريب.

ولعل أهم حدث خارج ديارنا وقع منذ فترة قصيرة ، هو اكتساح الحزب الشيوعي الايطالي لانتخابات البلدية في الاقاليم ، وهي الانتخابات التي تعد بكافة المقاييس مؤشرا حاسما على مستقبل أية انتخابات عامة . ولان النجاح الشيوعي ليس نجاحا « ايطاليا » فحسب ، فقد صدرت على الفور التصريحات العصبية للدكتور هنري كيسنجر واركان الحلف الاطلسي تحذر من « الخطر الاحمر » الذي يهدد غرب اوروبا . وكان أهم تعليق اميركي على نتائج الانتخابات الايطالية هو ان الولايات المتحدة لا تكسب من تحالف أية دولة اوروبية معها ، ولكنها لا ترفض طلبا من اية دولة بالتحالف معها . وهو انذار ، وليس تعليقا ، انذار يهدد ويضغط على

الاتجاه الاستقلالي لاوروبا الغربية ، اكثر منه تعاليا اميركيا او كبرياء الدولة الاعظم .. والحقيقة هي ان الولايات المتحدة تخشى رياح التغيير التي كادت تعصف بميزان القوى الداخلية في فرنسا ابان الانتخابات الماضية ، والتي سوف تعصف يقينا بميزان القوى الداخلية الايطالية في اية انتخابات قادمة .

ورياح التغيير لم تهب على ايطاليا هذا الاسبوع ، وانما هي قد امطرت بوادرها العاتية منذ اكثر من عام ، حين وقفت الكنيسة الكاثوليكية بكل وزنها والاحزاب اليمينية بكل ثقلها وراء قانون الطلاق حتى لا يجيزه الاستفتاء الشعبي العام ، بينما وقف الحزب الشيوعي وحده تقريبا يدعم القانون ، وكانت النتيجة ــ المفاجأة هي ان الشارع الايطالي قد صوت الى جانب الطلاق رافضا موقف الكنيسة والحزب الديمقراطي المسيحي الحاكم . ويبدو ان الدوائر الرجعية المتطرفة في ايطاليا قد وعت الدرس اكثر من غيرها فظهرت الحركات الفاشية من جديد وتحرشت بالشيوعيين في اكثر من موقع وتسلحت بالارهاب الفردي العاجز عن العمل الجماهيري الديمقراطي . وقد اتخذت الحكومة « الديمقراطية المسيحية » ــ عن طريق الشرطة ــ موقفا مناوئا للشيوعيين ، مساعدا في الخفاء للعصابات الفاشية .

غير ان درس اجازة الطلاق لم يكن حاسما ، كما ان الدوائر الرجعية الايطالية لم تستخلص منه ــ في ما يبدو ــ سوى الوجه العلني والمباشر ، ولم تتعمق باطن الظاهرة الجديدة . وهكذا كان الامر عند الدوائر العدوانية ــ خاصة وان المجتمع الاميركي يبيح الطلاق ولا اثر لتدخل الكنيسة في هذا الامر ــ فانها ، لذلك ، لم تهتم بنتيجة الاستفتاء اهتماما سياسيا شاملا وان ساعدت العصابات الفاشية على التحرش الدموي بالشيوعيين .

اما الآن فالوضع يختلف . لقد اكتسح الشيوعيون اعداءهم في الانتخابات البلدية اكتساحا من شأنه ان يغير المعادلة الراهنة للحكم الايطالي تغيرا هاما ، ومن شأنه كذلك ان يغير من نظرة الحلف الاطلسي لما يجري على احدى أراضيه تغييرا هاما .

قبل ان نتساءل عن طبيعة « التغيير الهام » الذي يمكن ان يحدث هنا وهناك ، لا بد ان نتساءل عن طبيعة التغيير الذي قد حدث ــ داخليا

وخارجيا ــ مما دفع الشيوعيين الايطاليين الى مقدمة الساحة الاجتماعية والسياسية والدولية :

● كانت ايطاليا ولا تزال منذ الحرب العالمية الثانية دولة مهزومة في الحرب ، بكل ما تعكسه الهزيمة من خراب داخلي وأعتماد كلي على المنتصرين ، حتى وان أصبحت احدى دول غرب اوروبا المتحالفة ضد « الخطر الشيوعي المحتمل » .

● ايطاليا ، قبل وبعد الحرب ، ليست كبريطانيا وفرنسا في معدل تطورهما وغناهما .. بل ان الجنوب الايطالي لا يختلف فقره وبؤسه عن كثير من شعوب ما يسمى « العالم الثالث » .

● يعد الحزب الشيوعي الايطالي اكبر الاحزاب الشيوعية خارج الاسرة الاشتراكية . وقد اكتسب جماهيريته العريضة لنضاله الشرس ضد الفاشية قبل اندحارها ، ولاقترابه من صفوف الكادحين في حياتهم اليومية ، ولمسايرته روح العصر في التحليل والتقييم ، ولدفاعه الصبور عن الديمقراطية .

● الواقع الايطالي وروح العصر هما المادة الخام التي يصدر عنها الحزب الشيوعي الايطالي في رؤاه النظرية وممارساته التطبيقية على السواء ، لذلك فقد اكتسبت مبادراته روحا استقلالية خلاقة رغم ارتباطه الاممي ببقية الاحزاب الشيوعية والتجارب الاشتراكية في العالم .

● ان الحزب الشيوعي الايطالي منذ كان الرفيق تولياتي حيا حتى الرفيق بيرلنغر قد يختلف او يتفق مع الحزب الشيوعي السوفياتي او الحزب الشيوعي الصيني ، ولكنه في اختلافه واتفاقه يلتزم بالماركسية اللينينية و « الواقع الخاص » لايطاليا .. ومن هنا فهو ليس اداة للصراع بين القطبين الكبيرين كما انه ليس محايدا ، بل هو يستمد صوابه واخطاءه من واقع المجتمع الايطالي والطبقة العاملة الايطالية في اطار منجزات العصر المادية والفكرية .

● ايا كانت درجة التمايز او التطابق بين الحزب الشيوعي الايطالي وغير من الاحزاب الشيوعية الصغيرة والكبيرة سواء كانت في المعارضة او في السلطة او تحت الارض فانه منحاز اساسا الى جانب الخط السياسي

القائل بالتعايش السلمي والانفراج الدولي ، وبالتالي فهو قد أيد في الماضي القريب كافة الخطوات التي قام بها الاتحاد السوفياتي لانهاء ذيول الحرب العالمية الثانية بين المانيا الغربية وكل من المانيا الشرقية وبولونيا ، كما انه يؤيد في الوقت الراهن كافة الخطوات التي يقوم بها الاتحاد السوفياتي لانهاء الحرب الباردة سواء بالحد من الاسلحة الاستراتيجية او بالاتجاه نحو « مؤتمر الامن الاوروبي » .

● ولا تقتصر مهمة الحزب الشيوعي الايطالي على التأييد لهذا الخط السياسي العام ، وانما هو يستلهمه محليا في التركيز على الديمقراطية كسبيل لوصوله الى الحكم بدءا من المشاركة فيه ، وكطريق لتطور المجتمع الايطالي بأسره في المستقبل .

تلك هي « المتغيرات » الاساسية التي وصلت بالشيوعيين الايطاليين الى مقدمة الساحة الاجتماعية والسياسية والدولية ، وهي المتغيرات التي جسدتها انتخابات البلدية والتي سوف تحسمها الانتخابات العامة . انها المتغيرات التي تقول انه لم يعد ممكنا للمواطن الايطالي ان يحيا في ظل النظام الذي دام حوالي ثلاثين سنة قبل ان تقول انه لم يعد ممكنا لهذا المواطن ان يظل محكوما بتحالف الوسط واليمين الايطاليين مدى الحياة . هكذا تصل ايطاليا ــ احدى قواعد الحلف الاطلسي ــ الى مفترق طرق : اما ان تختار طريقا استقلاليا عن الولايات المتحدة وجبهويا بمشاركة الشيوعيين الايجابية في الحكم ومعاصرا بالانسلاخ التدريجي عن سيطرة الكنيسة ، واما ان تختار طريق التبعية الكاملة لاميركا والفاشية في الحكم . طريقان لا ثالث لهما : احدهما يفتح لها ابواب التطور الاجتماعي والحضور في قلب العصر والعالم ، والآخر ينتهي بها عند مشارف الانفجار الدموي .

أيهما تختار ، الآن وقبل غد ؟

أيهما تختار قبل الانتخابات العامة .. حتى يمكن ان تحدث هذه الانتخابات ؟

سؤال لا يفكر في جوابه الايطاليون وحدهم ولا الشيوعيون وحدهم ولا الاميركيون وحدهم .. بل يفكر فيه أيضا بعض « الجيران » المنتشرين على شواطىء البحر الابيض المتوسط . اليس كذلك ؟

★★★

وما يدور في الجنوب الشرقي من القارة الاوروبية ـ ايطاليا ـ ليس بعيدا جدا عما يدور في الجنوب الغربي منها في البرتغال !

كيف ؟

.. وماذا يحدث هناك أولا ؟

يحدث نقيض ما جرى في شيلي من حيث الاسلوب ، حتى يمكن اعادة الاعتبار للتجربة الشيلية من حيث الهدف : وهو بناء الاشتراكية في رحاب الديمقراطية . ولكن ، بينما كان الجيش في شيلي هو أداة الثورة المضادة في الانقلاب على اليندي ، تقف القوات المسلحة البرتغالية كأداة للثورة . واذا كان اليمين هو الذي انقض على الديمقراطية في شيلي ، فـان التجربـــة البرتغالية تؤكد « الفكـرة » وتصحح الخطـــأ فيقـــوم اليسار بحراسة الاشتراكية والديمقراطية معا .

ماذا حدث ويحدث في البرتغال ؟

قامت « جبهة وطنية » في القوات المسلحة بانقلاب شامل على النظام الفاشستي الذي دام حوالي نصف قرن من الزمـــان الدكتاتوري الفاشم . الجبهة التي ترتدي الثياب العسكرية برهنت على انها اكثر مدنية مــــن المدنيين ، بحرصها البالغ على الديمقراطية من اليـــوم الاول لاستلامهـــا السلطة . ولكنها رأت بعين اجتماعية بصيرة ان الديمقراطية لا تتجـــزأ ، ليست مجرد احزاب وصحف ومظاهرات ، فالرأي الحر لا يولد من بطون جائعة . هكذا كان التحول الى الاشتراكية هـو في جوهـــره التحـــول الديمقراطي .. دون مساس بالمظهر الحزبـي والتنظيمـــي والاعلامـــي والتظاهري وغيرها من أشكال الديمقراطية التي حرمت منها البلاد خمسين عامـــا .

وخلال اكثر من العام الواحد قليلا تحول الانقلاب العسكري الى ثورة اصطدمت بالحتم والضرورة بمن اراد ان يبقي عـــلى روح الانقـلاب ليكرس موضوعيا نظام القهر والاستغلال الطبقي والعنصري تحت ستار الليبرالية. وكان الجنرال سبينولا هو الرمز الشامل لتكريس الانقلاب : رفض تحرير المستعمرات في الخارج ورفض تحرير الطبقات الشعبية في الداخل .

وتمكنت « الجبهـــة » العسكرية أن تلفظ رمـــوز الانقـلاب لتكريس

« الثورة » . ولكن الجبهة شيء والمجتمع شيء آخر . هكذا تألق الاشتراكيون ــ حزب الوسط ــ كرمز اجتماعي شامل يبغي تجزئة الديمقراطية ، بأخذ جانبها السياسي ويرفض وجهها الاقتصادي .

وتمكنت « الجبهة » مرة اخرى من صياغة المعادلة الصحيحة للتقدم الاجتماعي والتطور الديمقراطي ، بأسلوب يحدث للمرة الاولى في التاريخ حيث يعتمد العسكريون الحوار مع الخصوم بالكلمات بدلا من الحوار بالطلقات . ذلك انهم ، رغم موقع السلطة ورغم حيازتهم للسلاح ، يؤمنون بالديمقراطية فعلا لا شعاراً .

لذلك ، فهم كما تصدوا للحزب الاشتراكي ــ المعبر اساسا عن طموحات الطبقة المتوسطة ــ تصدوا بالمقدار ذاته للعصابات « اليسارية » الطفولية المريضة اصلا بالفكر الماوي . بغير تحليل تفصيلي دقيق لوضع البرتغال الاجتماعي والاوروبي ، رفع هؤلاء شعار « دكتاتورية البروليتاريا» الفورية .

ولكن الجبهة العسكرية الحاكمة في ضوء اصح التحليلات السياسية ــ وهو خط الحزب الشيوعي البرتغالي ــ قد رات في الشعار جموحا يهدد جوهر التجربة ومظهرها ، يهدد الاشتراكية والديمقراطية معا . لذلك تصدت للشراذم المريضة ..

وظلت الى يومنا تمشي فوق الالغام تستكمل طريق الثورة يوما فيوما : تسمح بتعدد الاحزاب والصحف والمظاهرات ، ولكنها « تتعاقد » مع الاحزاب تعاقدا حرا على تحقيق التحول الاشتراكي ، وتعمل على « تنظيم » الصحافة تنظيما حرا ، و « تأطير » المظاهرات في جو سلمي .

وتمضي الثورة البرتغالية في طريق اعلان الدستور وتشكيل البرلمان ، لتحقيق المزيد من الديمقراطية ، لتجسد جوهر الديمقراطية : وهو التحول الاجتماعي لمصلحة الطبقات المحرومة ، والاستقلال لمستعمرات الحكم الفاشستي القديم . ولذلك نصدق رئيس الوزراء كونسالفش حين يقول ان التأميمات البرتغالية يحتفل بها الشعب الافريقي في انغولا ، كما ان استقلال موزامبيق عيد برتغالي .

.. ويبقى التساؤل : ما هي العلاقة بين ما يحدث في الجنوب الغربي من القارة وما يحدث في جنوبها الشرقي ؟

● ان كلا من ايطاليا والبرتغال عضو في حلف الاطلنطي ، وبالرغم من اعلان الشيوعيون هنا وهناك أنهم لا يطالبون بالانسحاب من الحلف ، الا ان الاميركيين لا يهتمون كثيرا بهذا الاعلان ، لان قوسين كبيرين من اقصى القارة الاوروبية الى اقصاها يحاصران غرب اوروبا الآن وغدا وبعد غد على الاكثر ، بجناحين من ريش الشرق لا من ريش الغرب .

● ان العقدة الدعائية التي كانت زعيمة العالم « الحـــر » ترفعها عاليا في وجه الثورة الاشتراكية هي التناقض بينها وبين الديمقراطية ، هي الحكم الدكتاتورية ..؟ وتبرهن احداث ايطاليا والبرتغال على أن العكس هو الصحيح : أن الاشتراكيين الحقيقيين هم الذين يذودون عن الديمقراطية . وسوف تصبح التجربة الايطالية ــ وقبلها التجربة البرتغالية ــ تكذيبا رسميا لهذه الدعاوى في طول وعرض اوروبا ، خاصة في فرنسا .

● ان البديل الغربي الجاهز دائما لامتصاص النقمة الاجتماعية كشف أوراقه وتعرى ، فقد سقطت ورقة التوت الاشتراكية عن أحزاب « الوسط » التي دلت الاحداث انها تتستر بالشعارات الليبرالية لضرب التحولات الاجتماعية .

● لم تعد الديماغوجية القائلة بتبعية الاحزاب الشيوعية لموسكو او بكين قادرة على تثبيت قدميها ، فالمبادرات الايطالية والبرتغالية تصدر علانية من واقع التجربة الخاصة وأحزابها دون ادنى اعتماد على نصائح احد او وصايته ، بالرغم من التضامن الاخوي التقليدي والشعور الاممي الراسخ والاسترشاد النظري بالماركسية اللينينية (ولعل لقاءات وتحالفات الاحزاب الاشتراكية البرجوازية في الغربلا تقل بأية حال عن لقاءات وتحالفات الاحزاب الشيوعية) . المهم ان راية « التبعية » قد سقطت من الايدي الملوثة بالتبعية الحقيقية !

● ان استقلال اوروبا التدريجي ــ واجابة نعم البريطانية على دخول السوق الاوروبية المشتركة شاهد خطير ــ تدعمه الآن التجربة البرتغالية وفي القريب ايطاليا . وهو ليس استقلالا سياسيا او اقتصاديا

فحسب ، وانما هو استقلال اجتماعي يفاقم بعد حين الصراع الطبقي داخل وخارج اوروبا ، الامر الذي يضاعف عزلة الولايات المتحـدة في المستقبل او يغريها بفصم عرى الانفراج الدولـي واستعادة عصر الحرب البـاردة ، ان استطاعت .

● ان الدوائر الرجعية في الداخل والدوائر العدوانيـة في الخـارج سوف تضطر الى كشف قناع « الحرية » وتستمر في امـداد العصابات الفاشية بأسلحة الارهاب المعادية للديمقراطيـة . ان اعتراف المخابـرات الاميركية بدورها في شيلي هو أبشع واعلى « النماذج » صوتا ، ولكـن التواصل بين بعض الجهات وقوى الارهاب الفاشستي ـ في ايطاليـا او البرتغال ـ سوف تؤكد للجماهير العريضة ان اليمين فـي معركـة يائسة يتحول الـى غول فاشستي يذبح كافـة التقاليـد الديمقراطيـة ويشنق الليبرالية في أول شجرة ويسلم الحريات لاول شرطي في أول منعطف .

● ثبت يقينا في ظل التوازن النووي العالمي وفي ظل الانفراج الدولي انه يمكن للشعوب ـ وفي المقدمة منها التـي تستظل برايـة الحمايـة الاستعمارية ـ ان تمزق بأظافرها النسيج الاجتماعي لهذه الرايـة ، وان تبادر الى صياغة حاضرها السياسي والاقتصادي وفق الحاجات الملحـة والمفارقات الصارخة ومنجزات العصر في المادة والفكر .

هذا ما تقوله لنا البرتغال بصوت مسموع ، وما تقوله لنـا ايطاليـا بصوت يسمعه القليلون .

المحرر ١٩٧٥/٨/٣٠

حوار عربي - هندي في المطعم الصيني

في شارع صغير متفرع عن الشارع الرئيسي « مانرهايم » بهلسنكي ، وفي الطابق السادس من المبنى الذي يحمل رقم (٢٥) تتخذ السكرتارية المركزية لمجلس السلام العالمي شقة متواضعة لمكاتبها التي تنسق عملها مع مجموعة « المجالس القومية للسلام » المنتشرة في مختلف أرجاء العالم . وقبيل انعقاد الجلسة الاولى لمؤتمر الامن الاوروبي قرأ زعماء اوروبا والولايات المتحدة وكندا البيان الذي أصدره مجلس السلام العالمي وجاء فيه « ثلاثون عامامضت على اندحار الهتلرية والفاشية ، ثلاثون عاما مضت على توقيع معاهدة بوتسدام ، ان نتائج مؤتمر الامن والتعاون الاوروبي سوف تفتح فصلا جديدا في تاريخ هذه القارة .. ان سياسة التعايش السلمي بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة - التي تشكل مطلبا رئيسيا لحركة السلام العالمية منذ ولادتها - تتأكد الآن على أساس صلب.. وفي نقطة التحول التاريخية هذه التي تتمتع فيها الشعوب الاوروبية بالسلام على وجه العموم ، حيث تندمل معظم الجراح التي خلفتها الحرب العالمية الثانية ، فان مجلس السلام العالمي يتوجه الى كافة الشعوب ومنظماتها وممثليها من رجال الرأي العام في البرلمانات والحكومات الا يدخروا وسعا في منح الحياة لقرارات هلسنكي حتى تسري في شرايين السياسة اليومية ويتحقق المرجو منها » .

كان المسؤولون في « الشقة المتواضعة » بشارع لونروتنك الجانبي ، يشعرون ان المؤتمر الدولي المنعقد في العاصمة الفنلندية الهادئة ، هو - من احدى الزوايا - مؤتمرهم . لا لأن العديد من زعماء الحركات السياسية المناوئة للحرب في العالم اعضاء نشيطون في مجلس السلام العالمي ، وانما لان الهدف من المؤتمر هو جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية العامة لحركة

السلام العالمية ، وهي « الحركة » التي تحقق في صميم تكوينها معنى التعايش السلمي ، فهي تضم مختلف الاتجاهات العقائدية التي تسعى لان يحل « السلام » مكان الحرب في لغة الصراع البشري . لذلك تجد بين صفوفها رجال الدين جنبا الى جنب مع الشيوعيين مرورا بالاشتراكيين الديمقراطيين وغيرهم . تجد الاميركي الابيض والزنجي والافريقي والاسيوي ، المسيحي والمسلم واليهودي والبوذي والهندوكي وغيرهم . انها ـ باختصار ـ أمم متحدة ، ولكن على صعيد الشعوب لا على صعيد الحكومات . حتى حين يتصادف ان يكون أحد اعضائها في قمة السلطة السياسية بأحد الاقطار ، فانه حينئذ لا يمثل دولته بل يمثل الحركة الشعبية .

وقد احتار الكثيرون في مجلس السلام العالمي : اليمين المتطرف يقول انه « مصيدة شيوعية » ، واليسار المتطرف يقول انه « لجام الصراع الطبقي في العالم » . ولكن حركات التحرير في مختلف أنحاء الكرة الارضية ترى في المجلس « منبرا عالميا » موازيا للامم المتحدة ولا يتعارض معها ، بل يستكمل الغاية من وجودها بوسائل لا تتوفر لها .

كان اكثر المسؤولين في المقر المركزي لمجلس السلم « انهماكا » بمؤتمر الامن الاوروبي هو الامين العام روميش شاندرا : شاب هندي في اواسط العمر سريع الحركة بادي الحيوية والنشاط ، ينطق الانجليزية بلهجة كمبردج وان شابتها اللكنة الهندية . في نهاية المؤتمر الصحفي الذي عقده في اليوم الاخير من مؤتمر الامن الاوروبي ، انتحيت به جانبا وقلت له : لا بد لنا من جلسة طويلة . رحب مشيرا الى الاستاذ بهيج نصار سكرتير المجلس للشؤون العربية : انني ادعوكما الى الغداء ظهر الاثنين . وفي الموعد المحدد ذهبت اليه في مكتبه ، حيث اصطحبني ـ ضاحكا ـ الى مطعم صيني ، وهو يقول : بالرغم من الموقف السلبي للصين ازاء مؤتمر الامن الاوروبي الا ان هذا لا يمنعنا من اتخاذ موقف ايجابي من طعام ماوتسي تونج .

قاطعته وهو يشرح لي مزايا الاكل الصيني : ولكن ما هي المؤثرات الحقيقية لمؤتمر الامن والتعاون الاوروبي على قضايا البحر الابيض المتوسط والشرق الاوسط ؟ امسك بالشوكة الخشبية الطويلة ، وراح يحدق في اسنانها المدببة خصيصا لالتقاط الارز ، واخذ يتكلم : ان الاهمية القصوى لمؤتمر الامن الاوروبي انه ليس اوروبيا تماما . انه في الواقع مؤتمر دولي

ينهي ثلاثين عاما من التوتر الذي اعقب الحرب العالمية الثانية ، فالتوقيع على وثيقة المؤتمر هو توقيع نهائي على نتائج الحرب . واهم هذه النتائج الحدود القائمة الان في اوروبا ، ومن بين اكثر هذه الحدود اهمية الخطوط الفاصلة بين المانيا الغربية وجاراتها كالمانيا الشرقية وبولونيا . ان امن هذه الحدود لا يتوفر فحسب ، عسكريا . أي باحترام المعاهدات وعدم التدخل في الشؤون الداخلية وتخفيض التسليح المتبادل ، وانما يتوفر الامن بصورة أعمق ، اقتصاديا وثقافيا . ان التعاون الاقتصادي والتفاعل الثقافي بين المجموعة الاوروبية – شرقا وغربا – يمنع عمليات شبح الحرب من الظهور ، ولكنه لن يمنع الصراع السلمي في مختلف المجالات ، باستثناء صناعة آلات الدمار . لقد كان مشهد سيوز وابوللو منذ ايام عنوانا رائعا للعصر الجديد .. فالتعاون العلمي والاقتصادي والثقافي ، سوف يوفر للبشرية وقتا اقصر للتقدم وفرصا اثمن للقضاء على اعداء الانسان الحقيقيين كالفقر والمرض والجهل . غير ان هذا التعاون لا ينفي – كما قلت – حتمية الصراع . ذلك ان استبعاد الحرب وعدم التدخل في الشؤون الداخلية سوف يفسح المجال واسعا امام التطور المستقل للشعوب الاوروبية ، كما نلاحظ الان ما يجري في ايطاليا والبرتغال .

كان الطعام الصيني الغريب قد وصل ، فصمت روميش شاندرا للحظة اغتنمتها قائلا : ولكني أسألك عن مؤثرات ذلك كله على مجريات الامور في البحر الابيض والشرق الاوسط ، وبالذات على مشكلتي قبرص والصراع العربي – الاسرائيلي . ابتسم في هدوء الصابرين على المقاطعة ، واجاب : انني لم اخرج عن حدود سؤالك ، وانما وددت ان استخلص معك نتيجتين رئيسيتين : الاولى هي ان استتباب الامن الاوروبي ليس ظاهرة خاصة بالقارة الاوروبية ، وانما هو « منهج » البشرية كلها لامد يطول ، منهج تحل فيه المفاوضات مكان الطلقات . والنتيجة الثانية هي ان استتباب الامن الاوروبي لا ينفي الصراع على بقية الجبهات غير العسكرية حتى حين يتخذ هذا الصراع شكل التعاون . ثم ترك الملعقة الخشبية الطويلة فجأة والتفت نحوي قائلا : وفي تقديري الشخصي ان الحصيلة الختامية لنتائج المؤتمر في مصلحة التقدم . ذلك ان التطور الاجتماعي غير المهدد بالسلاح الخارجي يقود الاقتصاد والثقافة الى الامام ، الى مرحلة اكثر تقدما. ولكن استتباب الامن الاوروبي لا يعني مطلقا ان السلام قد عم العالم ، فثمة مناطق واسعة في العالم لا زالت عرضة لتهديد أمنها ، وفي مقدمتها منطقة الشرق الاوسط .

هنا ، لاحظ ترددي في الاقبال على الطعام ، فشجعني محذرا : كل ، والا فانت تخالف تعاليم الرئيس ماو . ضحكت ، فقال : ان البحر الابيض يضم على شواطئه دولا من اوروبا والشرق الاوسط ، واذن فلا سبيل الى تجزئة الامن . ان استقلال قبرص وحيادها في اطار وحدة شعبها ، هو الحل الوحيد لازمة الجزيرة . أما الخلاف التركي اليوناني — والدولتان عضوان في حلف الاطلنطي ! — فانه خلاف يستهين بالسلام العالمي ممثلا في قرارات الامم المتحدة ، على حساب أمن الجزيرة واستقلالها . كذلك فان الموقف المزدوج للولايات المتحدة يعيق الوصول الى الحل الصحيح . ان لتركيا واليونان مصالح اكيدة في الجزيرة ، وللولايات المتحدة وبريطانيا كذلك . ولكن مصلحة اهل الجزيرة — من القبارصة اليونانيين والاتراك على السواء — هي التي ينبغي ان ترتفع على بقية المصالح . والا فان المعادلة في هذا الجزء الصغير الحساس من العالم سوف تختل . ولن يربح احد من المتنازعين على الجزيرة من هذا الخلل . ولكن مأساة الشعب القبرصي ستكون اكبر الخسائر . ومنذ الان ، هناك آلاف الضحايا من القتلى والجرحى واللاجئين . انهم لاجئون في وطنهم . هل تتصور ذلك ؟

قلت : نعم اتصور ، فأنا احد ابناء الشرق الاوسط ! التقط الجواب ليستأنف : ان ازمة الشرق الاوسط اكثر تعقيدا ، لان اسرائيل لا تقيم وزنا لقرارات الامم المتحدة ، ولان الحرب بدت في احيان كثيرة وكأنها الطريق الوحيد لاقرار السلام ، وبالرغم من الوضوح الساطع للحق العربي فان الضباب الكثيف يلف القرار العربي بكثير من الغموض والتشتت والحيرة ، فأميركا تدعم اسرائيل بالسلاح والاقتصاد ومع ذلك فهي تلعب دور الوسيط بين الطرفين . ماذا يعني ذلك ؟ قلت : بل ماذا فعل مجلس السلام العالمي ؟

ترك الطعام هنيهة ليقول : ان ميدان عملنا هو الراي العام العالمي ، فنحن بلا سلطة على الحكومات . وقد ايدنا دائما ما وافق عليه العرب وفي المقدمة قرارات الامم المتحدة ، واستطيع ان اقدم لك — في هذا الصدد — كشف الحساب التالي عما صنعناه عام ١٩٧٥ فقط :

● شكلنا « لجنة تحقيق » في انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان بالاراضي المحتلة . وقامت اللجنة بأعمالها في هلسنكي . واشترك من الشهود ثلاثة من الفلسطينيين وثلاثة من الاسرائيليين بينهم المحامية

المعروفة فيليتسيا لانجر وممثل لعصبة حقوق المواطن في اسرائيل فلسطيني مقيم بالارض المحتلة هو حنا نقاره .

اما اللجنة ذاتها فضمت ممثلا للحزب الاشتراكي الفنلندي الحاكم ــ وهو عضو بالبرلمان ــ وممثل للحزب الديمقراطي المسيحي في ايطاليا ــ وهو ايضا عضو البرلمان ــ وممثل عن حزب المؤتمر الهندي ، وهو كذلك عضو في البرلمان . كما ضمت صحفيا فرنسيا ، وقاضيا سوفياتيا هو رئيس المحكمة العليا في موسكو . واضاف وهو يخلع نظارته : وروميش شاندرا .

وقد اصدرت اللجنة تقريرها في بيان مدعوم بالوقائع والتواريخ والوثائق ، وكلها تشير بوضوح الى ان اسرائيل قد انتهكت الحدود الدنيا لحقوق الانسان ، وتحت الطبع الان كتاب يشتمل على النص الحرفي لما جرى في المحاكمة . ان الكتاب والبيان وسواهما ننشره بمختلف اللغات ونقوم بتوزيعه المكثف على مختلف مؤسسات « الضمير » الانساني والرأي العام العالمي . اننا لسنا منظمة فلسطينية بالطبع ، ولكن السؤال الفلسطيني هو ــ او ينبغي ان يكون ــ سؤال الضمير البشري المعاصر .

● وفي العام ذاته ــ ١٩٧٥ ــ عقدنا مؤتمرا دوليا ضم الى جانب مجلس السلام العالمي عشرين منظمة عالمية من ٣٥ دولة (غالبيتها اتحادات العمال والطلاب والمثقفين والشباب والنساء في اوروبا) . كان ذلك في باريس تحت شعار « من اجل السلم والعدل في الشرق الاوسط » .

وقد أصدر المؤتمر بيانا هاما يدعم الحق العربي دون لبس او غموض، ولكن الاهم انه شكل لجنة تجتمع في نوفمبر القادم في فيينا لتنفيذ قرارات المؤتمر الدولي بمختلف الاشكال العملية الممكنة .

● وفي منتصف ديسمبر القادم نعقد ندوة عالمية في دمشق حول « العدوان واثره في قضايا التنمية » . وسيكون العدوان الصهيوني على البلدان العربية من بين أهم بنود جدول الاعمال ، كنموذج واقعي . وسوف يتطرق البحث بالضرورة الى اساليب التحدي في مواجهة الامبريالية والتبعية الاستعمارية على صعيد الاقتصاد والتخطيط والتنمية .

وتنهد شاندرا ــ الامين العام لمجلس السلام العالمي ــ وهو ينتهي من الطعام الصيني الذي تناوله بشغف واضح قائلا : وفي وقت قريب جدا

سنكون عندكم في بيروت لنقلد المناضل ياسر عرفات ميداليـــة جوليوكوري (التي فاز بها الرئيس مكاريوس والرئيس كوكونين) ، باعتبـــار ان نضال الشعب الفلسطيني عامل حاسم في توفير السلام للشرق الاوسط .

★ ★ ★

بعد انتهاء المؤتمر مباشرة توجه الى ستوكهولم بعض زعماء الاحـزاب الاشتراكية في اوروبا الغربيـــة ، لمناقشة الوضع في البرتغال . وكـــان الرئيس الاميركي فورد قد اشار الـــى انـــه يأسف لان الولايات المتحدة لا تستطيع ان تفعـل شيئـا للبرتغال ، ملمحا الـى ملف المخابرات المركزية الذي يثير في الوقت الحاضر ضجيجا كبيرا داخل الولايات المتحدة ، قائـلا ان دول اوروبا الغربية تستطيع ان تصنع شيئا « انهـــا في وضع تتمكـن خلاله من الفعل » . هكذا توجـه هارولـد ولسن وكرايسكـي والدورادو وغيرهم الى عاصمة السويد لاتخاذ « الموقف اللازم » ازاء البرتغال . قلت لروميش شاندرا : الا تعتقد ان هذا الاجتماع هـــو اول خـرق لمقررات هلسنكي من جانب الغرب ؟ اليس هذا تدخلا في شؤون البرتغال الداخلية ؟

اجاب : قلت لك ان الصراع لن ينتهي ، ان الوضع في كل من ايطاليا والبرتغال ينذر بتحول شامل في اوروبا الغربية . ولا يمكن التسليم بذلـك في سهولة من جانب قوى الماضي واصوات الموت . لعلـــك لاحظت الصراع داخل المؤتمر ذاته . من الواضح ان مجرد انعقاد المؤتمر هو كسب لا شك فيه لقوى السلام والتقدم . ومـــن الواضح ايضا ان « بعضهـم » يسلم بالهزيمة على طريقته ، كانت بعض خطبهم كاخر طلقة مـــن مدفع مستسلم (يقصد دون ان يحدد ، خطاب رئيس الوزراء البريطاني ولسن) . وليس صحيحا ما يقوله الرئيس الاميركي من ان الولايات المتحدة لا تجـــد شيئا تفعله في البرتغال . انها في جزر الآزور تفتعـــل صيحات الاستقلال عـن البرتغال . هل تتصور هذا ؟ انه أمر جديد تماما ، فهـــي تلعب في ظـــل ظروفها الخاصة لعبة مختلفة عما جرى في شيلي . ان استقلال الجزر عـن البرتغال ضد المنطق والتاريخ والطبيعة ، ولكن اميركا تفتح بابا لا يتوقـــع احد على الاطلاق ان تنفذ منه . اما الاحزاب الاشتراكية في اوروبا الغربية ــ خاصة تلك التي تحكم في بلادها ــ فانها تتباكى على الحرية في البرتغال ، دون ان يسمع صوتها احد حين كان سالزار يحكم البـلاد بالحديد والنار لخمسين عاما . انه « النفاق الغربي » . وهم في اجتماع ستوكهولم سوف

يحرمون البرتغال من المعونات الاقتصادية ، في الوقت الـــذي تخلت فيـه حكومة الثورة عن المستعمرات ، وهم ينفقون ببـــذخ عـــلى دعاية الحزب الاشتراكي البرتغالي ضد حركة القوات المسلحة ، خارج البرتغال . ان من يتابع « اهتمام » وكالات الانباء الغربية والصحف الاوروبية والاميركيـة بما يحدث في البرتغال ، يصاب بالذهول . لقد اصابهم الجنون ، بالرغم مـــن الحرص البالغ للضباط البرتغاليين على الديمقراطية مـــن اليـوم الاول . وكان باستطاعتهم ــ كعسكر ــ ان يضربوا بعنف . ولكنهم آثـــروا الحرية السياسية ، جنبا الى جنب مع العدل الاجتماعي . هذا «العدل الاجتماعي» هو الذي يؤرق الاشتراكيين الغربيين ، فتأمل ! انهم بالطبع ، لـــن يتركوا اثرا لبصماتهم داخل البرتغال ، ولكن الحصار الاقتصادي والحملة الاعلامية الضارية المركزة ، يذكرنا بموقف اميركا اللاتينية من كوبا .

والتقط الامين العام لمجلس السلام العالمي انفاسه ، ليستطرد قائلا : لقد عقد فورد اجتماعا في السفارة الاميركية مع « الاربعـة الكبار » رؤساء انجلترا وفرنسا وايطاليا والمانيا الغربية . وكانت « البرتغال » هي الموضوع الرئيسي . لماذا ؟ لا تنسى مرة اخرى جزر الآزور التـي تتخذها الولايات المتحدة قاعدة لها . وهذا مـــا يجب ان يعنيكم مباشرة انتم العرب ، فقد اعلنت الحكومة الثورية في البرتغال انها لن تسمح بأن تتخـذ جزرها قاعدة لانطلاق اميركي الى الشرق الاوسط . ان ما يحدث في البرتغال لا ينبغي ان يبتعد في ذاكرتكم ومخيلتكم عما يجري فوق اراضيكم . لا لان الحكم الجديد يواجه الاعداء انفسهم الذين يحرمونكم من السلام العادل فقط ، وانما لان هذا الحكم يرفض ان يكون جسرا لقوى العدوان الى بلادكم .

وخلع روميش شاندرا نظارته مرة اخرى ليحملق في عيني قائلا بصوت هامس : حين وصل الرئيس البرتغالي الى هلسنكي بعـــد منتصف ليلـة امس ، اوفد الى مكتبي احد اعضاء مجلس الثورة . وقـد دار بيننا حوار طويل ، استوقفني منه ما يهمك ، ما يهم كل عربي . لقـــد قال لـي هـذا الضابط ــ وهو كابتن في البحرية ــ انهـــم لا يدرون كيف يقيمون اتصالا وثيقا مع العالم العربي . لقد اعلنوا من الايـــام الاولـى لثورتهم انهم لن يسمحوا للولايات المتحدة باستخدام أراضيهم كنقطة وثوب ضد العرب ، لن يمنحوها اية تسهيلات جوية او بحرية . ولا احد ــ يقول الكابتن ــ يريـد « كلمة شكر » ، ولكننا نريد « التعارف » ثم « التعاون » . اننا تخلينا عن المستعمرات الافريقية لا بدافع اخلاقي ، وانما لان حركتنا ضد الاستعمار . والعرب ايضا ضد الاستعمار ، فما هو السبيل لاقامـــة جسور للتفاهـم

بيننا ؟ وكان الجواب هو ايفاد وفد برتغالي من المجلس القومي للسلام الى البلدان العربية . لهذا جاءوا الى مجلس السلام العالمي في هلسنكي يطلبون المشورة والتنسيق والحوار . هناك « برتغال » جديدة ، من المفيد للعرب ان يتعرفوا عليها .

لم اقل لشاندرا — الذي قد يتهدج صوته بانفعال مكتوم احيانا — ان وزيرا عربيا للخارجية علق حزينا على احداث ايطاليا والبرتغال « ما هذا الذي يجري في أوروبا ؟ هل هي لعنة الفراعنة التي تلاحقنا ، فحين نتجه الى الغرب يهرب الغرب من الغرب ؟! » . لم اقل لشاندرا هذه الكلمات ، ولكنه هو الذي قال لي : هل تعلم ما هي النقطة الثانية في جدول اعمال مؤتمر ستوكهولم ؟ النقطة الاولى هي البرتغال ، والنقطة الثانية هي الحيلولة دون طرد اسرائيل من الامم المتحدة !!

★ ★ ★

كان رواد المطعم الصيني الجميل قد تناولوا طعامهم ومضوا ، وفجأة شعرنا اننا وحيدون في المكان . قلت لامين عام مجلس السلام العالمي : ما هي اوجه الشبه واوجه الخلاف بينكم وبين الامم المتحدة ؟ قال ونحن نغادر في خطى بطيئة : نظريا ، قرارات الامم المتحدة ملزمة لاعضائها ، اما نحن فقراراتنا قوة معنوية ملزمة للراي العام العالمي . الفرق الجوهري ان الامم المتحدة تجمع رسمي للحكومات ، اما نحن فبرلمان دولي للشعوب . لا تعارض في الاهداف ، ولكن الوسائل مختلفة . اننا في اغلب الاحيان ندعم قرارات الامم المتحدة وننادي بتطبيقها ، واحيانا نقف مع احدى حركات التحرير ضد دولة عضو في الامم المتحدة . واجبنا هو تنوير الرأي العام العالمي بمختلف القضايا والمشكلات والمخاطر التي تهدد سلام العالم ، رسالتنا هي تعبئة هذا الراي العام بمختلف الوسائل الاعلامية ليشكل ضغطه السياسي ثقلا في توجيه دفة الامور ، غايتنا توحيد الجهد البشري من أجل التقدم . لذلك فان « ثورة ظفار » التي كاد ينساها بعض العرب في مقدمة جدول اعمالنا . وبين ٨ و ١١ سبتمبر القادم سوف نعقد مؤتمرا في « بيرو » حول المشكلة الافريقية ، وفي نوفمبر سوف نجتمع في لننغراد . ان نجاح مؤتمر الامن الاوروبي هو نجاح لمجلس السلام العالمي ، بشرط ان نفهم — ويفهم الجميع — ان الامن لا يتجزأ . ثم صافحني مودعا يقول : والى اللقاء قريبا — اقرب مما تتصور — في بيروت .

المحرر ١٩٧٥/٨/٩

يوم طويل في حياة قصيرة

في هذا الفصل من فصول السنة ينحسر ظلام الليل في هلسنكي حتى انه لا يتجاوز اربع ساعات ، بينما يمتد ضوء النهار عشرين ساعة كاملة . ومن اجمل أعياد فنلندا — كما قيل لي — يوم لا تغرب عنه الشمس دقيقة واحدة ، فيصبح النهار أربعا وعشرين ساعة متصلة . وبالرغم من ان سماء الشمال المحاذي للقطب على استعداد دائم للمطر ، صيفا وشتاء ، فان أيام هلسنكي — اثناء انعقاد مؤتمر الامن الاوروبي — تميزت بدفء ربيعي أخاذ ، خاصة وان « مدينة الزهور » قد اشتملت على الحدائق الطويلة الواسعة التي تؤمها مختلف الطبقات والاعمار والاجناس ، فبالاضافة الى السياح القادمين من مختلف ارجاء الدنيا لمشاهدة « جزر السعادة » ، يفد الى عاصمة فنلندا بحرا شباب الدول المجاورة وفي مقدمتها السويد . في الحدائق يقيمون حفلات اليوم الطويل ، فيشربون ويغنون ويرقصون ويمارسون الحب ، يهمسون ويصرخون يمشون ويجلسون وينامون بلا محرمات سوى « الكلام في السياسة » . انك تضيع وقتهم (!!) لو انك اثرت معهم قضية سياسية ، فالحياة اقصر من أن نمضيها في « خلافات بلهاء » كما قالوا لي ، بل علينا ان « نحياها » بكل نبضة قلب في كل ارتجافة خلق ، في الفن والطبيعة والحب . اما « السياسة » فهي « شيء ممل ومبتذل » كما قال لي بعضهم الآخر .

على غير هذا النحو كانت « الحياة » في ابهاء فنلانديا هاوس حيث قاعة مؤتمر الامن الاوروبي الرئيسية ، وفندق مارسكي حيث كان التجمع المركزي للصحفيين الوافدين من مختلف انحاء العالم . لم يكن في استطاعة المدينة الصغيرة ان تستوعب هذا العدد الضخم (١٦٠٠) من المراسلين الاجانب في فندق واحد او فندقين او ثلاثة . لذلك فقد اهتدت السلطات

الفنلندية الى باخرة كبيرة راسية في الميناء لايام قليلة وحولتها الى فندق كبير يتسع لاكثر من خمسماية « راكب » او « نزيل » فقد كانت غرف السفينة « المتار » اشبه بالزنازين الفاخرة المكيفة الهواء . كان نصيبي اذن في هذا الفندق العائم القريب من القصر الجمهوري . وفيه التقيت بزملاء المهنة الذين يتحدثون في كل شيء ـ كشباب حدائق هلسنكي ـ ولكن دون ان تتوارى « السياسة » لحظة واحدة ، سواء كان الحديث في الجنس او الازياء او الغلاء المروع في فنلندا (اغلى من بيروت وباريس ولندن ونيويورك كما شهد بذلك اللبناني والفرنسي والانجليزي والاميركي) .

ومن بين مئات الصحفيين ، لفت نظري رجل في منتصف العمر ، لا يكف عن « المشاغبة » مع اي انسان يصادفه من زملائه او من عمال المركب وخادمات المطعم وساقيات البار ورجال الامن . ومشاغباته لا تصل مطلقا الى حد الغضب ، لانه سريع النكتة حاضر البديهة شديد الذكاء خفيف الحركة . سألني فجأة عن اسمي واصلي وفصلي ، وكنت اؤثر « التفرج » عليه اكثر من التعارف . قال لي ان اسمه « الكس دروزدينسكي » وانه يعمل لحسابه ويكتب في سبع مجلات وصحف واذاعات بألمانيا الغربية التي يعيش فيها رغم انه بولوني المولد ، ويهودي . سأله احد الاصدقاء العرب : لماذا انت يهودي ، فكشف عن ذراعه بدراماتيكية باهرة وقال : لهذا السبب . كان وشما ازرق يوضح اسمه ومولده وتاريخ اعتقاله واسم معسكر التعذيب الذي دخله اثناء الحرب العالمية الثانية .

ولكن ليس هذا « كل » الكس . انه للوهلة الاولى يبدو نموذجا لليهودي التائه ، فهو « كوزمبوبوليتي » الانتماء والحرفة ، يجيد عدة لغات وعدة لهجات لهذه اللغات ، لا يرتبط بعمل صحفي ثابت ، ويعرف الكثير الكثير عن زعماء العالم ، ويرتبط مع بعضهم بعلاقة شخصية حميمة . ليس هذا ايضا كل الكس دروزدنسكي . انه حين يتكلم مع الفتيات يروي لهن نكات جنسية ، وحين يتكلم مع الرجال يروي لهم نكات سياسية . وكان هذا اول الخيط الذي امسكت به لمعرفة هويته الحقيقية . ان هذه النكات تسخر اساسا من الاتحاد السوفياتي ، وعموما من الدول الاشتراكية . وهي ليست نكتة او نكتتين او عشرة او مائة . انه قادر ـ ببراعة فائقة ـ على رواية الف نكتةفي ساعة واحدة ، ولا تفرغ جعبته . وهو لا يقول النكتة ، انما يمثلها ، بالوجه واليدين والعينين واحيانا

بالقعود والوقوف والسير والنوم . قلت له : ارو لي نكتـــة اميركيـــة او انجليزية او فرنسية ، فقال لي بل سأروي لك نكتة مصرية واذا بها هـي الاخرى ضد السوفيات . قلت له : ارو لي نكتة ضـد فـورد او ولسن او ديستان . قال لي : في جعبتي الكثير ولكنها نكات جنسية ، فليست هنـاك نكات سياسية في ظل الديمقراطية !

سألته : ما رايك في أزمة الشرق الاوسط ؟ اجاب : لست متخصصا الا في شؤون اوروبا وكتابة القصة . انني أكتب ثلاث قصص في اليوم !!

وكان يفتح حقيبة يده حين سقط منها كتاب أنيق لامع مغلف بطريقة ساحرة . ولكن عنوان الكتاب كان بالالمانية . التقطه صديقي عبـد الملك خليل ــ مراسل الاهرام المصرية في موسكو ــ وترجمه لي الى الانجليزيـة امام مؤلفه ــ الكس ــ واذا به « النكتة السياسية في الكتلـة الشرقية » . قلت له : ما هذا الكتاب ؟ قال : لقد جمعت فيه النكات السياسية التـي يتداولها الناس سـرا في الاتحـاد السوفياتـي وبولونيـا وهنغاريـا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من بلدان اوروبا الشرقيـة والصين وكوريـا والبانيا . سألته : اكان لديك الوقت لتجمعها من كل هـذه « الدنيـا » ؟ ضحك ولم يجب ، ولكنه استأنف مرتبكا ــ للمرة الاولى ــ انه أتفق مـع ناشر بريطاني على ترجمة الكتاب الى الانجليزية لتوزيعـه عـلى السيـاح الروس والبلغار واليوغسلاف وغيرهم ممن يزورون اوروبا او اي مكـان آخر ينطق أهله بالانجليزية . اتسعت عيناي في ذهول وانا أقول لـه : اذا كان هؤلاء السياح من بين الذين يتداولون النكات التي يضمها كتابك فمـا حاجتهم لقراءتها من جديد ، وفي لغـة ليست لغتهـم ؟ انتفض غاضبـا ــ للمرة الاولى أيضا ــ وهو يصرخ : انا لست مؤلف هذه النكات كما قـد تتصور . أمسكته من ذراعه المختوم باللون الحائر بين الخضرة والزرقـة ، وانا اقول له : اهدأ ، فأنت رجل مهذار يستهويك الشغب فلماذا تغضب ؟ بالطبع لست وحدك مؤلف هذه النكات ! كتم غضبه بسرعة فائقة ليضحك في عصبية واضحة مستطردا : اي ان هذا الكتاب في رأيك من تأليف شركـة لتصدير النكت الى اوروبا الشرقية . ضحكت بدوري معلقا : أنت قلت . اما انا فالحق أقول لك انها ليست « شركة » تماما .

انضم الينا في هذه اللحظة مراسل ايراني قدم لنا نفسه على انه يمثل « راديو اوروبا الحرة » . صافحه الكس بحرارة بالغة ، فوقفت استأذنهما ،

ولكنه حاول ان يمسك بي قائلا : الا تريد ان تسمع رأيي في أزمة الشرق الاوسط ؟ قلت : الم تقل لي انك لست متخصصا ؟ علق : ولكني يهودي . قلت : ليتك كنت يهوديا فقط ! وكنت قد وصلت الى نهاية الردهة ، حين سمعته يقول للمراسل الايراني : انه فلسطيني من جبهة الرفض ، جاء متنكر بجواز سفر مصري ممثلا لصحيفة لبنانية .

★ ★ ★

وهربت من الجو « السياسي » الخانق في الفندق العائم ، وهرولت الى حديقة الحدائق في هلسنكي . كان الوقت عصرا ، ومعظم الشباب نائم ، والقلة القليلة من السويديين والالمان والفنلنديين ، تناثروا في دوائر ضيقة يتلمظون الآيس كريم .

كانت الاحاديث في الاغلب بالالمانية . ولكني بعد لحظات اقتربت من مجموعة وقفت وسطها فتاة وكأنها تخطب بالانجليزية . اقتربت أكثر فأدركت انها تلقي قصيدة . انضممت الى الدائرة واستمعت الى « الشاعرة الصغيرة » تقول :

لست أريد الارض او السماء
خذوني الى الجحيم
الى كوابيس الارض العمياء
هناك لست أحلم
بل احيا الحقيقة اليتيمة
حقيقة اليوم الطويل
في حياتنا القصيرة

تهدجت الفتاة وانبثقت من عينيها دموع حقيقية وارتعشت قليلا ، ثم جلست فجأة كأنها سقطت من أعلى . لم يربت على كتفيها أحد ، لم يتفوه احدهم بكلمة . ولكني لاحظت ان احدى عينيها تراخت وان العين الاخرى تنظر الى شيء غير موجود ، شيء مبهم ، شيء ربما كان بداخلها . ارتفقت بأحد ساعديها على الارض وتحول بكاؤها الى نشيج مكتوم . سألتها حذرا : هل انت اميركية ؟ قالت : نعم ، لماذا ؟ قلت : هل قرات رواية الكاتب البريطاني البرت مالتز « يوم طويل في حياة قصيرة » ؟ أجابت « لم أسمع

عنه ولم اسمع عنها » . قلت « ما هو عنوان قصيدتك ؟ » قالت « هــل تسميها قصيدة حقا ؟ انها صلاة الجحيم » ثم انتصبت في جلستها وكأنهـا تذكرت شيئا « هل هناك وجه للشبه بين يومي الطويــل ويــوم الكاتـب البريطاني ؟ » أجبت « كلا ، عنوان روايته فحسب كان احدى الجمل فـي قصيدتك . اما هو فكاتب ثوري . . » قاطعتني « وانا ؟ انا من اكون ؟ قـل لي . عدمية ، فوضوية ، وجودية ، اليس كذلك ؟ » . قلت « أنا لم أقـل شيئا من هذا كله . انني اريد ان اعرف . لماذا بكيت مثلا قرب انتهـــاء القصيدة . انت لا تمثلين . ولكن لماذا ؟ » . كفت تماما عن الانفعال ، وقبل ان تجيب سألتني عن أسمي ووطني وعملي والهدف من زيارة فنلنـــدا . وحين ذكرت « مؤتمر الأمن الاوروبي » ضحكت بصوت عال ساخرة تصيح : انه لا يعنيني مطلقا ، ولا يعني أحداً ـ ثق من كلماتي ـ بين هؤلاء الجالسين امامك . أنتم ، معشر السياسيين ، انتم الخياليون . اما نحن نحن الذيـن نشرب وندخن ونمارس الحب ، نحن الواقعيون . أتدري لماذا ؟ لانكم تبنون احلامكم على اساس « الحياة » ، اما نحن فنشيدها على اساس « الموت » وهو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم . اننا لسنا ملحدين كما قد تظـــن ، ولكننا لسنا مؤمنين . لغز الوجود سيبقى لغزا الــى الابـد ، ولسنا عـلى استعداد لاضفاء اسم « الله » عليه أو « المادية التاريخية » . ونحن لسنا فوضويين كما قد تظن ، فاننا ندرس ونعمل في مؤسساتكم وبشروطكم ، اننا نعبدكم بمعنى ما ، ولكننا حين ندرك ان قصوركم في الهــواء نسخر منكـم ومن انفسنا بالطريقة التي تراها . اننا لسنا عدميين كما قد تظن ، بل اننا نحيا « يومنا الطويل » بكل ذرات دمنا وخلايا اعصابنا ، نحياه اعمق منكم لانه يومنا الوحيد في حياة بالغة القصر .

ثم نظرت الي بعينيها واحدى يديها مضمومـــة سوى اصبــع تشير كالخنجر : واياك أن تخطىء وتتصور انها حالات فردية كمـا قـــد يتراءى لتحليلاتكم السخيفة القاصرة . ان هذه الحديقة تضم أشتاتا من الشباب ، من هنا وهناك ، وقد ترى بعضنا غدا في الكنيسة وبعضا آخر وراء الطاولة يكدح الذهن أو وراء الماكينة يكدح بالعضلات . اننا « لحظة صادقة » فـي عمر كل منا ، وهذه الحديقة التي قد تراها ايضا في كاليفورنيا او لندن او باريس ، هي شريان « الدماء النقية » التي تجري في عروقنا . اما بقيـــة اللحظات التي نقضيها في قاعة الدرس او في المكتب او في الورشة او فـــي البيت ، فانها شرايين الدماء القذرة ، شرايينكم التي تبتلعنا معظم الوقـت وتمتص جزءاً ثمينا من يومنا اليتيم .

سألتها بلطف : لماذا تخاطبيني كما لو كنت « الطرف الآخر » ؟ اجابت « لانك مهتم بما يدور في هذا المؤتمر الذي يجمع أوغاد العالم ، ولان عمرك تجاوز الخامسة والعشرين . انك عضو عامل في مؤسسة العالم القديم . هل يحتاج السلام والامن والتعاون بين الشعوب الى مؤتمرات وزعماء ووفود ومواثيق ؟ ان هذه المؤتمرات هي مقدمات الحروب التي تشنونها علينا . ماذا كسبت اميركا من فييتنام ؟ ماذا كسبت بريطانيا من بلادك ؟ ماذا كسبت فرنسا من الجزائر ؟ ماذا كسبت البرتغال من انغولا ؟ ماذا كسبت اسرائيل من الاراضي العربية التي احتلتها ؟ » .

لم أتمالك نفسي من مقاطعتها والانبهار والدهشة والذهول يدق صدري بعنف . قلت « هل ذكرت اسرائيل ؟ » قالت « نعم ، وماذا في ذلك ؟ » كررت السؤال « هل انت اميركية ؟ » . قالت « انني اميركية مرتين ، فأنا من اصل مزدوج ، تجري في عروقي الدماء الهندية والدماء الجديدة » قلت « وهل تكرهين السياسة حقا ؟ » . قالت « الى أقصى الحدود ، فقد مات جدي في الحرب الاهلية التي تسمع عنها لا شك في الكتب ، ومات ابي في الحرب العالمية الثانية ، ومات اخي في فيتنام . كيف لا اكره السياسة ؟ » . قاطعتها « ولكنك اخيرا تكلمت في السياسة ، بل اتخذت موقفا استغربه من اميركية » . قالت « ان مشكلة البعض منكم انكم تعتبرون الجنسية ايديولوجية ، فالانسان الاميركي مثلا استعماري والروسي شيوعي والانجليزي محافظ والفرنسي ليبرالي ، وهكذا . انكم أحيانا تخلطون بين السلطة والفرد . انا اميركية ولست بالقطع شيوعية ، ولكني لست ضد الاتحاد السوفياتي او بولونيا . انني أيضا ارى لاسرائيل حق الوجود ولكني لا أرى لها حقا في الاستعمار . وهكذا . انني لست في حزب من الاحزاب ولن اكون . انني لست مع احد . انني مع نفسي . وما قلته لك — وما أقوله بالشرب والتدخين والرقص والشعر والغناء وممارسة الحب — هو تعبير عن نفسي » . قلت لها : لقد بدأت الحديث بأنك لا تختلفين عن ملايين الشباب ، فهل هؤلاء الذين في الحديقة — مثلا — يشاركونك الآراء السياسية ، وهل من هم في مثل سنك بالولايات المتحدة يرون ما تريه ؟ » . قالت : اولا هذه ليست آراء سياسية فأنا كما قلت لك لا أتعاطى السياسة مطلقا . انها تعبيرات مختلفة عن حياتي الشخصية ، عن وجودي ، سمها آراء وجودية اذا شئت . انها — حتى — ليست اراء

بل هي الشهيق والزفير لانفاسي المحترقة .

★ ★ ★

لم اشعر بالغربة مع « ايفلين » ولكني لم اشعر بالقرب الحميم ، كنا جيلين من زمانين ومكانين ، قد « أفهمها » ، ولكني لا استطيع تقمصها .

وكنت قد تعرفت على صديق من أعضاء « المؤسسة » التي حاكمتها ايفلين ، هو المستر جيمس لاموند عضو مجلس العموم البريطاني ، وهو أيضا عضو حزب العمال الحاكم ، وعضو المجلس القومي للسلام في بريطانيا . انه اذن نموذج للطرف الآخر في صراع الاجيال الذي اشارت اليه الفتاة الاميركية . كنت قد رايته في أحد المؤتمرات الصحفية فاستهواني نموذجه الكلاسيكي ، وطلبت منه موعدا حسب قواعد اللياقة والبروتوكول .

ذهبت اليه وفي رأسي الا اسأله عن مؤتمر الامن الاوروبي ، ولكني تذكرت خطاب هارولد ولسون في اليوم الاول من ايام المؤتمر ، فرأيت انه يصلح كمدخل الى الحديث . كان خطاب رئيس الوزراء البريطاني كمن يشق عليه كثيرا نجاح المؤتمر الذي يضم الشرق والغرب فشن حملة سافرة على ما اسماه بالقيود التي تحول دون تحقيق انسانية الانسان في اوروبا ، كالزواج والسياحة والثقافة . وقد كان ولسن جذابا وبارعا وممثلا في القاء الخطاب ، حاول أن يضرب عصفورين بحجر واحد ، ان يناور الشرق الاشتراكي وان يكسب الى جانبه الراي العام الغربي . قلت للمستر لاموند : ما رأيك ؟ فقال : لا شك انني اختلف قليلا مع رئيس الوزراء — وهو رئيس الحزب — ولكني معجب بالخطاب في عمومه . انه خطاب مدروس بعناية . قلت له : اذن ، فلننتقل الى ازمة الشرق الاوسط ، فأجاب وهو يمسك بالقلم ويدق به على الورق كأي محاضر جامعي عريق : اكتب . أولا ، هناك أصدقاء كثيرون لاسرائيل في البرلمان البريطاني ، وانني اعد نفسي شخصيا أحد هؤلاء ، فأنا مهتم بالحفاظ على دولة اسرائيل . كما انني معجب بانجازاتها . ثانيا ، اعتقد ان تنفيذ قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ هو الحل الوحيد للصراع العربي — الاسرائيلي ، واضيف هنا انه لا بد من انسحاب اسرائيل الى حدود الرابع من حزيران ١٩٦٧ مع تعديلات طفيفة تقتضيها ظروف الأمن التي تفتقد الثقة بين الطرفين ، كما أنه لا مانع

من تأسيس كيان قومي مستقل للشعب الفلسطيني . ثالثا : كنت في موسكو عام ١٩٧٣ وقابلت مستر بريجنيف الامين العام للحزب الشيوعي السوفياتي ، فقال لي ان الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة لن يسمحا بمواجهة عسكرية بينهما او حرب عالمية جديدة بسبب بؤر الالتهاب الساخنة في العالم ، بما فيها منطقة الشرق الاوسط . ولكن هذا لا يعني مطلقا - يضيف بريجنيف - ان ندع الامور تتفاقم ، بل لا بد من التدخل لدى الطرفين لوقف التصعيد ومنع الانفجار . وهذا لن يكون الا بانسحاب اسرائيل وضمان حدودها والجواب العادل على السؤال الفلسطيني بتقرير الحق الوطني للفلسطينيين في مصيرهم المستقل . رابعا : ان المشكلة في المستقبل ستكون نفسية ، فأنت لا تستطيع ازالة تراث هائل من الرعب المتبادل بين العرب والاسرائيليين في وقت قصير ، ولكن هذا الوقت آت لا ريب في ذلك . ان الانجليز في بريطانيا لا يكرهون الروس ، ولكنهم لا يميلون للالمان ، لان آثار الحرب العالمية الثانية لا زالت راسخة في اعماقهم ، اما الروس فلم يفعلوا لنا شيئا ، كانوا حلفاءنا في الحرب ، ونحن نحترم بطولاتهم .

وتوقف مستر جيمس لاموند - عضو مجلس العموم البريطاني - عن الكلام كأي محاضر عريق . وفي اللحظة التي كدت أطرح فيها عليه سؤالا ، كان احد سكرتيريه قد جاء يذكره بموعد . وحسب قواعد اللباقة والبروتوكول شكرته وانصرفت .

★★★

ما أبعد المسافة حقا بين ايفلين ولاموند ، في التفكير واسلوب الحياة على السواء ؟

ها انذا اجري في سيارة صديقي الى ضاحية بعيدة عن هلسنكي ابحث عن الجواب ، فارى شبابا صغار السن يشربون ويشربون حتى يغيبون عن الوعي ، يسألونك عن الفودكا أو النبيذ وبعضهم لا يدري شيئا عن المؤتمر المعقود في عاصمة بلادهم . والكبار يتطوحون ويسألونك « ماركا » واحدا حتى يتيسر لهم الشرب من جديد . الجميع يشربون والخمرة واحدة ، وتتعدد الاسباب .

.. واتجول في رحلة بحرية حول الجزر الآسرة الجمال ، فأعرف ان ان بعض مليونيرات اوروبا واميركا قد اشتروا بعضها حتى اصبحت منطقة

محرمة على « الغرباء » من أهل الوطن . الكنائس القديمة والمعاهد التكنولوجية الحديثة تتجاور ، ولكنها مقصورة على ابناء وبنات البرجوازية الفنلندية التي تستورد الغلاء ولا تصدر سوى الخشب والورق ، ويبقى الفقر والبطالة يمرحان في ربوع البلد « الرأسمالي » النشاز بين دول الشمال المتطورة من مجموعة سكاندانافيا .

أما الذين يسعدهم الحظ و « يجدون » العمل ، فهم يكدحون أحيانا ٢٤ ساعة متواصلة كما روت لي فتاة تعمل ممرضة ومعلمة ومضيفة بأحد المطاعم !! هؤلاء يقولون لك : مستر كوكونين رجل طيب ونحن نحبه ، ولكن بلادنا فقيرة تكاد السياحة ان تكون مصدر رزقها الرئيسي . اننا بمعنى من المعاني مجتمع خدمات ، ولسنا كالسويد او النرويج او الدانمرك او هولاندا . ولولا ان الاتحاد السوفياتي يوفر لنا ٤٠ بالمئة من النفط كما انه يبني لنا محطة كبيرة لتوليد الكهرباء ، لارتفعت الاسعار اكثر واكثر . ان السائح الغربي يأتي الينا ويرتفع الغلاء . هؤلاء ايضا يقولون لك : اننا نتابع مؤتمر الامن والتعاون الاوروبي ، لعله يفعل لنا شيئا .

هؤلاء يتكلمون في « السياسة » ، بعيدا عن جزر السعادة الوهمية ، وحديقة الحدائق في قلب هلسنكي .

المحرر ١٩٧٥/٨/١١

ليس من المهم ان الرؤساء الخمسة والثلاثين الذين اجتمعوا في هلسنكي ثلاثة ايام (ابتداء من ٣٠ تموز الى اول آب ١٩٧٥) تكلموا بعديد من اللغات الحية والميتة المعروفة والمجهولة الواسعة النفوذ والقليلة الحيلة . ليس هذا مهما ، فقد وفرت السلطات الفنلندية جهازا ضخما دقيقا للترجمة الى الالمانية والانجليزية والروسية والفرنسية والايطالية . ولم يكن هناك — والحمد لله — رئيس او عضو وفد لا يضع سماعة الترجمة على اذنيه ، حتى حين « تفضل » بعض الرؤساء وتكلموا بغير لغاتهم الاصلية ، غالبا في انجليزية ركيكة مهشمة الاوصال . لم يكن هذا مهما ، لان ما كان يعني الجميع هو منطق الكلام اكثر من لغة التعبير ، هو الفلسفة السياسية للخطاب اكثر من قواعد النحو والصرف . لقد تكلم المطران مكاريوس — مثلا — بانجليزية بسيطة للغاية ، ولكنه اثار المؤتمر كله حول قضية الجزيرة المنقسمة والشعب الذي يعاني . بينما تكلم رئيس وزراء السويد بلكنة اكسفورد دون ان يثير انتباه أحد . كذلك فقد التزم الجميع حرفيا بالكلمات المكتوبة سلفا ، بينما خرج الرئيس الروماني تشاوشيسكو عن نص الخطب وراح يشرح ماذا تعني له كلمة الديمقراطية . وكان هارولد ولسون نجما في بلاغة الاداء التمثيلي ، بينما كان بريجنيف نجما في الرزانة والاحاطة والشمول . وهكذا ، فان « العرض » التاريخي الذي امتعنا في قاعة فنلادنديا هاوس ، يختلف عن قراءة النصوص في خلوة مع النفس ، حيث تختفي الديكورات وايقاعات اللفظ ولهفة الفرجة ، ويبقى « المضمون » وحده في حرمة الامتحان حيث يكرم « الرئيس » او يهان .

ولا بد من الاشارة الى ان « خطب » الرؤساء ، هي في النهاية « تعليقاتهم » على « وثيقة قواعد السلوك الحميد » التي وقعوا عليها في

اليوم الاخير ، ولكنهم قراوها قبل ذلك بكثير . اي ان المؤتمر لم يكن فـــي حقيقته اكثر من حفلة التوقيع من جانب الذين يملكون « الخاتم الرسمي ». اما الذين ارهقوا انفسهم طيلة عامين كاملين في الحـوار الهادىء والعاصف والبحوث المضنية في القانون الدولي والاقتصاد والعلـــوم والتكنولوجيا ، فهم جنود مجهولون لي ولك وللطائرات التي دارت بهم من عواصم بلادهـم الى فيينا وجنيف وهلسنكي وبالعكس . ولا بد من الاشارة ايضا الـى ان هذه التعليقات في حفلة التوقيع ــ والتي هي ليست حوارا عـلى الاطلاق ــ قد روعي في صياغتها مــن جانب البعض ان تكون خطابا انتخابيــا محليا او استجداء لحل مشكلة ثانوية او ابتزازا ومقايضة او وصاية مبطنة بالحب ، مما يبتعد قليلا أو كثيرا عن « جوهر » المؤتمر الذي رآه هؤلاء ــ مــن بعض رؤساء الدول الغربية ــ فرصة تكاد تكون شخصية . لذلك تعددت لغـات المؤتمر ، فوق تعددها كألفاظ وقواعد ، الى مستويات النظر الـى الامـور واساليب معالجتها من حيث اختيار الزمان والمكان والقضية .

غير ان الذي يعنينا هنا ــ كما قلت ــ هو اللغـة السياسية للعصر ، كما تمثلت في نصوص خمسة وثلاثين زعيما لقارة حاسمة في خريطة العالـم المتقدم ، بينهم رئيسا الولايات المتحدة وكندا . وللوهلة الاولى يشعر المرء انه في اطار « الوحدة » التي تجمع هذا الحشد ــ وهـي الانفراج الدولي ــ فان هناك ثلاث مجموعات متمايزة لكل منها زاويتها الخاصـة في الرؤيـة : المجموعة الاولى يمكن تسميتها مجازا بالدول الحيادية . والمجموعة الثانية هي كتلة الاطلنطي ، والمجموعة الثالثة هي كتلة حلف وارسو .

★★★

اما مجموعة « الحياد » او مايشبه ذلك ، فان الحد الادنى من الاتفاق بينها كان النظر الى المؤتمر من زاوية الانتصار للسلام ، وبالتالي فقد رات في نفسها الرائد الى عالم بلا حرب . اي انها رات الحياد مرادفا للسلام ، او على اقل تقدير مقدمة له . غير ان هذه المجموعة تفرقت بعدئذ بها السبل حسب ظروفها التاريخية والاقتصادية والجغرافية التي تملي عليها فـــي خاتمة المطاف مواقفها السياسية . ان فنلندا ــ مثلا ــ ليست مجتمعـــا انتاجيا كبيرا ،وانما هي بلد سياحي في المقام الاول ، حدودها تتاخم الاتحاد السوفياتي الذي منحها الاستقلال ويوفر لها النفط والكهرباء . وهي بلـد

راسمالي يحكمها حزب اشتراكي ديمقراطي . لذلك فان حديث رئيسها يتوجه مباشرة الى الحضارة فيقول ان التجربة علمت بلاده ان التواصل والتنوع الفكري والثقافي يغني روح الشعوب ، لذلك كان الانفراج بين الدول يعني مزيدا من التواصل واعترافا يقبل التنوع « ووفقا لهذه الرؤية التقليدية فان هناك مسؤولية خاصة تقع على كاهل القوى العظمى نحو السلام العالمي والامن الدولي » . وكلاهما من شأنه حماية الحضارة في غناها اللامتناهي . ومن هذه النقطة ينطلق رئيس سويسرا بيير جرابر ، وبلاده اتحاد بين ثلاث مقاطعات تتكلم الالمانية والفرنسية والايطالية حسب الحدود المتاخمة للمقاطعة . وبالتالي كان الاتحاد السويسري في حضن الحضارة الغربية او مفرقا لثلاثة طرق الى هذه الحضارة . انه نموذج للتعدد الواقعي في اطار الراسمالية ، فليس هناك شبح أحمر يخشاه ، ولكنه ــ على طول التاريخ ــ يخشى الحرب ، وقد استن الحياد طواعية رعبا من آلامها وخرابها . ومنذ البداية يشير الرئيس السويسري الى الثقافات الثلاث التي تلتقي في بلاده موجزة « روح أوروبا » . ولكنه يستدرك ان الحياد لا يعني مطلقا « سياسة المقعد الفارغ » من المسؤولية ويستطيب اللاقرار واللامبالاة . كلا ، وانما الحياد هو دور فعال من أجل السلام ضد الحرب . حتى هنا ، ولا يختلف الرئيس السويسري عن الرئيس الفنلندي من حيث المقدمات . ولكن سويسرا الاقرب الى الغرب تختلف في النتائج عن فنلندا المحاذية للشرق ، لذلك يشرع مسيو بيير جرابر في تحية الولايات المتحدة وكندا « الديمقراطيتان الاميركيتان العظيمتان » . ثم يركز على معنى الاستقلال الوطني الذي يتجاوز مجرد القبول بالقوانين الدولية ، الى الاعتراف بحق كل بلد في بناء ذاته القومية وتطويرها وفقا لافكاره واحتياجاته وبمحض ارادته الحرة . ويقول انه لا سبيل الى ذلك الا باختيار الفرد ، ومن هنا كان اصرارنا على حقوق الانسان التي وردت ضمن المبادىء العشرة في الوثيقة . ان احترام الحريات الأساسية للفرد هو الذي يؤدي الى احترام استقلال الدول .

هكذا اختلفت رؤية « الحياد » بين دولتين حياديتين بحكم الظروف التاريخية والموقع الجغرافي والتطور الاقتصادي ، فبالرغم من انتمائهما الى العالم الراسمالي ، الا ان فنلندا تنظر الى الحضارة ككل وتهرب من المشكلات التفصيلية التي تفرق بين الشرق والغرب ، بينما لا تجد سويسرا غضاضة في ان يؤسس السلام على قواعد النظرة الراسمالية .

بقيت النمسا ويوغوسلافيا . وكلاهما له وضع خاص ، سواء في اطار المعسكر الاشتراكي او المعسكر الرأسمالي . وكلاهما يبحث عن دور في السياسة الدولية . وقد كان المستشار كرايسكي ذكيا حين اشار في بداية خطابه الى معاهدة النمسا عام ١٩٥٥ قائلا انها كانت بداية الانفراج الدولي . فالحق أن النمسا ظلت حتى ذلك التاريخ كألمانيا الغربية بعد التقسيم الرباعي . ولكنها حصلت على استقلالها واصبحت ممرا بين الشرق والغرب . ومن خلال هذا الممر ترى النمسا انها يجب ان تكون اول المارين فوق ارضها شرقا وغربا ، اي انها ترفض ان تكون جسرا سلبيا ينتفع به الآخرون دونها ، او هي ترفض أن تنحصر منفعتها في الجانب الاقتصادي . انها تبحث عن دور سياسي واضح . لذلك قال كرايسكي « ان هذا المؤتمر هو نقطة البداية للرحيل الى سياسة الانفراج » . ثم تكلم مباشرة عن الشرق الاوسط . كان اكثر الذين اشاروا الى منطقة الازمة المستعصية ـ وهم قليلون ـ تركيزا وتحذيرا . أشار اولا الى الاهمية الحضارية للشرق الاوسط حيث تجتمع الاديان السماوية الثلاثة بكل ما ترمز اليه من قيم ومعنويات وتقاليد . وقال « اننا مسؤولون عن الوضع بصورة او بأخرى » و « اننا ننادي من هنا حكومات الدول العربية واسرائيل ليفعلوا كل ما يستطيعون بالوسائل السلمية » و « يجب ان تكون هناك طريقة تنطوي على الاحترام المتبادل ، تعترف بحقوق اسرائيل والفلسطينيين » . ثم أشار بعد المسؤولية الحضارية الى أزمة الطاقة ؛ فكلاهما معا يربطان مؤتمر الأمن الاوروبي بالشرق الاوسط ربطا حميما . وقال « يجب ان نكتشف على وجه السرعة الاسلوب المثالي للتعاون البناء بين اوروبا والدول المنتجة للنفط في الشرق الاوسط ، التعاون الذي يتجاوز مجرد البيع والشراء » . وتكلم بعدئذ عن الاقتصاد الاوروبي بين الشرق والغرب وضرورة توطيده وفتح السبل امامه ، دون اي اعتبار لاختلاف النظم ودون استخدام أية ضغوط تمثل تدخلا في الشؤون الداخلية للدولة المعنية (هل كان يقصد الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ؟) .. وقال ان معدلات التطور في الدول الصناعية مختلة ، ولا بد من اعادة التوازن حتى لا يصيب الخلل مستويات المعيشة الاوروبية ويفاقم التضخم . واختتم المستشار النمساوي كلمته بقوله « واخيرا فانني الفت النظر الى الطبيعة السيكولوجية السياسية » التي ستواجهنا في تنفيذ « قواعد السلوك الحميد » التي أقرتها الوثيقة ، فلا زلنا في قرارة نفوسنا نحترم القوة اكثر من الحق ، ولا زلنا في قرارة نفوسنا يعتورنا الشك اكثر من الثقة . ثم

تساءل عن الديمقراطية قائلا ان بعضنا يتكلم عنها كما لو كانت شيئا ثابتا لا يتطور مع الزمان ، ولا يتكيف مع المكان . بينما الانسان بكل مفاهيمه واحتياجاته ، يتفاعل مع البيئة والعصر . لذلك لا ينبغي أن نضع في طريقنا عقبات وهمية ، فنسقط من الماضي معانيه على الحاضر ونحاكم او نحذر بعضنا بعضا وفقا لمطلقات أجدر بنا أن نحولها الى نسبيات .

وهكذا خرج المستشار كرايسكي عن حيادية فنلندا الحضارية وديموقراطية سويسرا الراسمالية ليدلي برأيه في اكثر المشكلات حساسية، باحثا للنمسا عن دور نشيط على خشبة المسرح الدولي ، منطلقا من الوضع الخاص الذي يميز بلاده كمعبر من الشرق الى الغرب وبالعكس ، ومنطلقا من الظروف الخاصة التي حررت وطنه من مصير التقسيم الرباعي لالمانيا الغربية .

أما خطاب الرئيس تيتو ، فقد كان محاضرة العالم النامي ، وكتلة عدم الانحياز ، والبطولة الوطنية في الحرب ضد الفاشية ، والطريق اليوغوسلافي الى الاشتراكية . لذلك كان ادسم كلمات الدول المحايدة ، واكثرها اقترابا من الجوهر الشامل للامن .

ويوغوسلافيا ، هي الاخرى ، تبحث عن دور ، لصفاتها المتميزة . ان الرئيس تيتو ليس مدينا لاحد في تحرير بلاده من نير النازية ، وخلافه مع ستالين لم ينحرف به عن طريق الاشتراكية ، وهو رجل مسن لا يطمح في امجاد اكثر من الامجاد التي نالها من مواطنيه والتقدير العميق من العالم اجمع . لذلك فانه حين يبحث ليوغوسلافيا عن دور ، فانه يفعل ذلك في ضوء معطيات موضوعية الم بها خطابه الماما كاملا . انه يفتتح حديثه بالاجيال الجديدة مباشرة « لقد عانت أجيال عديدة من الويلات والصعوبات قبل ان تبدأ اوروبا تحولها عن التراث السلبي لتواجه المستقبل » . ويؤكد فورا ان هذا المؤتمر ليس لاوروبا وحدها ، وانما هو للعالم كله ، ولعل القاسم المشترك بين كثير من الدول الحاضرة اليوم هو تحالفها منذ ثلاثين عاما في الحرب ضد الفاشية « اسوأ ايديولوجية عرفها العالم في تاريخه ». وكما كانت اوروبا ميدانا للحرب الساخنة ، فانها ظلت ميدانا للحرب الباردة « غير ان الظروف قد حالت دون تدمير المنجزات الحضارية والثقافية التي انفق فيها الانسان الاوروبي قرونا » . ثم أخذ يعدد

متغيرات العالم الجديد قائلا : ان تقدم العلـوم والتكنولوجيا والثقافـة والفكر الانساني التقدمي وحركات التطور الاوروبية ، قد دفعت ثـورة المواصلات الى ميادين العلاقات الاجتماعية والعلاقات بين الدول ، وقـوت الوعي الديموقراطي وشجعت التقدم الاجتماعي . ولقد تأثرت بقـاع كثيرة في العالم بما جرى في اوروبا . ان مؤتمر الامن الاوروبي الحالي يأخذ مكانـه ضمن المتغيرات الكثيرة التي لحقت بالعالم الواسع بعـد الحرب الثانيـة . لقد تحررت بلدان كثيرة من نير الاستعمار ، واتخذت لنفسها طرقا مستقلة في التطور الوطني ، اقتصاديا واجتماعيا ، والتالي كان أمنهـا وسلامهـا وسيادتها من المهام العاجلة التي تتوفر عـلى انجازهـا . ان الانتصارات العظيمة لشعوب فيتنام وكمبوديا وافريقيا ، هي الدليل الدامغ على مـا طرأ من تغيرات على خريطة العالم . ثم اشار الرئيس تيتو الى التناقض بين هوية الثورة العالمية الجديدة والحدود المفتعلة بين البشر قائلا ان التعاون الاقتصادي والتفاعل الثقافي هما سبيل الامن الدولي الـذي لا يفـرق بين دولة صغيرة واخرى كبيرة او بين لون ولون وبـين جنس وجنس ، حتـى نستطيع ان نكون في مستوى المتغيرات الثورية للحضارة ، وحتى نتمكن من مواجهة التحديات العظمى في الطبيعة والمجتمع . ان الامـن هـو شرط التقدم ، ويستحيل التقدم العالمي ـ بل حتى الاوروبي ـ دون تنقية بـؤر التوتر ـ كما هو الحال في قبرص والشرق الاوسط ـ من العوامل التـي تهدد أمن الدول وسيادتها . ثم اشار الى العلاقات الاقتصادية الدوليـة وقال انه لا بد من التطور المتوازن حتى يمكن للدول النامية ان تعبر الفجوة التي تفصلها عن الدول الصناعية المتطورة . حينذاك يصبح هناك الاساس الصلب للتعاون ، فالتقدم الاقتصادي الدولي . وبغير هذا الاساس تصبح كلماتنا عن الامن غير ذات جدوى . ولقد رأت يوغوسلافيا دائمـا ونادت ـ يقول تيتو ـ بأن اختلاف مستويات التطـور الاقتصادي في أوروبـا وخارجها ، هو الذي يهدد الامن في العالم . ويشيد الرئيس اليوغوسلافي بالانفراج الدولي الذي جعل هذا المؤتمر ممكنا ويقول انه اذا تعاملت الدول مع بعضها البعض على قدم المساواة ، فان الاسوار بـين الشعوب سوف تتساقط تلقائيا . ان هـذا المؤتمر ليس نقطة النهاية بل لعله نقطة البداية لعصر جديد يقول عنه المؤرخون في المستقبل انه كان نقطة التحول في حيـاة اوروبا والعالم « ينبغي ان نكون بعيدي النظر لاننا نحيـا زمنـا ديناميكيا مفتوحا لعديد من الاحتمالات والممكنات السريعة المتلاحقـة » . ان السلام القائم على الرعب المتبادل ليس سلاما ، انه ، فقـط ، السلام المسلح .

ويختار تيتو هذه الابيات يختتم بها حديثه ، تقول « لا سلام تحت السلاح ، ليس هناك أخوة دون حقوق متساوية » .

★★★

بالنسبة للمجموعة الثانية يمكن القول ان هارولد ولسن — رئيس الوزراء البريطاني — هو فارسها الذي قاد الهجوم الغربي ، ان جاز التعبير ، عن المناورة التي وضحت أبعادها من اليوم الاول للمؤتمر ، وذلك بتحدي الكتلة الاشتراكية ان تنفذ ما ورد في الوثيقة من تفاصيل عن حقوق الانسان . بدأ ولسون خطابه قائلا ان الشعوب الاوروبية سوف تنظر الى هذا اللقاء باعتباره نقطة تحول في التاريخ « نقطة تحول لا بالنسبة لما يمكن انجازه هنا ، بل بالنسبة لمجموعة التطورات التي جعلت هذا اللقاء ممكنا» . ثم أشار الى مؤتمر فيينا عام ١٨١٤ ومؤتمر برلين عام ١٨٧٨ وقال اننا لم نأت الى هنا بثياب حفلات الشاي . واستطرد الى ان المبادىء التي تشتمل عليها وثيقة هلسنكي لا تخرج عن « ميثاق الامم المتحدة » الذي بلغ ثلاثين عاما من العمر . واقتطف مقطعين من الميثاق المذكور تؤكدان ضرورة السلام الدولي وأهمية الامن بين الدول المجاورة . واضاف ان « روح الانفراج » هي التي أدت الى هذا الاجتماع . وقد بدا ولسون اكاديميا في تعدد استشهاداته التي تزكي التقاليد البريطانية ، فهو يذكرنا بتسمية تشرشل « الستار الحديدي » ، لما اصبحنا ندعوه بالحرب الباردة في ما بعد . كما يذكرنا بسطر قاله كليمنت اتلى « ان البديل الوحيد للتعايش هو التماوت » . ولكن ولسن مناور ذكي فهو يقتطف أيضا عدة مقاطع لبريجينيف وردت في حديث مشترك بينهما قال فيه الزعيم السوفياتي ان التعايش السلمي هو السياسة الثابتة لبلاده ، وانه لا يرتب الامور لبرامج قصيرة المدى وانما هو يطبق الاستراتيجية السوفياتية . ان هذه المصافحة الاولية كانت المقدمة الناعمة ليخلع بعدها القفاز . قال — على عكس تيتو تماما — ان بعض دول هذا المؤتمر قد حاربت البعض الآخر منذ اكثر من ثلاثين عاما ، غير انه خلال هذه الفترة قد تراكم تراث ضد الحرب تكلل بالانفراج الدولي . هذا التراث يتصل اوثق الاتصال بالتراث الاوروبي العريق ، وواجبنا الآن هو حماية الحضارة الواحدة التي تظللنا . وانتهى الى ان « الابعاد العسكرية » هي التي تحدد المدى الذي وصلت اليه ارادة السلام . ثم قال ان الانعكاسات الواقعية للشعور بالامن ، هي المعيار الوحيد الصحيح لتقييم منجزاتنا . وهنا خلع القفاز تماما ليقول انه لا

يتصور اوروبا واحدة تقام داخلها الاسلاك الشائكـــة حـــول الـــزواج والسياحة والافكار والاعلام ويتمزق فيها شمل العائلات ، فكما ان الامــن لا يتجزأ كذلك حقوق الانسان العادي الاساسية . « ان انكار هذا الوضـــع هو علامة ضعف لا علامة قوة » . اي ان النظم التي تخشى على نفسها مــن حرية تبادل الافكار والبشر ـ والغمز واضح لا لبس فيه ـ هـــي نظـــم ضعيفـــة .

وانتقل هارولد ولسن الى ان المؤتمر لا يمثـــل طموحات اوروبـــا وحدها ، بل العالم الواسع ، لذلك كان لا بد من النظر في الروابط التـــي يمكن اقامتها بين المنظمات الدولية المختلفة وفي مقدمتها الامـــم المتحدة .. فهناك الكومنولث ومجموعة اميركا اللاتينية ، وهناك السوق الاوروبيـــة المشتركة والكوميكون ، والتلاقي بين هذه المنظمات يؤدي الى تفهم حقيقـــي لمشكلات العالم . واضاف انه اذا استطاع المؤتمر ان يحقق حريات الفـــرد والعائلات والثقافة ، فانه يكون قد احرز نجاحا ، ولكن عليـــه ان يحقـــق « حياة جديدة » خارج اوروبا سواء في الشرق الاوسط او في غـــيره مـــن المناطق . واشاد بفضل القوتين العظميين في ولادة الانفراج الدولي وحـــذر من ان السلام لا ينبغي ان يعتمد على ميزان الرعب النووي . وقال انـــه يتعين على اوروبا ان تأخذ في الاعتبار اعضاء النادي النووي مـــن خـــارج القارة ، كالصين مثلا . واستخلص نتيجة مؤداها ـ على حد تعبيره الحرفي ـ « ان رفع مستويات المعيشة في العالم » يظل هدفا رئيسيا لا يتحقـــق دونه الامن . وهنا عاد مرة اخرى الى التسلح محذرا من تعاظـــم منجزات الحرب الكيميائية والبيولوجية ، داعيا الى تدمير الاسلحة من كافة الانواع. ثم تكررت اشارته الى الشرق الاوسط والتفرقة العنصرية واللونية فـــي افريقيـــا .

كان واضحا ان هذه « ورقة عمل » المجموعة الاوروبية الغربية ، فقد اشتملت على التحفظات المضادة للتفسير السوفياتي للمؤتمر ، كما انهـــا اتخذت منه منبرا تجذب فيه انتباه شعوب العالم الثالث حتى تتصرف في السلوك الدولي وفق هـــذه « النوايا الجديدة » التـــي لخصها رئيس وزراء بريطانيا . ان هارولد ولسن يستوعب المتغيرات العالمية بحذر شديد مـــن الشرق الاشتراكي واقبال متزايد على العالم المتخلف حتـــى لا يفلت الزمام ـ لا من أجهزة الأمن ـ بل من أجهزة التطور الصناعي والاقتصادي فـــي

اوروبا .. فالتضخم والبطالة وغيرها من آفات الازمة الراسمالية الحادة . لم تعد تعتمد في حلها على اساطيل الاحتلال ، وانما على اتفاقات الجنتلمان مع أصحاب المادة الخام والايدي العاملة الرخيصة . هكذا هاجم ولسن ما اسماه بضعف الانظمة التي تقيد حركة الافكار والانسان ليخطب ود الرأي العام الغربي ، وهكذا هاجـم التفاوت في مستويات المعيشة والتفرقـة العنصرية والتهاب منطقة الشرق الاوسط ، ليخطب ود الرأي العام خارج الحدود . كان رئيس الوزراء البريطاني يتكلم وهو يعلم انه لا أمل فـي ان تشرق الشمس على الامبراطورية من جديد ، كما انه كان يعلم بهول الازمة الاقتصادية التي تطحن بريطانيا .

وكأنما اكتفى الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان بورقـة العمـل الانجليزية فلم يطرح في خطابه سوى سؤالين هما : هل نحن واقعيون ؟ هل نحن مخلصون ؟ وقد رتب جوابه على السؤالين في نقاط محددة اوجزهـا في ان المؤتمر يتوج عشر سنوات مرت على ولادة الانفراج الدولـي ، وان التحدي الذي يختبر نوايانا هو الفترة القصيرة القادمة التي تفصلنا عـن المؤتمر القادم في بلغراد عام ١٩٧٧ .

واذا كان ولسن هو الفارس الاوروبي للمجموعـة الغربيـة ، فان الرئيس جيرالد فورد كان « الزعيم » بغير جدال . انه لا يقترب مـن براعة رئيس الوزراء البريطاني التمثيلية ، وهو ايضا ليس محاضرا من اكسفورد، ولكنه دون شك كان التعبير الايديولوجي الاكثر تماسكا عن مصالح العالـم الغربي . بدأ حديثه مخاطبا الجميع ــ الجميع ! ــ ان ما أتى بهـم الـى هلسنكي هو « حبهم » للحرية والاستقلال « اللذين لا يعرفان وطنـا بعينـه ولكنهما يعمران كل قلب » . ثم قال ان الامم الاوروبية الممثلة هنا هي التي حافظت على سلام العالم الثلاثين عاما خلت . والمطلوب الآن عـلى وجـه السرعة هو كيف نبني السلام العادل لجميع الشعوب . وأضاف ان الشعب الاميركي كالشعوب الاوروبية يعي ان ثمة تغيرات عميقة نحـو « الافضل » قد طرأت على عالمنا ، وانه لاينبغي استغلالها بالتوقيع على مجموعة جيـدة من المبادىء ، بل بالتحول الفوري لهذه المبادىء الى وقائع . لذلك كـان لا بد من رقابة فعالة على صراع التسلح ، وكبح جماح الصراع السياسي « ان الازمات لا يجب ان تترك لحسن المصادفة او مخاطرها التي يمكن ان تقودنا من جديد الى حافة الحرب » . ان هذا المؤتمر يجمعنا لان الصراع فـي

أوروبا يهز العالم ، وقد دفعنا خلال قرن واحد ، ثمن هـذا الدرس غاليا . مرتين . ولا يجوز ان ننسى اهوال تلك العصور . ويكرر الرئيس الاميركي « السلام ليس قطعـة مـن الورق » . ثم يشير الـى « المعضلـة الالمانية » ويقول ان الاتفاق الرباعي بشأن برلين عام ١٩٧١ قد وضع حـدا لازمـة كادت ان تصل بالعالم ـ ثلاث مرات ـ الى حافة الهلاك . وأقبلت الاتفاقيات بين المانيا الاتحادية وجاراتها من دول شرق اوروبا لتجعل من الممكن لوسط اوروبا وللعالم ان يتنفس . وفي عام ١٩٧٢ كانت المعاهدة بـين الولايـات المتحدة والاتحاد السوفياتي لتخفيض انتاج الشبكات الصاروخية والاتفاق المبدئي حول الحد من الاسلحة الاستراتيجية . وكان ذلك بمثابة البدايـة الراسخة الاساس لما ينبغي ان يستمر . انها بداية الانفراج الدولي . وبدأ الرئيس فورد يشرح معاني الانفراج : فهو اولا ليس حالـة ساكنـة (ستاتيكية) وانما هناك العديد من التحديات تواجهه . ثانيا : ان نجـاح الانفراج يتطلب « سلوكا » دوليا جديدا يمنح شعاراتنا الحياة ، انه نجاح سيقاس بما يراه ويشعر به مواطنونا عمليا . من الافضل لنا ان نقول مـا نعني وان نعني ما نقول حتى لا نحصد غضب الشعوب . ثالثا : لا يجب ان نتوقع المعجزات ، اننا نستطيع ونتوقع تقدما ثابتا عـلى خطوات ، خطوات تنسب الى كل منا وتربط اقوالنا بأفعالنا في مختلف المجالات والعلاقات . واخيرا ، فالانفراج ليس طريقا ذا اتجاه واحد للمرور ، انـه طريـق ذو اتجاهين . ولا سبيل لحل الصعوبات اذا مضينا في اتجاه واحد منفردين . كلا الجانبين يجب ان يرغبا في الانفراج ويسعيان من أجله ويحصدان ثماره. وشعوبنا سوف تتساءل عن المبادىء النبيلة التي احتوتها وثيقـة هلسنكي وكيفية تطبيقها في الحياة اليومية لدولنا ومواطنينا . ان الوثيقة تتضمـن نوعا من الحل الوسط ، كشأن الاتفاقات الدولية ، غير ان المبادىء التـي اشتملت عليها تتجاوز الحد الادنى الذي تتفق حوله الحكومات . انهـا تثبت حقوق البشر الاساسية كحرية الفكر والضمير ، وتختبـر الحقـوق المدنية والسياسية ، وحقوق الاقليات . تنادي هذه المبادىء ايضا بحريـة انتقال الانسان والافكار وحق العائلات في التئام الشمل وحق الزواج بـين جنسيات مختلفة ، وحماية تراثنا الحضاري الغني بتنوع الثقافات . وتقدم مجالا أوسع للتعاون في التجارة والانتاج الصناعي ، والعلمي والتكنولوجي ، في الصحة والفضاء والمحيطات . وترسخ المبادىء الثابتـة للعلاقات بـين الدول على أساس المساواة الكاملة وعدم التدخل في الشؤون الداخليـة والتطور المستقل وامكانية تعديل الحدود بالوسائل السلمية . ولـم تفت

فورد الاشارة الى ان دستور الامة الاميركية ـ التي تحررت منذ مائتي عام ـ يحتوي على جوهر هذه المبادىء . ثم تساءل فجأة : لماذا انا هنا ؟ واجاب « لانني اؤمن كغيري من أبناء وطني بوحدة المصير بين اوروبا واميركا الشمالية ، في الواقع وحدة مصير الاسرة الانسانية » و « لان قادة ٣٤ دولة اوروبية وكندا هنا . كندا جارنا الطيب الذي لا يقف جندي واحد على حدودنا التي تمتد معه ٥٥٢٦ ميلا ويحيا شعبانا في صداقة واحترام طيلة ١٦٠ عاما . واستطيع ان اقول دون خوف من العقد ان دماء جميع الشعوب الممثلة هنا تجري في عروق الاميركيين ، بكل ما تشتمل عليه من ثقافة وتقاليد هي تراثنا الذي عملنا على اغنائه دوما » . ثم قال « ان مستقبلنا مرتبط بكم » . واختتم حديثه متسائلا : أنستطيع ان نتكلم حقا عن السلام والامن دون ان نضع حدا لانتشار الاسلحة النووية في العالم ؟ وهل يمكن تجزئة السلام بين منطقة تشعر بالامن واخرى يسودها التوتر ؟ وهل تستطيع اوروبا التقدم وحدها دون اعتبار لانتشار الجوع في مناطق حظها اقل من حظنا ؟ انها تساؤلات من حق الشعوب ان تتقدم بها في ذروة انعقاد هذا المؤتمر ، والتاريخ وحده هو الذي سيحكم لا على ما قلناه هنا اليوم ، بل على ما سنفعله غدا ، لا على الوعود التي قطعناها بل على الوعود التي نحتفظ بها . واذا استطاع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ان يصلا الى اتفاق الحد من الاسلحة الاستراتيجية فانهما يحققان على الارض ما حققاه منذ أمد قصير في السماء .

ولا شك ان خطاب فورد ـ على هذا النحو ـ كان خطابا مدروسا بعناية فائقة ، فصاحبه لا يذكر الناس بأهوال الحرب الفيتنامية ولا يفتح امامهم ملف المخابرات المركزية ، بل هو يقدم الوجه اللامع للولايات المتحدة ـ الدستور ومبادىء ولسن ونضال جورج واشنطن وتحالفات روزفلت ـ ويحاول جاهدا تطمين أوروبا الغربية على « وحدة المصير » ، ويشدد على حقوق الانسان مداعبا غرائز الرأي العام الغربي ، ويشدد على الانفراج الدولي مداعبا الاتحاد السوفياتي . ويتكلم عن السيادة الوطنية للدول المستقلة بينما تستخدم الولايات المتحدة حق الفيتو ضد فيتنام الشمالية والجنوبية لتحرمهما دخول الامم المتحدة . ويتكلم عن الايمان الاميركي بحرية الشعوب والكونغرس الاميركي يضغط على الاتحاد السوفياتي ـ لتهجير اليهود ـ بالتلكؤ في تنفيذ الاتفاقات التجارية المعقودة بين البلدين وفقا للشروط الاكثر رعاية . وهكذا فان فورد الذي حرص على المناداة

بتحويل المبادىء الى حقائق ، كان يمثل السياسة الاكثر بعدا عن الحقائق الجديدة التي تجسدها وثيقة هلسنكي .

اما المجموعة الاشتراكية ، فاننا نختار منهـا اولا كلمـة المانيـا الديمقراطية التي القاها اريك هونيكر السكرتير الاول للحزب الاشتراكي الالماني الموحد . ذلك ان المانيا الديمقراطية هي احـدى ثمرات الحرب العالمية الثانية ، ولا زالت مشكلاتها مع المانيا الاتحادية – وخاصة ما يتصل بالعاصمة برلين – موضع حوار حاد حينا هادىء احيانـا بـين الشرق والغرب . وقد كان من الطبيعي ان يبدأ الرفيق هونيكر كلمته بالحديث عن الحرب ضد النازية وكيف أن التعايش السلمي – رغم الحربالباردة – بين النظم الاجتماعية المختلفة هو الذي دفع عن اوروبا والعالم غائلة الحرب من جديد . ثم اشار الى انبثاق فكرة المؤتمر الحالي عن حلف وارسو منذ سنوات بالاضافة الى البرنامج السلمي في وثائق المؤتمر الرابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي . واضاف هونيكر ان المانيـا الديمقراطية أعطت المثل الرائد على ضرورة الامن المتبادل في الاتفاقيات التي عقدتهـا ودشنت بها عصر الانفراج الدولي . وقال ان السلام والاشتراكية وجهـان لعملة واحدة ، فالدستور بألمانيا الديمقراطية ينص على ان سياسة الوطـن الخارجية تهتدي « بالاشتراكية والسلم والصداقة الدولية والامـن » . وركز على ان الاشتراكية هى النظام الذي يرتكز في جوهره عـلى السلام والامن والديمقراطية بين الشعوب . وقال انه يرى في مبادىء الوثيقـة الجديدة تطبيقا لما يؤمنون به في بلاده التي هي على استعداد دائـم للتعاون مع كافة الدول في المجالات الاقتصادية والتكنولوجية والعلميـة والتربويـة والثقافية . وأبدى ملاحظة على الانفراج الدولي قائلا ان ما يهدده هـو السباق على التسلح و « ان هذا المؤتمر هو نفسه مثـل عـلى الممكنـات المتعددة » التي تشكل بديلا عن الحرب . واختتم السكرتير الاول للحـزب الاشتراكي الموحد في المانيا الديمقراطية حديثة بدعوته الـى ترسيخ أسس « الامن الجماعي » في اوروبا حتى تحصل القارة على السلام النهائي .

وكان اهم ما ورد في كلمـة جانوس كـادار السكرتير الاول لحـزب العمال الاشتراكي المجرى قوله ان هنغاريا تترجم وتطبع مئات الالوف من النسخ سنويا من المؤلفات الاجنبيـة لدانتـي وشكسبير وموليير وجوتـه وتولستوي والآخرين بالاضافة الى منجزات الثقافة الغربيـة المعاصرة .

والذين يفدون الى بلادنا يجدون ابوابها مفتوحة ، كما ان مواطنينا يزورون البلدان الاخرى بكثافة متزايدة . ان بلادنا التي لا يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين تستقبل سنويا ثمانية ملايين أجنبي . والتيسيرات الاعلامية والمبادلات الثقافية بين المجر والبلدان الاخرى من الامثلة الواقعية التي تشهد للنظام الاشتراكي بالانفتاح على كل ثراء انساني . والحقوق المدنية والسياسية في حياتنا السياسية نموذج لعمق الوعي الديمقراطي في ظل الاشتراكية . وليس في تاريخنا الحديث اية شائبة تهدد السيادة الاقليمية للبلدان الاخرى .

وهو بذلك كان يرد على هارولد ولسن وتحديه لما أسماه بالنظم الضعيفة التي تخشى التيارات الخارجية .

...

غير ان خطاب بريجنيف كان « ورقة العمل » الاشتراكية التي لم تقع أسيرة « رد الفعل » ، بل تميزت بالاحاطة والشمول والعمق وبعد النظر ، فجاء تاقرب الى الرؤية الاستراتيجية لقضية الامن اكثر منها مجرد تعليق على وثيقة هلسنكي . ومن هنا كان حديث الامين العام للحزب الشيوعي السوفياتي أكثر جاذبية ــ من كافة ما ألقي ــ للعقل والتفكير والاحترام . بدا بريجنيف حديثه بقوله ان الذين عاشوا ايام الرعب في الحرب الماضية عليهم أن يتلمسوا السمة التاريخية المميزة لهذا المؤتمر . ثم قال ان اوروبا مرشحة لاعطاء المثل للعالم على انه يمكن في ظل وفرة التنوع الثقافي ان نحيا في رحاب حضارة انسانية واحدة . وأضاف انه لم يكن سهلا على الاطلاق الطريق الى مؤتمر الامن الاوروبي « ان الاتحاد السوفياتي الذي يقدر بتبصر وديناميكية مختلف القوى السياسية في اوروبا والعالم مقتنع بثبات بأن التدفق العارم لتيار الانفراج الدولي والتعاون المتكافىء والمتزايد في الاعوام الاخيرة يحدد بأكبر قدر اتجاه سير السياسة الاوروبية والعالمية التي ستكتسب قوة جديدة ونطاقا اكبر بفضل المؤتمر ونتائجه » . واشار الى ان لينين ــ مؤسس الدولة السوفياتية ــ هو الرائد الاول للتعايش السلمي نظريا وعمليا . واكد أن تحويل هذه الاتفاقيات الى مؤثرات هو انجازنا الاكثر أهمية « انه أقصى الممكنات في يومنا ، اما في الغد فسيتحول الى نقطة بداية لانجاز ما هو أبعد » . ثم وصف نتائج المؤتمر بأنها « انتصار للعقل » والمؤتمر ذاته بأنه « مدرسة للسياسة الدولية » . وحذر من ان وثيقة هلسنكي لا تمنح الغرب حق التدخل في

الشؤون الداخلية للاتحاد السوفياتي ، وشدد على أن مبادىء الوثيقة لا تجيز لاحد ــ أيا كان ــ ان يملي ارادته على الدول الأخرى « ان شعب كل دولة هو وحده ولا أحد غيره يتمتع بحق حل شؤونه الداخلية ووضع قوانينه الداخلية » و « يجب الا يحاول اي طرف بالاستناد الى هذه الدوافع او تلك في ميدان السياسة الخارجية ان يملي على الشعوب الاخرى كيفية تسييرها لشؤونها الداخلية .. واي اخلال بذلك يعد اساسا هشا لقضية التعاون الدولي » . والسبيل الامثل لمنع الحروب « هو العثور على وسائل لتخفيض القوات المسلحة والاسلحة دون ان يتضاءل أمن أحد بل لفائدة الجميع » . وقال بريجنيف ان دعم الانفراج الدولي لا يتأتى الا بانهاء سباق التسلح وتحقيق نتائج ملموسة في التجريد من السلاح .

★★★

وبعد ، فهكذا تكلم « الرؤساء » في مؤتمر الامن الاوروبي . هكذا تكلم المحايدون والغربيون والشرقيون .

كان المحايدون أكثر تركيزا على « الحضارة » التي يخشون عليها التبدد والضياع ، ولم تكن الحضارة في قاموسهم الا « اوضاعهم الخاصة » التي يودون الابتعاد بها عن الحرب الساخنة والباردة ، ويبحث لها بعضهم عن « دور » في عالم متغير .

وكان الغربيون اكثر تركيزا على « الحياة اليومية للفرد » هربا من المتغيرات الجديدة التي استوعبت حقوق الانسان كما أرستها الثورة الفرنسية وميثاق الامم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، ومن ثم تتطلب مكتشفات جديدة في حقل الديمقراطية الاجتماعية . ولم يتقدم « غربي » واحد باكتشاف مهم في هذاالصدد ، بالرغم من انه السياج الحقيقي لامن الشعوب .

وكان الاشتراكيون أكثر تركيزا على نزع السلاح والتعاون الاقتصادي والعلمي والتكنولوجي ، لانهم بذلك يضعون الاساس الوطيد لرخاء البشر وسلامهم .

وكان الجميع اوروبيين بطريقة او بأخرى ، تظلهم « حضارة » واحدة تنعكس في ثنايا الخلاف قبل الاتفاق وفي تركيب الفكرة بعد تحليلها وفي رؤية العالم قبل رؤية النفس .

لم يتجاروا في هلسنكي .. فقد تم الحوار قبل انعقاد المؤتمر عبـــر سنوات طويلة في عواصم ٣٥ دولة أهمها فيينا وجنيف . كانوا في هلسنكي يتحدثون الى آذان الملايين خارج قاعة فنلانديا هاوس التـــي كـــادت ان تتحول ــ بتفسيراتهم المختلفة لوثيقة متعددة اللغات ــ الى بـــرج اسطوري في بابل القديمة .

المحرر ١٩٧٥/٨/١٤

يخطىء من يظن ان الولايات المتحدة الاميركية قد ارتدت فجأة ثياب المسيح ، وأصبحت تدير خدها الايمن لمن يصفعها على خدها الايسر .. فبعد الهزيمة التاريخية الساحقة التي منيت بها في فيتنام وكمبوديا ، ظن البعض ان اميركا قد آثرت « العزلة الدولية » وانها سوف تبتعد بصورة او بأخرى عن مكامن التدخل في شؤون الدول الاخرى ، وانها قد غسلت ايديها ــ بعد انسحاب الخزي والعار من جنوب شرقي آسيا ــ من الدماء التي يمكن ان تستجد . والدليل ، عند هؤلاء ، هو الضجيج المدوي حول اعمال المخابرات المركزية ، وكيف انها تلقى استهجانا واسعا في صفوف الشعب الاميركي ، بل وبين أعضاء الكونغرس ورجال الدولة . واذن فالولايات المتحدة التي انضمت أخيرا الى قائمة الموقعين على وثيقة هلسنكي قد دخلت مرحلة جديدة أقرب ما تكون الى « الانطواء على النفس » كما يقول أشباه المحايدين ، او هي عادت الى جذورها الاولى كرسول للسلام والديمقراطية كما يقول الموالون . وذهب رئيس عربي الى أقصى حدود حسن النية او الموالاة حين فرق بين عهد الكاوبوي جونسون وعهد الفلاح البسيط فورد . واضاف صحفي اميركي في نقاش معي حول السياسة الاميركية القادمة ــ وكنا نشهد حفلة التوقيع على وثيقة قواعد السلوك الحميد في هلسنكي ــ ان فورد هو ديغول الولايات المتحدة .

ولا شك ان هناك متغيرات عالمية جديدة ، تفرض نفسها على صناع القرار السياسي في جميع انحاء الدنيا ، بما فيها الولايات المتحدة . ولا شك ايضا ان الاستراتيجية الاميركية مطالبة ــ من اصحاب المصالح الاقتصادية خارج وداخل الحدود ــ بتغيير منهجها في اللعب ، بعدما تغيرت قواعد اللعبة على المسرح الدولي . وفي ظني ان هناك ثلاث مراحل رئيسية

مرت بها السياسة الاميركية خلال الربع القرن الاخير ، غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية :

● المرحلة الاولى نجح خلالها الاتحاد السوفياتي في ان يقيم نوعا من التوازن العسكري مع الغرب بدخوله السريع والمكثف العصر النووي ، بحيث بات الدمار لكلا الجانبين محتملا لو ان الغرب شن حربا مفاجئة على الشرق حسب نصيحة تشرشل وقتذاك . كان شعار العجوز البريطاني أثناء الحرب « التحالف مع الشيطان » ضد هتلر ، وكان شعاره بعدها مباشرة « ضرب الشيطان » فهو العدو الرئيسي . ولكن النجاح السوفياتي في صنع القنبلة الذرية دفع القيادة الغربية الجديدة ــ اميركا ــ الى الابتعاد عن مخاطر الدمار المشترك ، والاكتفاء بمحاصرة الاسرة الاشتراكية الوليدة اقتصاديا وسياسيا . وهي السياسة التي طورها وزير الخارجية العتيد جون فوستر دالاس في ما بعد والتي عرفت بحافة الهاوية . ويعتمد تطبيق هذه السياسة على سلسلة من الاحلاف العسكرية بين الولايات المتحدة والبلدان المحيطة بالمعسكر الاشتراكي في اوروبا والشرق الاقصى والشرق الاوسط . وكانت المعونات الاقتصادية والتهديد بالخطر الاحمر بمثابة « الطعم » الذي يسر للاميركيين اقامة الشبكة الجهنمية من الاحلاف التي تهدد أمن الدول الاشتراكية من ناحية وتقطع الطريق على اية تحركات راديكالية في الدول المستقلة حديثا من ناحية اخرى . كذلك تيسرت لهم اقامة « الستار الحديدي » الذي فرضوه ــ بالمقاطعات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ــ على الشرق الاشتراكي ، بهدف عزله عن العالم الخارجي اولا ومحاولة ضربه من الداخل ــ اذا امكن ــ ثانيا . وكانت حوادث المجر وبولونيا عام ١٩٥٦ نموذجا واضحا لهذه السياسة .

كانت اميركا قد خرجت من الحرب العالمية الثانية بوجه نظيف ، فقد حاربت النازية من جهة ، ولم يكن لها سجل حافل بالاستعمار العسكري المباشر ــ كما هو شأن بريطانيا وفرنسا ــ من جهة ثانية . وكانت الامبراطوريتان العجوزتان قد شاختا ، بالقصور الذاتي وباشتداد سواعد حركات التحرر الوطني في المستعمرات .

وكما ان الحرب الثانية قد اسفرت على الشاطىء الغربي عن انتصار « الديمقراطية » ، فقد اسفرت على الشاطىء الشرقي عن انتصار

« الاشتراكية » بخروجها من عنق الزجاجة وتحولها من نظام بلد واحد الى نظام عالمي بدأ بشرق اوروبا ثم ترعرع في آسيا بين عامي ٤٩ و ١٩٥٠ حيث نجحت الصين في انجاز ثورتها وحيث نجحت كوريا الشمالية في الفوز بأستقلالها ، وكانت فيتنام العم هوشي قد أنجزت ثورتها عام ١٩٤٥ .

وتلك كانت أهم ثمرات الحرب الثانية ومتغيراتها الدولية . لقد نجح الغرب حقا بالتحالف مع السوفيات في دحر النازية ، ولكن « عدوا » جديدا انبثق من رماد الحرب له جناحين : اقواهما الاشتراكية كنظام عالمي وثانيهما حركات التحرر الوطني البالغة الاتساع والعمق . وقد تميز الجناح القوي لهذا « العدو » ان يحصل على أسرار الذرة ، فهو قادر على الردع . كما تميز المناخ المواتي للجناح الآخر ــ وهو ضعف الامبراطوريتين التقليديتين ــ بالقدرة على الحركة .

من هنا انطلقت الاستراتيجية الاميركية في تلك المرحلة ، الى حصار الاسرة الاشتراكية على كافة الاصعدة ، ومحاولة « ملء الفراغ » الذي تركته انجلترا وفرنسا بمشاريع ثنائية براقة كالنقطة الرابعة ومعاهدات الدفاع ضد « الخطر الشيوعي » وليبق العالم على حافة الهاوية ما دامت المجازفة باقتحامها مغامرة غير مأمونة العواقب .

.. وقد كانت المرحلة الواقعة بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٢ امتحانا عسيرا للاستراتيجية الاميركية ، ذلك أنها لم تستطع الاطاحة بالنظام الاشتراكي في المجر ، كما أن الثورة المصرية التي انتصرت بقيادة جمال عبد الناصر على العدوان الثلاثي في معركة السويس المجيدة رفضت ان يحل الاميركيون مكان الاباطرة القدامى ، رفضت حلف بغداد واصبحت « ملهما » لعديد من الثورات الوطنية ، في مقدمتها ثورة بغداد ذاتها والجزائر وغيرها من حركات التحرر الوطني العالمية التي لم تقبل النفوذ الاميركي بديلا للنفوذ الانجليزي او الفرنسي ، ولم تر في الاتحاد السوفياتي عدوا يهدد أمنها وسلامتها .

وعلى النقيض من ذلك تماما ، لم يقع الاتحاد السوفياتي اسير الحصار الاستعماري المتعدد الجبهات ، ولم يتخذ مواقف رد الفعل السلبي كالانطواء عن الخارج والانكفاء على الداخل ، كالاعتكاف على

الشعارات والجمود في عالم متغير . حدث العكس ، فكان عام ١٩٥٦ بداية التطورات الجديدة التي ادركت اخطــاء الماضــي وتفــادت السلبيات ، وانتصرت الاشتراكية في المجر ، وامتدت الجسور بين الاتحــاد السوفياتي وحركة التحرر الوطني وفي مقدمتها مصر ، وتطورات وسائل العلم ومنجزات التكنولوجيا خاصة في مجال الصواريخ ، وسبقت روسيا الولايات المتحدة في الوصول الى الفضاء الخارجي ، وتمكنت كوبا الصغيرة من التحول الــى الاشتراكية في قلب القارة الاميركية .

كانت السنوات الصعبة في تاريخ الفكــر الاستراتيجي الاميركــي الحديث . لماذا ؟ لان الولايات المتحدة استقبلت متغيرات الحــرب الثانيــة كفرصة مواتية لاحلامها في السيطرة على العالم . انها لم تتكيف مع جوهر هذه المتغيرات ، اي مبدأ التغير . وانما هي حاولت استغلال هــذه المتغيرات ، بتحويلها الى حالة ساكنة . وقد أفرز التناقض بين طبيعة التغير والفهــم الاميركي له تلويث الوجه الاميركي منذ مطلع الستينات بأبشع ألوان الدمامة على الاطلاق : التدخل العسكري المباشر في الحرب الاهلية بجنوب شرقــي آسيا ، والنشاط السافر لوكالة المخابرات المركزية في « العالم الثالث » . وتلك هي المفارقة التراجيدية التي يجب ان تدعو الكثيرين الى طول التأمل ، فقد كانت هذه بداية المرحلة الجديدة التي لم يتزعمها الجنرال ايزنهاور ، بل قادها الشاب الوسيم المثقف جــون كنيدي . ان « الافراد » هم في خاتمة المطاف ممثلو « مصالح » !

● كانت المرحلة الثانية في الاستراتيجية الاميركية هي تثبيت التغير ان جاز التعبير ولوي عنقه ان امكن . وقد بدأ ذلك رسميا بأزمــة خليــج الخنازير ، ثم بحادث الكاريبي الشهير حسب التعبير الشائع عن المواجهــة التي تمت بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . وهي المواجهة التــي انقطعت فيها انفاس البشرية بأسرها ، بعد الانذار الاميركي الى خروتشوف بسحب الصواريخ السوفياتية . قال اشباه المحايدين آنــذاك ان الاتحــاد السوفياتي قد تراجع امام القوة الاميركية حتى لا يتسبب في خراب بــلاده ودمار العالم . وقال الموالون ان اميركا انتصرت بلا زيادة او نقصان . ايــن الحقيقــة ؟

قبل ذلك نسأل : هل كان الاتحاد السوفياتي الذي سبق اميركا فــي ذلك الوقت في تكنولوجيا الفضاء لا يدرك ان اقمار التجسس الاميركية لــم تصور الصواريخ الكوبية ؟

وبعد ذلك نسأل : الم يكن التعهد الاميركي بعدم ضرب كوبا ، ثمنــــا جيدا لسحب الصواريخ ؟

اكاد اقول انها المناورة السوفياتية الاولى التي تبلغ هذه الدرجـــة العالية من الذكاء والاستثناء ، فلم يكن الاتحاد السوفياتي يفكر بأية حـال في ضرب الولايات المتحدة من قاعدة كوبية ، ولكن الارجح انه كان يفكر فـي تثبيت اركان التجربة الاشتراكية الكوبية. وكانت كوبا ــ كما هو معروف ــ في مقدمة جدول أعمال الارهاب الاميركي بقصد النسف من الجذور . بـدا السوفيات بالتهديد ، حصلوا على التعهد ، انسحبوا . هذه هـي المناورة التي أبقت على كوبا الاشتراكية حتى هذه اللحظة ، ولكن الاهم من ذلك انها أكدت التوازن الدقيق بين النظامين العالميين على الصعيد العسكري . وهو التوازن الذي قطع على الولايات المتحدة اي تفكير في حرب ساخنة ، فبعـد ان كان مستبعدا أصبح مستحيلا . ومن هنا بدات ، في واقع الامر ، الحرب الباردة . بدأت تحتل مكانها الاستراتيجي في الفكر السياسي الاميركـي . انها الحرب التي تعتمد على أقصى درجـات العنف غــير النووي ، سواء بالتدخل العسكري المباشر على اراض غير اميركية كما هو الحال في جنوب شرقي آسيا ، او بالتدخل الارهابي المباشر لوكالة المخابرات المركزيـة فـي الدول الوطنية المستقلة حديثا . ولكنها قبل ذلك وبعـده الابقاء على حالـة التوتر الناجمة عن تقسيمات حدود الحرب العالمية الثانية في اوروبا . ومن الطبيعي ان تصبح المانيا ــ شرقا وغربا ــ هي الدائرة الملتهبة ، وان تصبح برلين على وجه التحديد ، هي عود الثقاب .

لذلك اتجهت الاستراتيجية السوفياتية طيلة هذه المرحلة الواقعـة بين عامي ٦٢ و ١٩٦٨ الـى الدعـم العسكـري والاقتصادي والسيـاسي للشعوب المستقلة حديثا دون التدخل في شؤونها الداخلية . كان الفكـــر السوفياتي يرى ان تصنيع هذه البلدان التي يحكمها قادة وطنيون غـــير اشتراكيين ، من الممكن ان يخلق قاعدة انتاجية عريضة تسهم عمليا فــي تطوير البلاد النامية نحو الاشتراكية . وذلك جنبا الى جنب مع الدعـــم السياسي في المؤتمرات الدولية وفي مقدمتها هيئـة الامـــم المتحـــدة . وبالنسبة لفيتنام ، فقد وضع السوفيات كل ثقلهم العسكري الـى جانب جبهة التحرير .

ولكن الاتجاه الاكثر اهمية في الاستراتيجية السوفياتية ابان هـــذه

المرحلة ، كان نحو اوروبا . وكانت فرنسا الديغولية تشكل نقطة ارتكاز في الفكر السياسي السوفياتي ، لتنمية الاتجاهات الاستقلالية الاوروبية ومد الجسور الاقتصادية بين شطري القارة ، والتفكير الاولي في عقد مؤتمر جماعي للامن الاوروبي يأخذ بالاعتبارات الطارئة على خريطة العالم في ذروة اختمار الثورة العلمية التكنولوجية التي قلبت كثيرا من موازين حركة المواصلات بين البشر والافكار على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي ، ولا بد من تجسيد عسكري وسياسي لهذه التحولات العنيفة التي كانت « حركة الطلاب العالمية » مجرد اشارة رمزية لها .

غير ان هذه الفترة شهدت ايضا على الجبهة الشرقية حادثين كبيرين : في اوائل الستينات انفجر الصراع الصيني السوفياتي انفجاره المدوي ، وقرب اواخرها ـ عام ١٩٦٨ ـ حدثت حركة تشيكوسلوفاكيا . ورغم كل ما يمكن ان يقال عن الاسباب والنتائج ، وعن السلبيات والايجابيات ، فلا ريب أن شرخا عميقا أصاب الحركة الثورية في العالم ، لا زالت اصداؤه تتردد حتى يومنا .

وكان الحصاد أليما ، فقد كانت بحق سنوات المد الاميركي في ظل الحرب الباردة . انها سنوات الثورة المضادة في العالم الثالث حيث قضت الانقلابات العسكرية على حكم سوكارنو ونكروما ، والتحول الدكتاتوري في اليونان وحرب الشرق الاوسط . انها ايضا سنوات التوغل الدموي البشع في فيتنام . اما « أوروبا » فقد ظلت في ثلاجة الحرب الباردة .

ولكن هذا المد الاميركي كان وجها واحدا للصورة . اما الوجه الآخر فقد تبدى في اغتيال كنيدي نفسه رئيس البلد « الديمقراطي » وزعيم « العالم الحر » ، بينما تمت تنحية خروشوف برفع الاصابع !! تبدى الوجه الآخر ايضا في حركات الشباب العالمية التي احدثت موجة هائلة من التمرد ، لم تصل الى تخوم الثورة ، ولكنها اجهزت على البقية الباقية من « سمعة » اميركا القديمة . وتحولت فيتنام الى مصيدة لنصف مليون جندي اميركي ومقبرة لستين الفا من شباب الولايات المتحدة ، وامست غاباتها مستنقعا يصعب الخروج من أوحاله .

غير ان الدرس كان فادح الثمن ، للاسرة الاشتراكية وحركة التحرر

الوطني العالمية ، على السواء . كان الدرس يقول ان التعايش السلمي لا يتناقض مع العنف الثوري دون الوقوع في ردود الفعل او الابتزاز . وكان الدرس يقول ان وحدة الحركة الثورية في العالم هي العمود الفقري للانتصار والردع . وكان الدرس أخيرا يقول لا مستقبل للثورة الوطنية اذا فصلت بين الاستقلال السياسي والمضمون الاجتماعي ، فلا مجال في عصر المتغيرات الجديدة للاحتفاظ بالاستقلال الشكلي مجردا من الثورة الاجتماعية ، لا مجال للذبذبة والوسطية والتردد ، لا بد من الحسم .

● ومنذ اواخر الستينات واوائل السبعينات الى وقتنا الحاضر كان « الدرس » يختمر في استراتيجيات العالم كله . لم يتخل أحد عن اسلحته القديمة ، ولكنه حاول ان يستحدث أسلحة جديدة . لم يغير احد هدفه ، ولكنه حاول ان يكتشف وسائل جديدة .

بدأت المرحلة رسميا ، بالاتفاق الرباعي للدول الحليفة في الحرب الثانية ، حول برلينعام ١٩٧١ . بدأت أيضا بالمعاهدات التي امكن توقيعها بين الاتحاد السوفياتي والمانيا الفربية ، وبين المانيا الفربية ودول شرق أوروبا المتاخمة لحدودها عام ١٩٧٢ . كان هذا اول انتصار سوفياتي في اكثر مشكلات اوروبا تعقيدا وحساسية ، وكان اول توقيع حقيقي على نهاية الحرب . وكان بداية ما يسمى بعصر « الانفراج الدولي » حيث بلغ التقدم التكنولوجي لأسلحة الدمار مداه الاقصى ، وتحتم هبوط الخط البياني ، اي الحد من الاسلحة الاستراتيجية بين موسكو وواشنطن . وهو الاتفاق الذي وقعه نيكسون وبريجنيف . وكانت زيارة الرئيس الاميركي للصين قد الفت الوهم بالتشنج الصيني المعروف بحدة الكلام وتناقضه مع الفعل . كذلك تم التوقيع بالاحرف الاولى على اتفاقية باريس بشأن فيتنام بحضور جبهة التحرير .

.. وانسحب الجنود الاميركيون من جنوب فيتنام ، فقال اشباه المحايدين « لا غالب ولا مغلوب ، والامر من قبل ومن بعد لشعب فيتنام » وقال الموالون « بل هو انتصار اميركي لان حكم سايغون لن يزول » .

.. ونشطت الدبلوماسية السوفياتية على جبهتين : الاولى هي الجبهة الاميركية في محادثات فيينا وجنيف للحد من الاسلحة . والثانية

هي الجبهة الاوروبية في اشكال ثنائية مع بريطانيـــا وفرنسا وايطاليـــا والمانيا ، لعقد مؤتمر جماعي للامن الاوروبي .

.. وابان هذه الفترة ــ اي حتى هذا الشهر من عام ١٩٧٥ ــ تمكنت الحركة الثورية في العالم من احراز مجموعة هامة من الانتصارات ، فـــي مقدمتها بغير جدال الانتصار التاريخي لشعب فيتنام الذي اكد ان هنـــاك غالبا ومغلوبا وان الهزيمة الاميركية صارخة للدرجة التـي دفعت السفـير الاميركي في سايغون ان يهرب من فوق سطح منزله في طائـــرة هليوكبتر . كذلك انتصر الشعب الكمبودي في تحرير بلاده من القبضة العميلة ، وهرب « الرؤساء » الكاريكاتوريون ، واحدا بعد الآخر . انتصر العرب في حـــرب اكتوبر المجيدة انتصارا جزئيا ، ايا كانت نتائجه السياسية المعاكسة ، فانه برهن بالدم ان « اسرائيل » ليست اسطورة لا تقهر . وفي ظل الديمقراطية البرجوازية التقليدية ، تمكن الحــزب الشيوعي الايطالــي مـــن اكتساح خصومه في الانتخابات الاخيرة . وفي ظل الوضع البالغ الصعوبة والتعقيــد تمكنت المقاومة الفلسطينية من ان ترفع هامتها في الامم المتحدة وان تنتزع من مخلب الاسد بعضا من حقوقها « المعنوية » الهامة . وبعد حوالي نصف قرن من الحكم الفاشستي في البرتغال ، تمكنت حركة القوات المسلحة من قلب النظام الدكتاتوري والتحضير لنظام ديمقراطي ثوري . وسقط الحكم العسكري في اليونان . والقارة السوداء تحاصر العنصرية الاستعمارية فـي روديسيا وجنوبافريقيا ، والمستعمرات البرتغالية تتحـرر ، والمقاومـــة الارتيرية تتوحد . وفي اليوم الاول من شهر آب ١٩٧٥ يضع فورد توقيعـه على وثيقة هلسنكي ، فقد انعقد مؤتمر الامن الاوروبي الذي ناضلت عنـــه الاسرة الاشتراكية زمنا طويلا .

هل معنى ذلك ان الاستعمار غير جلده ، وان الولايات المتحدة آثرت السلامة ، وانها ستنعزل عن هذه المتغيرات وتنطوي على النفس او أن فورد سيصبح ديغول اميركا ؟

كلا ، فان المرحلة الكيسنجرية في الاستراتيجية الاميركية ابعد مـــا تكون عن هذه الكوابيس عند البعض والاحلام عند البعض الآخر ! انها لـــم تتخل عن اسلحتها التقليدية حتى انها هددت دولا « صديقـــة » باحتـــلال منابع النفط عسكريا ومباشرة . وهي لم تتخل عن اسلحتها التقليدية حتى انها اسقطت حكما ديمقراطيا في شيلي بانقلاب من صناعة الوكالة المركزية .

وهي لم تتخل عن هذه الاسلحة حين حاولت اسقاط المطـــران مكاريوس ونجحت في تمزيق الجزيرة . وهي أيضا لم تتخل عن هذه الاسلحة حـــين شاركت في جحيم بيروت .

ولكن هذه كلها اسلحة تقليدية في مواجهة عصر « الانفراج الدولـــي » الذي يتطلب أسلحة جديدة . واذا كانت وثيقة هلسنكي اقرت الحـــــد الادنى لقواعد الانفراج ، فان اصابع الولايات المتحدة لم تكن بعيدة ـ قبل توقيع الوثيقة ـ عن احداث الهند ، ولم تكن بعيدة ـ بعد توقيع الوثيقة ـ عن احداث بنغلاديش . وهي ايضا ليست بعيدة ـ اثناء التوقيع ـ عـــن احداث البرتغال ومجريات الامور في الشرق الاوسط .

ان اميركا حين وقعت معاهدة باريس حول فيتنام كانت تعلم اكثر من المحايدين والموالين انها مهزومة ، كما انها حين وقعت وثيقة هلسنكي كانت تدري أكثر منهم انها مرغمة . ذلك انها ـ ببساطة ـ امام عصر جديـــد .. فالترجمة الحقيقية للانفراج الدولي تمنع التدخل الخارجـي في الشؤون الداخلية للدول الاخرى ، حيث تنتصر دائما الديمقراطية والاشتراكية .

.. فهل ترفع اميركا الراية البيضاء امام العصر الجديد ؟ هل يمكنها التكيف مع المتغيرات المتلاحقة ؟ ام هي تضيف الى استراتيجيتها ـ التـــي خسرت الحرب الساخنة والباردة ـ عناصر جديدة لوقف التغير في اوروبا وآسيا وافريقيا والشرق الاوسط ؟

المحرر ١٩٧٥/٨/١٨

هل يثمر الانفراج الدولي مدا اميركيا ؟

يضع الانسان العربي على قلبه ، وهو يرى الولايات المتحدة تمد قدما الكترونية في ارض بلاده ، وهو يسمع عن انقلابات متتالية في نيجيريا الافريقية وبنغلاديش الآسيوية وبيرو في اميركا اللاتينية ، وهو يشعر بأن « خطأ ما » وقع في المعادلة الهندية وآخر في الثورة البرتغالية .

ماذا يجري بعد هلسنكي ؟ يتساءل الناس ، لا في بلادنا وحدها ، بل في كل مكان تقريبا . هل بدأ الاميركيون مرحلة « الهجوم المضاد » بعد خروجهم المدوي من كمبوديا وفيتنام ووضعهم الحرج في تايلاند ؟ ام بعد النجاح الشيوعي الكاسح في ايطاليا ، وتعاظم الاستقلال الفرنسي عن السيد الاميركي ؟

واين الاتحاد السوفياتي ، والاسرة الاشتراكية ، وحركات التحرر الوطني في العالم ، هل اكتفى السوفيات بتأمين اوروبا وانشغلوا بالأعداد لمؤتمر الحزب ، وهل بدأت الدول الاشتراكية « بالتعاون » مع جاراتها الغربيات ، وهل انشغلت حركات التحرر الوطني بالخطب النارية — عن الاسلحة النارية — في ساحات المحافل الدولية ؟

كلها تساؤلات بل هموم تؤرق العقل وتكوي القلب بأسياخ محشورة في حياتنا اليومية وكوابيسنا الليلية ، بحيث باب من المستحيل على المرء ان يأكل ويشرب وينام دون هذا الهاجس او ذاك من هواجس الحياة والموت !

ماذا جرى تماما ؟

بالرغم من ظلمة « الصورة القريبة » اراني اجيب بأمانة : ان الوضع الدولي ابعد ما يكون عن « المد الاميركي » الذي كان طيلة سنوات عشر مضت ، وما يجري الآن ليس أكثر من « صراع حاد » تقلصت فيه ومن حوله بعض مناطق النفوذ الاستعماري ، وتقلمت به وخلاله بعض الاظافر والانياب ، ومن ثم اصبحت « المعركة » مكشوفة اكثر من اي وقت مضى ، ولكنها — لهذين السببين — اكثر شراسة وعنفا من اي وقت مضى !

واشرح هذا الكلام ، فاقول :

● ان الخروج الاميركي المدوي من جنوب شرقي آسيا ، لم يكن خروجا جغرافيا من فيتنام وكمبوديا ، وانما كان « الخروج التاريخي » من سياسة التدخل العسكري المباشر في شؤون الدول الاخرى .. وليس التهديد باحتلال منابع النفط الا مناورة سياسية بارعة ، وليست أجهزة الانذار المبكر في سيناء الا وضعا مؤقتا شاذا واستثنائيا ، لا تسمح بتصعيده الجماهير العربية والانظمة الوطنية والمتغيرات المصرية ، فضلا عن الامكانية الواقعية لازالته .

● كان الرد الاميركي على « الخروج التاريخي » ضعيفا ومتهافتا في الشرق الاقصى ، فالمؤامرة « الديمقراطية ! » على حكم انديرا غاندي من ناحية والانقلاب المفاجيء على الشيخ مجيب عبد الرحمن من ناحية اخرى، لا يغيران مطلقا من التضاريس السياسية في المنطقة .. ذلك ان مشكلة الهند كانت وستبقى لامد طويل « الديموقراطية الاقتصادية » التي تتناقض وضعيتها الراهنة مع صيغة الديمقراطية السياسية المطبقة حاليا . ولقد ارادت الاحزاب اليمينية في الهند ان تنفذ من ثغرة هذا التناقض لضرب « الوسط » الذي يمثله حزب المؤتمر . ولكن المشكلة — المأساة ، هي انه اذا كان الوسط يعاني من تمثيله الطبقي في حسم الازمة المستعصية التي لا سبيل لحلها الا بالاشتراكية ، فان اليمين المتطرف (الذي ينادي الآن بالديمقراطية الليبرالية) لن يستطيع محاربة الجوع الا بتوسيع رقعته جنبا الى جنب مع الارهاب !! ولا شك — اذن — ان هناك مشكلة هندية ، ولكنها ليست مشكلة الديمقراطية السياسية بل أزمة الديمقراطية الاقتصادية والعدل الاجتماعي .. حيث لا تستطيع الولايات المتحدة ان تصنع شيئا !

.. والشيء ذاته – تقريبا – في بنغلاديش ، فاذا كانت الاستراتيجية الاميركية الجديدة لم تنجح في قلب الحكم الهندي ، فقد نجحت في قلب الشيخ مجيب عبد الرحمن . ولكن النتيجة واحدة في الحالين ، وهي ان بنغلاديش لن تعود مرة اخرى الى باكستان ، ويبقى غول الجوع هو العدو الحقيقي الذي لا تملك له اميركا ولا اذنابها الجدد حلا . وبالرغم من ان الشيخ مجيب قد تنبه الى جوهر التناقض بين الديمقراطيتين الاقتصادية والسياسية قبل انديرا غاندي ، الا ان « النسيج الملفق » لحكومته هو الذي افسح مجالا لان يقضي عليه احد وزرائه ! وهو التلفيق الذي يعكس « الذبذبة » القاتلة لكافة الانظمة الوسطية ، فليست الدكتاتورية هي البديل للديمقراطية الليبرالية ، وانما الديمقراطية الشعبية هي البديل .

● لم يكن نجاح الشيوعيين الايطاليين عارضا او طارئا ، لقد احرزوا هذا النجاح الساحق عبر ممارسة سياسية طويلة الامد ، ومن خلال برنامج سياسي مطروح على الجماهير الايطالية بصفة يومية ، وعبر نجاحات جزئية ولكنها ذات دلالة حاسمة كالاقتراح الى جانب قانون الطلاق ضد الكنيسة الكاثوليكية والحزب الديمقراطي المسيحي وانصاره ما من العصابات الفاشية الجديدة . كان هذا النجاح الشيوعي الايطالي مؤشرا خطيرا الى أن الانتقال السلمي الى الاشتراكية ممكن بالوسائل الديمقراطية اذا لم يدخل العدوان الخارجي المسلح او بؤر الفاشية في القوات المسلحة .

ولذلك كان الرد الغربي الشامل على التجربة البرتغالية الفريدة في نوعها ، فالعسكريون هم الذين حرصوا على الديمقراطية ، والمدنيون (من اتباع الكنيسة الكاثوليكية والحزب الاشتراكي !!) هم الذين حرقوا ودمروا وقتلوا ووصلوا بالامور الى حافة الحرب الاهلية أو الانقلاب الفاشستي . لذلك وقعت احدى درجات التراجع من جانب العسكريين (الذين يمثلون بدورهم طبقات واتجاهات فكرية مختلفة) بعزل الجنرال كونسالفش وبعض الضباط اليساريين .

واذا كان الدكتور الين‌دي – الطبيب الرومانسي الحالم – قد اخطأ بالجمع الميكانيكي بين الليبرالية والاشتراكية ، فان خطأ اليسار العسكري في البرتغال افدح : لان خمسين عاما من ظلمة النظام الدكتاتوري السابق

لا يعقبها ديمقراطية ليبرالية بأي حال من الاحوال . ولان شراهة اليمين في « المطالب » لا تتوقف عند حد ، والتنازل امامه قيد انملة يغريه بمزيد من النهم والضرب .

ولقد وقع تدخل غربي شامل ومباشر في شؤون البرتغال الداخلية سواء في اجتماع ستوكهولم الذي اداره بسعار جنوني هارولد ولسن رئيس الوزراء البريطاني ، او بالاستنفار الاعلامي الواسع النطاق في باريس ولندن وبون ، وطبعا واشنطن .

ولكن هذا كله لا يفلح في اعادة عقارب الساعة الى الوراء . فالثروات الوطنية التي استعيدت من مخالب الاحتكارات الاجنبية وكبار الرأسماليين لن تعود ، والجنرال سبينولا ـ رمز الثورة المضادة في الخارج ـ لن يعود . والبرتغال بأسرها ، رغم العنف والكنيسة وديماغوجية الأشتراكيين ، لن تعود الى سالزار ، فقد مات نظامه الى الابد .

وتلك هي النقطة الرئيسية ، وغيرها تفاصيل ، فالانعطافة الرئيسية في هيكل النظام قد حدثت وانتهى الامر . ويبقى الصراع بين القوى الاجتماعية المتناقضة ، هو الذي يشكل برتغال المستقبل . والمهم الا يخطيء الطرف الثوري في تحليل المقدمات والنتائج .

★★★

وهكذا . .

فان شكل الصراع بين الاستعمار العالمي وقوى التقدم ، هو الذي تغير ، اصبح اكثر حدة وانفعالا وسفورا . . ولكن خروجه من فيتنام لم يدخل به الهند ، وسقوطه في كمبوديا لا يرتفع به في بنغلادش . كذلك فالمؤشرات الثورية في ايطاليا لم تضع قدمه في البرتغال .

واذن لا بد من الاعتراف بان « الانفراج الدولي » لم يثمر مدا اميركيا، فلنبحث عن الجبهة الاخرى .

المحرر ١٩٧٥/٩/١٦

القسم الثاني

اوراق مصرية بين دجلة والفرات

مقدمـة

منذ عام ١٩٦٩ تعرفت على التجربة العراقية الجديـدة كواحدة من أهم تجارب العالم الثالث وفي طليعة التجارب العربية التي تنشد الانفلات من أسر التخلف .

وقد أتيح لي طيلة السنوات السبع الماضية أن أشهد عـلى الطبيعة ، وعاما بعد عام ، حجم التحديات التي تصادف التجربة الوطنية في العراق ، وسبل التغلب عليها .

كان أمام التجربة على الصعيـد السياسي الداخلي ، مهمـة شاقـة وعسيرة ، هي استخلاص العبر مـن الماضي القريب ، وكيف أدى التناحر الدموي بين فصائل الحركة الوطنية الى أن يظل العراق دائما عـلى حافة الهاوية ، بعيدا عن الاستقرار والبناء والمشاركة الفاعلـة في مصير أمته . كانت الرواسب كالصخور تعرقل مجرى النهر مـن المنبع الـى المصب . لذلك كان البند الاول في جدول أعمال السلطة الجديدة عام ١٩٦٨ هـو وضع حد للتدهور والانطلاق في تأسيس جبهة وطنية تقدمية ديموقراطية عريضة ، تصفي ميراث الماضي وتتحالف في تهيئة اجـواء الحاضر وتنظـر دوما صوب المستقبل . كان المطلوب هـو اعادة التناقضات الثانوية بين أطراف التحالف الوطني الـى موضعها الطبيعي ، وأن يتحـدد التناقض الرئيسي بشكل قاطع بين هذه الاطراف مجتمعة مـن ناحية ، والاستعمار والصهيونية من ناحية أخرى .

ولأن الثورة ليست بأية حال تعويذة سحرية تغير الواقع بين غمضة عين وانتباهتها ، فان قيام الجبهة كان ولا يزال عملا يوميا وممارسة حية موصولة بالشد والجذب بين القديم والجديد وبين الماضي والمستقبل وبين السلبي والايجابي • ولكنها تبقى دائما « بوصلة الاتجاه » الـذي تعمل على ارسائه وتثبيته وتطويره التجربة الوطنية الجديدة في العراق •

وكان أمام التجربة عـلى الصعيد السياسي القومي ، مهمة لا تقـل عسرا ولا صعوبة •• فكما ان المرحلة الماضية قد حفلت بالتمزقات الداخلية فانها حفلت أيضا بتمزق الاواصر بين العراق ومحيطه القومـي • ولم تكن مسيرة الحل سهلة على الاطلاق ، فالساحة العربية منذ عدوان ٦٧ تفرقت بها الدروب من الهزيمة الى حرب تشرين الـى اتفاقية سيناء الـى الحرب الاهلية في لبنـان • اختلطت الاوراق وتبدلت المحـاور بـل واختلفـت ــ حتى ــ ستراتيجيات • فما العمل ؟ كان أمـام العراق ثلاثـة حلول : أولها وأيسرها الاعتكاف والعزلـة والانكفاء عـلى مـا يسمى بالبنـاء الداخلي ، وكفى المؤمنين شر القتال • والحـل الثاني هـو الدخول مـن الباب العريض لسياسة المحاور تحت أي شعار ديماغوجي • والحل الثالث هو المنظور القومي الشامل بالافصاح عـن الموقف المبدئـي أمـام جميع الاطراف الرسمية واقامة الجسور المتينة الاركان مـع الشعب العربي في مختلف الاقطار •

وقد اختار العراق الطريق الثالث ، فلم ينكفىء على نفسه ــ وهـو البلد الغني بالطاقة ــ ولم يدخل في محور مع أي طرف آخر ، ولكنه ظل يتخذ الموقف المبدأية من القضايا المطروحة عـلى الصعيد القومي ويبني الجسور القوية مع الشعب العربي في مصر وفي سوريـا وفي الاردن وفي اليمن وفي لبنان وفي السودان وفي كـل قطـر عربـي • رفض التسوية السلمية بدءا من قرار مجلس الامن الشهير برقم ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ وانتهاء

باتفاقية سيناء في أول أيلول ١٩٧٥ ولكنه فتح أراضيه الزراعية لاستقبال الفلاحين المصريين وفتح ملفا كبيرا للمشروعات المشتركة مع مصر وسوريا والاردن • وبدلا من آن تهاجر الادمغة العربية الى الغرب فتح لها مجالات العمل بغير حدود • وأقام على الصعيد الثقافي أقوى العلاقات وأمتنها مع صفوة المثقفين العــرب وخاصة في صفوف المناضلين منهم • وفي حــرب تشرين قدم أغلى عطاءاته القومية علــى الاطلاق ، حين أسهم بجيش ثالث في المعركة الى جانب الجيشين المصري والسوري ، فلــم يكتف بقــوات رمزية يبرىء بها الذمة ويبرر الشعارات ، بل خاض الحرب بقوات كثيفة وعتاد كثيف وأحرز البطولات • ولمــا بدأت رحلة التسوية لم يكن أمامه سوى الانسحاب •

وكان أمام التجربة العراقية مهمة مزدوجة ــ قومية اقليمية ــ ظلت لأمد طويل جرحا مفتوحا يستنزف الجهد والطاقة والدم • عالجه الكثيرون من قبل بأسنة الحراب والدكتاتورية ، فكــان الجــرح يتسع والنــزف يستمر • كان أمام التجربة أن تصفي جيب التمرد البرزانــي وتستعيــد وحدة الارض العربية والتراب العراقي • ولذلــك أصدرت قيادة مجلس الثورة بيان ١١ أذار عام ١٩٧١ للحكم الذاتي وبدأت حوارا صعبا طيلــة أربع سنوات على اكثر من جبهة انتهت عمليــا بانهيــار التمرد البرزاني ، وتأسيس الحكم الذاتي للاكراد ضمن السيادة العراقية للدولة الواحدة •

ولكن مهمة المهام التي واجهتها التجربة العراقية هــي قضية التخلف بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والمحليــة والعربية • ولقــد حاولت ان ترى التخلف في عمق أعماقه لا مــن قشرته الخارجية • فلبنان ــ مثــلا ــ قدم نموذجا للتقدم الحضاري الظاهري ، وجاءت احــداث ٧٥ ــ ١٩٧٦ لتثبت بالدليل الدموي الدامغ مدى « التخلف » اللبناني الــذي يرسخ اجتماعيا أركان الطائفية وأركان الفقر ، ويكرس اقتصاديا جراثيم التبعية

المطلقة للرأسمالية العالمية ، ويجذر سياسيا منطلقات التهادن مع الاستعمار والصهيونية والرجعية المحلية والعربية • كـل ذلـك رغم أنف الواجهات والفاترينات وأحدث منجزات التكنولوجيا • رأت التجربـة العراقية أن التخلف ليس كامنا فحسب في مجموعة العادات والتقاليد والسلوك ، بـل هو غائر في أعماق التربة الاقتصادية وعلاقات الانتـاج وفي أعماق التربة الاجتماعية ووسائل الانتاج وفي أعماق التربة السياسية وقيم الانتاج •

لذلك كان تأميم الثروة الوطنية الاولـى ـ النفط ـ تأميما كليـا وشاملا هو الخطـوة الحاسمة لـدرء التخلف وتوابعـه • ان الثـورة لا تستعيد بهذا التأميم حقا للوطن كان مغتصبا مـن شركات الاحتكـار الاجنبية فحسب ، ولا هـي تطرق أبواب التحول الـى مجتمع اشتراكي فقط ، ولكنها تفتح للمرة الاولى في تاريخ العراق الحديث باب التقـدم الحضاري والنهضة ، انها تكسر أولا الطوق الجهنمي للاستعمار الجديد ، وبذلك تؤدي دورا تاريخيا عـلى الصعيد القومي ـ كالدور الـذي أداه عبد الناصر بتأميم السويس ـ بتطويـق النفـوذ الامبريالـي في الوطن العربي • ورغم أن متغيرات العصر الجديد لا تسمح بعدوان شبيه بعدوان ١٩٥٦ الا" أن الخطر كان جاثما • ولولا صمود السلطة الثورية والشعب العربي في العراق صمودا بطوليـا حازمـا ، لمـا مـرت قرارات التأميم التاريخية التي أنجزت الخطوة الاولى والحاسمة لدرء التخلف ، وبلورت الاسس الموضوعية للتحالف الوطني الديموقراطي بأن غيرت موازين القوى الاجتماعية لمصلحـة الطبقـات الشعبيـة • وأصبحت « التنميـة » و « التحديث » هما الشغل الشاغـل لتغيير البنـى الاقتصاديـة والقيم الاجتماعية وهياكل الانتاج وغايات التطور ووسائل النهضة •

* * *

ولكن المسيرة طويلة طويلة •••

ولا يحق للمرء أن يتخيل « المشكلات » وقد انتهت و « الرواسب » وقد صفيت و « الجبهات المعادية » وقد استسلمت !

كــلا

فلا زال التحدي رابضا أمام التجربة العربية في العراق ، وخلفها •• لا زال الماضي كامنا وقائما ، ولا زال المستقبل احتمالا وامكانــا • فالزمن بشقيه ــ القديم والجديد ، الذي ذهب والآتي غدا ــ هو محور الصراع المثير الذي تجابهه التجربة الوطنية في العراق • ومنجزاتها الايجابية كلها ليست اكثر من خطوة في طريق طوله ألف ميل • وهنــاك مسافات يمكن اختصارها وأحيانا اختزالها دون ان يؤدي هذا « الايجاز » الى « خلل » في المسيرة • ولكن هناك مسافات أخرى لا سبيــل لتجاوزها دون ضابط الزمن •

ان هذه التجربة البالغة الاهمية في تاريخنا العربي الحديث ، تناضل على جبهتين : الاولى هي جبهة « الثوابت الرواسخ » كما يسمون الماضي بكل أثقاله الظاهرة والباطنة • والثانية هــي جبهــة « المستقبل » حيث لا ينتظر أحد أحدا ، وحيث معدلات السرعــة التــي يمضي بهــا ركب الحضارة يفوق كل تصور • انها ــ هذه التجربة القادمة من احدى أعرق حضارات العالم القديم ــ تجتاز أخطر مراحل « النهضة » مــن الموت ، مرحلة الانتقال التاريخية من اكفان الماضي الى شرفة العصر •

وقد كنت قريبا ــ غاية القرب في بعض الاوقات ــ من هذه التجربة وهي تعاني آلام المخاض والولادة والنمو •

وهنا ، أحاول أن أشهد بما رأيت ؟

ربما كانت التجربة الثورية في العراق منذ عـــام ١٩٦٨ هـــي احطر الردود الايجابية على هزيمة ١٩٦٧ فبالرغم مـــن ان التناقضات الداخلية في المجتمع العراقي هي التي بلورت التجربة الجديدة واثمرتها ، الا ان ميلادها في ظلام الهزيمة وسواد ايامها كان بشيرا بان عام ٦٧ ليس نهاية التاريخ في حياة هذه الامة وكان تحذيرا واضحا لقـــوى الاستعمار والصهيونية بـان الطاقات الكامنة في الارض العربية لا تنفد . وبالتالي فـلا ينبغي النظر الى خرائب حزيران وانقاضه وكأنها الكلمة الاخيرة في الصراع الدائـــر ، انهـا ليست اكثر من ديكور مؤقت يخفي عن العيون القصيرة النظر امكانات هائلة وقدرة لا حد لها على الرد .

ولم يكن هذا التحذير العراقي عـــام ١٩٦٨ موجهـــا فحسب الـى الاستعمار والصهيونية ، وانما كان موجها بنفس المقدار واكثر الى « روح اليأس » التي شملت قطاعات عريضة مـــن قوى النضال الوطنـي . كان « حجم » الهزيمة قد روعها ، وكانت الرجعية قد تفاعلت بالوضع الجديـد الطارىء وراحت تكافح لتثبيته نهائيا بأن نشطت في ترويـج ايديولوجيتها التدميرية والتي يمكن ايجازهـــا في ان « الاشتراكيـــة » هـــي السبب ، و « العروبة » هـــي السبب ، و « العلمنة » هـــي السبب ، و « الصداقـة العربية السوفيتية » هي السبب . وكان العلاج الرجعي جاهـزا ، فاكسير الحياة هو العودة الى الرأسمالية والغرب والدين والاقليمية وامريكا .

واقبل تموز العراقي عام ٦٨ ليقول لا ! ليقـول العكس تماما : فـلان التجول الاشتراكي كان مليئا بالثغرات ، ولان العروبـة كانت شعارا اكثـر

منها نضالا ، ولأن الغيبيات سادت اكثر مـن العلم ، ولان الصداقة مـع السوفييت كانت لعبا على الحبال .. وقعت الهزيمة !

ولم يجيء تموز العراقي عام ٦٨ من فراغ او كـرد فعل عفوي على السواد الشامل . وانما هو قد اتى تتويجا لمسيرة مـرة وصعبـة ومرهقة ومثقلة بالجراح . انه ــ في التحليل الاخير ــ ليس مفاجأة ، اي انه بالتعبير السياسي ليس مغامرة ، وانما هو نقطة التحول الكيفية بعد سلسلة معقدة من التراكمات الكمية التي بدأت في تاريـخ العراق الحديث باليوم الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ .

واقد افاض الميثاق الوطني في شرح وتحليل السلبيات الدامية التـي اعترضت طريق التجربة لفترة عشر سنوات . امـا كتاب الرفيق صدام حسين الذي صدر مؤخرا بعنوان « احاديث في القضايـا الراهنـة » فيلقي الاضواء على السنوات الست التالية : عمر التجربة الجديدة حتى الآن .

والكتاب من حيث الشكل يستوجب وقفة تأمـل .. فهـو ليس « تأليفا » اكاديميا تطلب من صاحبه ان يعتزل الناس في برج مـن العـاج ليفكر . وانما هو اشبه ما يكون بالممارسة العملية وقد نطقت فكـرا اثناء العمل . لقد القى صدام حسين هـذه المجموعة مـن الاحاديث في المواقع الامامية من الجبهة ، وهو يقاتل من اجل التأميم ، من اجل الجبهة الوطنية، من اجل الحكم الذاتي ؛ من اجل عروبة فلسطين . وسواء كان مع الجماهير مباشرة او مع الكادر او مع الصحفيين فانه لـم يكن يلقي محاضرة ، وانما كان يفكر بصوت عال . كان يقدم للناس دماء التجربة وقـد اتخذت هيئـة الكلمات .

ولعل الملاحظة الاولى على « الشكل » ايضا هو ان طريقة القاء هـذه الاحاديث تتسم بالانسياب العفوي رغم تعقيدات الموضوع احيانا وصعوبته احيانا اخرى .. مما يدل على استيعاب صاحبها وتمثله الشديـد للقضية المطروحة بحيث لا يحتاج الى « مذكرات » ولا الـى لهجـة عالية النبرة . ليست هناك مسافة بينه وبين الموضوع الذي يتكلم فيه ، ومـن ثم لم يكن بحاجة الى مـا يغطي هذه المسافة من بهارج لفظية ، او تعميمات او انشاء حماسي او تردد وتلكؤ في التعبير . وانما يلحظ المرء بوضوح ان الكلمة عنده أحد اشكال الفعل ، انه لا يفعل ما يقول فحسب بل هو يفعل بما يقول .

والملاحظة الثانية على « الشكل » هـــو ايمان صاحب الاحاديث .. وحرارة الايمان لا يخطئها الحس ، انهـــا تظهر في اختيار الكلمـة وتركيب الجملة واتساق الفقرة وترابط السياق ، دون اللجوء الـى اقنعة البلاغـة او الهروب الى مسارب خفية او المزايدة القصيرة النفس ولا المناقصة باسم المرونة او المناورة .

والملاحظة الثالثة على « الشكل » هي ان هـذه المجموعة من الاحاديث تحدد ملامح جيل جديد من القيادات الثورية العربية . ان صدام حسين في كتابه « احاديث في القضايا الراهنة » نموذج لهـــذه القيادة التـي ترفض الصورة الكلاسيكية للحكام العرب ، كما ترفض الصورة التـي استحدثتها الاردية العسكرية في الوطن العربي ، وما يسمى بالعالم الثالث . انه نموذج القائد الذي يرتبط مصيره بحركـــة الثورة والشعب ، لا بتوازنات القوى البيروقراطية او القبلية . هذا الارتباط المصيري ينعكس يوميا علـى الفكر والسلوك ، فالقرار واسلوب اتخاذه ــ من موقع السلطة ــ يحتاج الـــى القائد الثوري الذي يفرق بين مسؤوليات رجـــل الدولة ورجل الحزب . ولكن دون ان تهدر البيروقراطية مضمونه الثوري ودون ان تضيق النظـرة الحزبية عن استيعاب المسؤولية الوطنية والقومية .

وكتاب « احاديث في القضايا الراهنة » يبرهن على ان صاحبه يقـدم في فكره وسلوكه هذا النموذج الجديد للقائد الثوري . لقد عاش وشارك في بناء تجربة ٦٨ من موقعه القيادي وهو يعي « ان الاستعمار ادرك وبشكـل نهائي ، وبالذات في عام ١٩٧٢ ان الثورة في القطـر العراقي تجاوزت حدود الثورة (المسموح بها) والتي اعتاد ان يراها في بلـدان العالم الثالث ، او في اغلب بلدان العالم الثالث وبالذات في المنطقـــة العربيـــة ، ونحن نعلم ان الاستعمار وعملاءه قدروا ان الاسس والصيغ التـي يجري التعامل بها من قبل الثورة ستوصل الى نتائج لن تبقي للاستعمار مصالح في هذه المنطقة ، وسوف تشعل حرائق في ما حول العراق ، تؤثر عـــلى مصالحه الاساسية وبالذات المصالح البترولية » .

لماذا عام ١٩٧٢ بالذات ، يرى صدام حسين ان القـوى الاستعمارية ادركت ان التجربة الثورية في العراق تخرج عـــن نطـــاق « الثـورات » المسموح بها ؟

لانه اذا كان تأميم السويس عام ١٩٥٦ كان البداية الصحيحة لمنهج النضال القومي العربي ضد الاستعمار ، فقد ظل البترول ستة عشر عاما بعد هذا التاريخ وكأنه من المحرمات التي لا تمس ، وكأنه من الجنون ان يمس .. تماما كما كان يقال عن قناة السويس . واذا كانت شمس الامبراطوريتين الانجليزية والفرنسية قد غربت ، فان الامبراطورية الامريكية في اوج قوتها . ومن هنا جاء تأميم النفط العراقي عام ٧٢ نقطة تحول جذرية ثانية ــ بعد النقطة الاولى في السويس ــ لا يقتصر مفعولها ولا مردودها على القطر العراقي وحده وانما يشمل الارض العربية كلها . ولم يكن تأميم النفط في العراق رد فعل عصبيا او وفق منهج تجريبي يقيم التوازنات الدولية، وانما كان تطبيقا ثوريا لفكر ثوري متكامل .. فلم يكن من المستطاع اقامة اقتصاد وطني سليم وخطة تنمية لدرء التخلف وتصفية النفوذ الاقطاعي والبرجوازي الكبير ، دون تأميم النفط .. والا اتسعت الهوة بين الشعارات الثورية ــ المسموح بها !! ــ وبين الواقع المتردي الى هاوية سحيقة ، كما كان الامر قبيل تموز ١٩٦٨ هذا هو الوجه المحلي لتجربة التأميم . ومن شأنه ان يعيد الى الشعب العربي في العراق ثروته الوطنية الطبيعية ، وان يقطع على الشرائح الطبقية الممتازة سبل اعتمادها على الاجنبي ، وان يتيح للجماهير العريضة امالا واقعية في درء التخلف والتضخم معا ، في بناء خطة تنمية اقتصادية واجتماعية معا .

اما على الصعيد القومي ، فقد جاء تأميم النفط في العراق نموذجا وقدوة للاقطار والانظمة التي تتردد او تخاف ، وفضحا القيادات التي ترى من مصلحتها بقاء الحال في دائرة المحرمات . كما ان هذا التأميم وقد تقاصت معه الشركات الاحتكارية في احد اجزاء الوطن العربي ، فانه انعكس ــ بغير شك ــ على النفوذ الاستعماري في المنطقة ، كما اضاف الى الوقود العربي في المعركة ضد الكيان الصهيوني زادا جديدا . كذلك فان عائدات البترول العربي في العراق ، لم تعد حكرا لاحدى الطبقات الضيقة الافق القومي ، بل اصبحت في متناول الشعب العربي اينما وجد ، في خدمة نضاله الاقتصادي والاجتماعي .

وعلى الصعيد الدولي كان الاثر واضحا ، فرغم المخاطر ، كان التفاف الشعب حول التأميم سدا منيعا في وجه المحاولات اليائسة للشركات الاستعمارية . كما ان مرونة القيادة ورؤيتها الاستراتيجية فرقت بحسم

بين الاعداء والاصدقاء ، بحيث نجحت التجربة دون عدوان جديد كالذي حدث عام ١٩٥٦ .

هكذا يصدق الرفيق صدام حسين حين يقول ان الاستعمار ادرك عام ٧٢ ان الثورة في العراق تختلف عن الثورات المسموح بها . وخاصة ان هذا العام قد شهد تطورا ديناميكيا في العلاقات العراقية السوفياتية حين ابرمت معاهدة التعاون بين الاتحاد السوفياتي والعراق . هكذا ترافقت الضربة الاقتصادية للاستعمار مع السياج السياسي المتين الذي شيده التحالف الموضوعي بين الثورة الاشتراكية الاولى والتجربة الثورية الجديدة في بغداد .

ولقد كان هذا التحول الاقتصادي الخطير في حياة العراق الجديد ، بذرة موضوعية جديدة تضاف الى الضرورات القائمة من قبل لاقامة جبهة وطنية تقدمية ديموقراطية واسعة بين صفوف الشعب . التأميم في خاتمة المطاف ليس نضالا وطنيا فحسب ضد القوى الاستعمارية ، وانما هو اولا واخيرا نضال اجتماعي منحاز للطبقات الشعبية والوطنية . لذلك كان من الضروري ان يتخذ التحالف بين هذه الطبقات ذات المصلحة في كافة الاجراءات التقدمية وفي مقدمتها تأميم النفط ، صيغة جديدة . وكانت الجبهة الوطنية التقدمية هي هذه الصيغة الديموقراطية التي قدمتها الثورة في العراق نموذجا رائدا .

ان ضرورات هذه الجبهة كانت قائمة قبل ١٩٦٨ بل وقد عرفت هذه الجبهة اشكالا من التنفيذ قبل هذا التاريخ اثناء النضال المشترك السابق . ولكن تراكم السلبيات ومراراتها قد حالت كثيرا دون تجاوز « الذات » الى « الموضوع » . ولعلها من مفاخر تموز ١٩٦٨ أن جعل من قضية الجبهة بندا اول في جدول الاعمال . وجنبا الى جنب مع التحولات الاقتصادية كانت تجري التحولات السياسية ، حتى اصبحت الجبهة واقعا يحتاج دوما الى التطوير .. فالتراث السلبي لا يتبخر من الصدور بين يوم وليلة ولا في سنة او سنتين ، وانما هو يحتاج الى نضال مستمر من جانب كافة الاطراف . وتلك هي النقطة التي اشار اليها صدام حسين في كتابه مرتين : الاولى كمبدأ اساسي اذ « ليس لدينا حكم مسبق على احد . ولا نقصد عزل جهة او فئة او حزب . اننا نجد انفسنا في حاجة الى الرضيع من ابناء

هذا البلد ، فمن باب أولى نجد انفسنا الى كـــل الاحزاب الوطنية .. أن صيغة الحاجة هذه ، صيغة مبدئية وليست صيغة مؤقتة او عرضية » .

وفي المرة الثانية لا يضع على عينيه ولا عـــلى عيون الآخرين عصابـة سوداء حتى لا ترى ، وانما هو يكشف كـل شيء ويعري كـــل السلبيات ويضع اصبعه بشجاعة داخل الجرح فيقول « .. أما عــن الجبهة الوطنية وهل بلغت مستوى من العمق والتفاعل والقوة بين القواعــد الحزبية بحيث تؤدي مهامها ؟ فأقول : نحن نطمح ونعمل على جعل الجبهة الوطنية صيغـة فعالة في بناء المجتمع الجديد وفي تعبئة الجماهير باتجـــاه اهــداف الثورة واهداف الميثاق . ولكن هل الصيغة الحالية هي ، كما نطمح ، على مستوى كل فرعياتها ؟ اما على المستوى المركزي فنعم ، اما على مستوى الفرعيات فلا . وما نتساءل عنه هو : هل بلغت مستوى الكمال ؟ الجواب لا . ان ذلك مرتبط بالزمن ومرتبط بكل التراث السلبي للعراق . هـــذا التراث الذي تخطيناه فكرا وممارسة على مستوى القيادات والكادر المتقدم وعلى مستوى القسم الاكبر من اجهزتنا الحزبية » .

تلك هي شجاعة القائد البصير ، لا يترك حتـى للهمسات ــ الصادقة او الشامتة ــ مجالا لان تنخر كيان التجربة الوليدة . وكتأميم النفط كانت الصيغة الديموقراطية للجبهة ضربة حاسمة للقوى الاستعمارية ذات المصلحة في تمزق الصف الوطني ،وللرجعية المحلية ذات المخالب والانياب والاظافر المستوردة في قفازات حريرية والملونة بمختلف صنوف الماكياج . كما انهـا كانت نموذجا لبقية الاقطار العربية التي لا زالت قواهـا الوطنية مبعثرة او ممزقة .

ولعل الدرس الخطير الذي تقدمه التجربة الثورية في العراق يتضمن اكثر من دلالة . لقد ولدت الجبهة في قطر بلـغ الصراع بين صفوفه الوطنية مرحلة العنف الدموي ، ومع هـــذا حتمت الضرورات الموضوعية التحالف الديموقراطي .. حتمته بشرط واحد جوهري هــو توفر القيادات القادرة على تجاوز ذاتيتها والالتحام بالقضية الوطنيـــة وجماهير الشعب . لذلك نجح العراق . والدلالــة الاخرى التي لا تقـل اهمية هي ان الجبهة ليست ديكورا متكاملا مزينا بالشعارات . وانما هي مولود حي يحتاج الـى الرعاية والتغذية والنمو ، انها مضمون ديناميكي قابل للتطور ، يلفظ السلبيات في

بطء ، ولكنه يستقبل الايجابيات ويدعمها يوما بعد يوم .

التأميم والجبهة ! ماذا بعد ؟ ماذا بعد تأسيس النواة الصلبة للاقتصاد الوطني المستقل والنواة الصلبة للتحالف الديموقراطي ؟

يبقى ان العراق ليس قومية واحدة .. فالى جانب القومية العربية هناك القومية الكردية وبعض الاقليات . وقد كان قانون الحكم الذاتي والميثاق الوطني ولا يزالان بمثابة الحل الموضوعي لهذه الازمة المعقدة .. ولكن اصحاب المصلحة المعادية للثورة داخل صفوف الاكراد وخارجهم . خلقت وتخلق العراقيل في وجه التحول الجديد . ان ما كانت تطالب به منذ عشرات السنين قد اصبح موادا دستورية ، بل واكثر مما كانت تحلم به .. ومع ذلك فالامر ليس بهذه البساطة ، يقول صدام حسين « ان المجتمع العراقي والشعب العراقي والثورة في هذا القطر اصبحت مستهدفة . والاستهداف يتصاعد بقدر تصاعد الخطوات العملاقة لضرب ركائز الامبريالية وبناء المجتمع الجديد . وفي الوقت نفسه تتصاعد بعض مؤامرات الرجعيين من خلف الحدود ، بقدر جدية الخطوات على طريق الحكم الذاتي . يجب ان لا نفصل مطلقا بين ما يقع من تحرشات على الحدود وبين رغبة تلك التحرشات في منعنا ، من خلال التلويح باضعافنا ، من ان نطبق الحكم الذاتي » .

هكذا يعالج القائد الثوري ابعاد المشكلة في صورتها الجدلية وبرؤياه الشاملة .. فالامبريالية الامريكية لا تكف عن محاولة تطويق الثورة العربية في العراق ، بتأزيم المشكلة الكردية ، بتسليح ايران ، بتهديد منابع النفط ، باسرائيل ، بالرجعيات البترولية المحيطة .

ولكن المسيرة تمضي ... تنزع الالغام وترفع الاسلاك الشائكة من حولها ، بمرونة الثوار وحسمهم . ويبقى كتاب الرفيق صدام حسين « احاديث في القضايا الراهنة » نبراسا مضيئا لمختلف المناضلين الذين يشقون طريقا وعرا طويلا .. ولكنه الطريق الوحيد !

الدستور ١٩٧٤/١٢/٣٠

١ ــ الخطوة الاولى من البــاب الضيق

. . . ولنتخذ من العراق نموذجا لاحد اقطار الوطن العربي ــ المنتمي مجازا الى ما يسمى بالعالم الثالث ــ لنختبر الوسائل التي يمكن ان تخرج بهذا النموذج من مأزق التخلف الى رحاب التقدم .

والعراق ، كمصر والجزائر وسوريا ، يعتمد التنمية الاقتصادية تحت سيطرة القطاع العام ، طريقا الى الاستقلال الوطني المفتوح عــلى التقــدم الاجتماعي . . وبالتالي ، فهو على النقيض من النموذج الذي تمثله الكويت او لبنان حيث ان رأس المال الخاص المرتبط عضويا بالشركات الاجنبية هو سيد مجتمع الاستهلاك وحضارة « الخدمات » .

« الانتاج » في العراق ، كما هي الحال في الجزائــر وليبيا والسعودية والكويت ، يقوم اساسا على « النفط » ، ولكن «التأميم» يغير مسار التنمية الاقتصادية عن الوجهة التي تتخذها السعودية والكويت . .

وقد كان تأميم النفط في العراق ولا يزال بمثابة « سويس اخرى » في التاريخ العربي المعاصر . . فهو ليس مجرد « اجراء » او « قرار » داخلي ، وانما هو « منهج » في التنمية . . طريق للتطور . . نموذج حضاري . هكذا كانت معركة تأميم القناة عام ١٩٥٦ . وكما ان هــذه المعركــة كانت تجربة رائدة على صعيد الاقتصاد الوطني للدول المتخلفة ، عانت مصر مــن جرائها الويلات حتى عام ١٩٧٣ ، فان تأميم النفط العراقي كان تجربة رائدة للدول المتخلفة التي تملك « الطاقة » . وقد كانت « السويس » بدايــة قوميــة انطلقت من مصر ، كذلك النفط العراقي لم يكن عملا اقليميا بــل بدايــة قومية انطلقت من بغداد . وكانت « السويس » بداية التأميمات الناصريــة

لوسائل الانتاج التي توجتها قرارات تموز ١٩٦١ . وكـــان تأميم النفط في العراق تتويجا لسلسلة التأميمات التي بدأت في ١٤ تموز ١٩٥٨ .

ما العلاقة بين التأميم والحضارة ؟

انه الاختيار الصعب بين طريقين لا ثالث لهما : اولهما خلــق مجتمع الانتاج ، والاخر تنمية مجتمع الاستهلاك .

والامر ، من قبل ومن بعد ، ليس اختيارا ذاتيــا ، ولا رغبة مزاجية ، وانما الاختيار يجيء نقطة في سيـــاق التطور الاجتماعي ، نقطــة في حلبــة الصراع الطبقي تسجلهااحدى او بعض الشرائــح والطبقات الاجتماعية ضد « القوى » الاخرى .

وتأميم قناة السويس او النفط العراقي كان ولا يزال انتصارا للقوى الوطنية على القوى الكمبرادورية ، كان انتصارا لقـــوى « الانتاج » عــلى وكلاء « الاستهلاك » ... كان نقطة ارتكاز للاساس المادي الذي شيد فوقه مجتمع يسعى الى النهوض الحضاري الحقيقـــي ، ولا يلهث وراء المغريات السريعة العاجلة من السلع والخدمات المستوردة من الغرب .

ومن الطبيعي لنقطةبداية ــ من هـــذا النوع ــ ان تكـــون اصعب المراحل على الاطلاق في تاريخ احد الشعوب .. فالفئات الخاسرة من الفئات الطفيلية على الانتاج لن تجد لها مكانا للنهب والسلب والمتعــة . والطبقات الواسعة من الجماهير الوطنية لن تجد مردودا سريعا يفسر لها هذا الاجراء الجذري . والاحتكارات الاجنبية ــ اي الاستعمار ــ سوف تولــول عــلى « الحريات الاقتصادية » التي اغتيلت في وضح النهار .

لذلك كله كانت نقطة البداية هي اصعب المراحل واقساها ..

ومن هنا كانت تحتاج الى مظلة واقية مـــن الغارات البحرية والجوية والارضية التي تشنها القوى المعادية للنهضة ... اقــول « النهضة » فــلا زلنا نتكلم عن الحضارة ، لا الثورة بمعناها الشامل .

كانت تحتاج في مواجهة القوى الاجتماعية الداخلية المستفيدة مـــن مجتمع الاستهلاك والقوى الاجنبية صاحبة المصلحة الرئيسية فيــه ، الــى

« اوسع الحريات الديمقراطية للجماهير » صاحبـــة المصلحـة في التأميم والتنمية والتقدم الحضاري .

وكانت تحتاج ـ في الوقت نفسه ـ الـــى « ثقافة المجتمع الجديد » الذي لا تنفصل فيـــه الاداة التكنولوجيـة والاجـراء الاقتصادي والقرار السياسي عن « منهج للمعرفة » العلمية والوعي الاجتماعي .

وقد حاولت مصر بعد عام ٥٦ وبعـــد قرارات التمصير والتأميم ان تقيم هذين الحاجزين ضد العـــدو الطبقي والقومـي ، فاخفقت في الكثير ونجحت في القليل . ولكنهـــا في اخفاقها ونجاحهـا قدمت ـ خلال هزيمة ٦٧ ـ العبرة والامثولة . وقد كانت التجربـــة المصريـة ولا تزال اخصب التجارب واغناها ، سواء على الصعيد العربي او على صعيد ما يسمى بالعالم الثالث ، بالرغم من ان العبر كثيرة من اندونيسيا الى غانا .

واقبلت ثورة ١٤ تموز ٥٨ في العراق ، ولكنهـا ظلت عشر سنوات في مخاض عسير ليس هنا مجال تفصيله .. حتى كان استئناف المسيرة في ١٧ تموز ١٩٦٨ كواحد من اقوى ردود الفعل الايجابية عـــلى هزيمة حزيران . وكان « الحصاد » امام القيادة الجديدة متوفرا الى اقصى الحدود . عـلى مستوى « القطر » وكانت التمزقات والانفجارات المتوالية قد وصلت بالبلاد الى حافة الارتداء الرجعي المدمر . على مستوى « القطر » كانت التمزقات تجسيدا اليما لكافة السلبيات التي تراكمت فوق التجربة الوطنية وراحت تنخر البناء باكمله من الجذور . ومصر تنزف دما لا يتوقف .

هكذا توصلت القيادة الجديدة في بغداد الى مـا يمكن تسميته باعادة النظر ..

كان « تجانس » الاقتصاد الوطني يحتم عليها ان تتخـذ بعـــد وقت قصير قرارا خطيرا .. لم يكن من المفهوم ان تكـــون هناك ثغـرة واسعة في هيكل الانتاج دون ان تسد باجراء ثوري بدا للكثيرين وقتها انه ضرب مـــن الجنون .. لم يكن من المفهوم ان تضع الدولة يدها عـلى معظم الانتاج فيما عدا « النفط » ! هذا « البعبع » الخطر الذي ارهب الكل حتى ان المساس به اوشك ان يدرج في قائمة المغامرات . وكان المناخ العربـي والدولي بالـغ الصعوبة والتعقيد ومحفوفا بشتى المخاطر ، اكثر كثيرا مما كان عليه الوضع عـام ١٩٥٦ .

وكما روى لي احد القادة المسؤولين هنـــاك ، فان مجموعة الحقائق المحلية والعربية والعالمية ، لو زودنا بهـــا الكمبيوتر لكان جوابه الحتمي : لا تقدموا على هذه الخطوة ! ولكن هنـــاك لحظات تسمو فـــوق الحساب والرياضيات والمعادلات ، هي التي تكسب « الثورة » معناها الصحيح .. قد يسمى « رومانتيكية » او « جنونا » ، ولكنه الثورة الحقيقية مـــا دام الهدف واضحا كالايمان ، والاسلوب واضحا كالصلاة ، فالفعل لـــن تقف امامه الحواجز والسدود . وما كنا نحسبه « اسطورة » يصبح واقعا .

وهكذا كان تأميم النفط ..

وكانت « نقطة البداية » من جديـــد ، لتشكيل « مجتمع الانتاج » ، فالتأميمات السابقة لم تكن لتتكامل في بناء واحد متسق بغير « النفط » .

ولم يعد امرا مهما ان التجربـــة نجحت والتف الشعب العربـــي في العراق حولها التفاف اللحم بالعظم والشريان بالـــدم ... وانمـــا المهم ان القيادة الثورية وجدت نفسها ـ وقد انجزت الاختيار الصعب ـ ان التجربة احوج ما تكون الى المظلـــة الواقية من الغارات .. الـــى « الديمقراطية الواسعة للجماهير » و « ثقافة المجتمع الجديد » . بغير هذين الجناحين لن تستطيع حماية التجربة من اعداء التقدم الحضاري ، لن تحلق بها بعيدا عن التخلف .

اعداؤها الطبقيون في الداخل

واعداؤها القوميون في الخارج

هكذا انبثقت « الجبهة الوطنية التقدمية » ثمرة الضرورة الموضوعية ، وليست وليدة الرغبة والمـــزاج الشخصي .. فرغم الميراث الهائـــل مـــن الاحزان والآلام انطوت الصفحة القديمة وفتحت في تاريخ العراق الحديث صفحة جديدة سجلها ميثاق العمل الوطني منذ سطوره الاولى قائلا : « ان حركة الثورة والتحرر في الوطن العربي عـــلى مختلف فصائلها ، وعبـــر مسيرتها النضالية الطويلة ، قد حققت انتصارات كثيرة وعظيمة ولكنها ، في الوقت نفسه ، قد منيت بهزائم ونكسات خطيرة . ومـــن خلال التجارب العديدة والغنية التي حفلت بهـــا مراحل نضالها المختلفة ، يمكن استخلاص عبر كثيرة تتقدمها حقيقة اساسية هي : ان من ابرز اسباب قدرة الحركات

الثورية في الوطن العربي على تحقيق النصر ، وعيها لـدور العمل المشترك ، والتحالف بين فصائلها . كما ان من ابرز أسباب هزائمها ونكساتها ، نزوع فصائلها الى تغليب التناقضات الثانوية ، في مـا بينها ، عـلى التناقض الرئيسي القائم بينها من جهة ، وبين الاستعمار والصهيونية والرجعية مـن جهة اخرى » .

بهذا الوعي الثوري ولدت « الجبهـة الوطنيـة التقدمية » لتضم في اطارها اوسع الجماهير الوطنية ، ولتحقق الحريات الديمقراطية لطبقـات الشعب القادرة على « الانتاج » الوطني ، وانجـاز التنميـة .. اي دعم الاستقلال الاقتصادي المفتوح على التقدم الاجتماعي .

وبقي السلاح الاخر ، وهو ثقافة المجتمع الجديد . هنا ، يقول ايضا الميثاق . « أن اعلام الثورة وثقافتها وفنونها ، هي التي تنطلق مـن النظرة القومية الديمقراطية الاشتراكية المتفاعلة مـع الثقافـة الانسانية عامة ، والتقدمية خاصة ، والمنفتحة عليها . وهي التي ترتبط ارتباطـا بالجماهير ومصالحها وقضاياها ومشاعرها وتطلعاتها مع احترام حرية اختيار اشكال التعبير واساليبه والحفاظ على مقومات عملية الخلق والابداع » .

هذان هما السلاحان اللذان بدونهما لا يمكن حمايـة التجربة مـن التدهور او الانقضاض .. فالجبهة الوطنية الديمقراطية تستقطب الجماهير صاحبة المصلحة في التقدم ، والثقافة التقدمية تمد هذه الجماهير بالوعي .

ذلك ان مجتمع » الانتاج « ليس مجتمعا للحـواة الذيـن يخرجون الارانب من انوفهم والماء من جيوبهم . انـه « الباب الضيق » الذي يؤدي النجاة حقا ، ولكن بعد مشقة وعسر هائلين . لذلك كان صنع هـذا النفق الطويل وتأمين وسائل السير فيه والوعي بمخاطره اكثر ضني وارهاقا مـن الباب الآخر ، « الباب الواسع » الميسور الـذي يؤدي الـى الهـلاك والانقراض .

مجتمع الانتاج طويل الاجل والنفس ، ولكنه يثمـر اخيرا قيم الانتاج وعاداته وتقاليده وثقافته ، يثمر التقدم الحضاري الحقيقي .. فالصناعات الثقيلة والاصلاح الزراعي والتجارة المحكومة بالنديـة ، هـي التـي تغير

علاقات الانتاج ووسائله ، تجدد قواه العاملة في المصانع والجامعات والمزارع والمتاجر ، تزيل قيما وعادات وترسخ بدلا منهـا وجدانا جديـدا وعقـلا جديدا . وهذه هي الحضارة . اما استيراد احـدث وسائـل التجميـل والرفاهية والمتعة ، فانها تدفع الحواس الى اجادة « الاستهلاك » حقا دون الخبرة بالجوهر ، دون القدرة على الخلق .

★ ★ ★

هل يعني ذلك ان العراق — ولا زلت اتخذه كمثال لقطر عربـي ينتمي الى العالم المتخلف — قد خرج من عنق الزجاجة ؟

لا . . .

وانما هو قد بدأ الخطوة الاولى عـلى الطريـق الصحيح ، طريـق طوله اكثر من الف ميل . . لقد اختـار « الباب الضيق » بكـل اهوالـه ومخاطره .

فالديمقراطية — مثلا — لا تولد بين يوم وليلـة ، انهـا تحتاج الى الممارسة النضالية الفعلية . . الصحف والاحـزاب تمارس نشاطها علنا في بغداد ، والمستويات التنظيمية للجبهة تجتمع . . ولكن علينـا ان نفهم ان هذا كله « خطوة اولى » .

وثقافة المجتمع الجديد ، هي الاخرى لا تولد بين يـوم وليلة ، انهـا تحتاج الى معاناة التجربة ومكابدة الحياة الجديدة بكل تناقضاتها . الشعر والمسرح والتصوير والنحت من الملامح البارزة على جبهة الثقافـة العراقية الراهنة . ولكن علينا ان نفهم ان هذا كله « خطوة اولى » .

فلا زالت الفجوة بين الاسس الماديـة للمجتمع الوطنـي ، والبنـاء الاجتماعي من قيم وعادات وتقاليد واسعة حقـا . لا زالت التحديات كبيرة كبيرة ابتداء من « الرواسخ الثوابت » في اعماق النفس وانتهـاء بالحصار الخارجي المتعدد الاشكال والالوان والحيل والاساليب .

ولكن « الخطوة الاولى » التي انجزها النظام الراهن في بغداد ، تؤكد ان « الباب الضيق » هو الباب الوحيد المفتوح ، لكل من شاء درء التخلف وتحقيق النهضة الحضارية في بيت عربي مستقل عن التبعية للاجنبي .

الدستور ١٩٧٤/٧/٢٢

نقطـة اولـى في جدول الاعمال

كلما زرت بغداد لفت نظري المعمار الافقـي للمدينة العريقة ، رقعـه الارض الواسعة المترامية الاطراف ، تتناثر فوقهـــا التجمعـات السكنية المتباعدة عن بعضها البعض ، لا ينتظمها « التواصل » بين الحي والاخـر او بين البقعة والبقعة . والبيوت في جملتها وحدات مكتفية بذاتها من طابق او طابقين وحديقة كبيرة يلفها سور مـن الخشب او الحديد او الطوب الاحمر تغطية الشجيرات المتسلقة .

هكذا تصبح « العائلة » دولة مستقلة ذات سيادة . وتكاد تنعدم معها فكرة « الجيرة » او « العلاقات الاجتماعية » الا بمعنـى الجيرة القائمة بين الدول والعلاقات الدوليةبين الامم .

وحين راحت المدينة تتسع شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ما دام كـل شاب يتخرج ويتزوج يريد هـــذا « البيت المستقل » ، واجهت الدولـة مشكلات كانت تتضاعف مع الايام حتى تراكمت واذنت بالانفجار . ولم تكن المشكلة هي مواد البناء ولا قطعة الارض فهذا كله متوفر ويغري بمزيد مـن الاستقلال العائلي . وانما كان توصيل الكهرباء والميـــاه والمجاري وانشاء المدارس وتوفير وسائل المواصلات وغيرها ، من الاعباء الموازيـة واللازمـة جنبا الى جنب مع حركة التعمير الافقي .

من هنا فكرت الحكومة في بنـاء العمارات ذات الطوابـق المتعـددة ، وبالتالي الشقق المتجاورة . وقدمت التسهيلات الممكنة ووسائل التشجيع المغرية ، سواء للملاك القادرين على البناء او للمستأجرين . ولكـن الملاحظة الرئيسية التي رصدتها اجهزة الدولـة هـي ان الاستجابة لهـذه الابنية العمودية كانت ضعيفة جدا يشوبها الحذر والتردد .

لماذا ؟ وما هو الفرق بين الشقة داخل عمارة والبيت المستقل ؟

انه الفرق بين حضارتين : حضارة الريف وحضارة المدينة ، حضارة الصناعة وحضارة الزراعة . والريف المقصود هنا هـو الريف القبلي الذي يعتمد العشيرة كوحدة بشرية وليست القرية ذات النسيج المتداخل والذي ترمز اليه « المصطبة » في مصر مثلا حيث يتحلـق فوقها وحواليها الرجـال والنساء من الفلاحين والمزارعين والاجراء على اختلاف اصولهم الاجتماعية. والزراعة هنا اقرب ما تكون الى الزراعة البدوية ان جاز التعبير عـن البؤر الخضراء التي ترتوي من احد الآبار في احدى الواحات .

لهذه الحضارة قيمها وتقاليدها وعاداتها وتراثها الحـي النابض تحت الجلد وفي شرايين الدم ، سواء غطى هذا الجلد جلبابـــا او عباءة او احدث موديلات كريستيان ديور . جوهر هـــذا التراث هـــو النظام البطريركي الثيوقراطي . اي العائلة الابوية التي يستمد « ربها » السلطة مـن السماء مباشرة . وابرز الملامح الاجتماعية على وجـــه هذا النظام هـو الموقف من المراة والجنس .

لذلك لا يصبح مشهدا غريبا ان تمتد على شاطيء دجلة ، الكازينوهات المخصصة « للعوائل » والكازينوهات المخصصة للرجال وحدهم .

وليس من شك في ان هـــذا « الموقف مـن الجنس الاخر » كقيمـة وجدانية ــ واعية وغير واعية ــ مجرد نموذج يلعب دورا واضحا في حيـاة الناس وسلوكهم اليومي . انه ، عـــلى الاقل ، لا يعطـــي صورة صحيحة للرجل عن المراة ولا يعطي المرأة صورة صحيحة عـــن الرجل . انه يشجع « الخيال » مثلا ــ وينبذ الواقع ، ويقدم التجربة الذهنية عـــلى التجربة الحية . انه ، ايضا ، يحـــول دون الحب الحقيقي ويوهم الشباب مـــن الجنسين ــ لمجرد نظرة عابرة او لمسة غير مقصودة ــ انهم امام الحب، بينما الامر لا يعدو تعبيرا من الجانبين عـــن الكبت العاطفـي والجنسي .. فاذا نجحت « العلاقة » وتم الزواج فقد ترتفع الغشاوة الكاذبة ويتم الطلاق او يستمر الزواج المزيف بأمراضه الاجتماعية العلنيـة والسريـة ، واذا لـم ينجح فقد يتصور كلاهما الامر فاجعة الفواجع ، وهـــو لم يكـن الا وهم الاوهام . كذلك فـــان التكوين العصبـــي ــ بالأضافـة الـــى العضوي

والفسيولوجي ـ لن يثمر باية حال في هذا المنـاخ غير الطبيعي سلوكـا طبيعيا لا نحو « الجنس » فقط ، وانما في كافة نشاطات الحياة .

اكرر انني ضربت مثلا واحـدا فقط عـلى خطورة الانفصال بين القيم القديمة والثياب المعاصرة .. فالمرأة العراقية تعمل جنبا الـى جنب مـع الرجل في الادارات الحكوميـة والمستشفيات والمـدارس والجامعـات . والدولة بالغة الاهتمام بالتصنيع والانتاج الثقيل ، وبالغة الحرص على قيام مجتمع وطني ديمقراطي ترمز اليه الجبهة التقدمية ، وبالغـة العناية بدعم ثقافة المجتمع الجديد .

اي ان السلطة السياسية في بغـداد تضع الاسس الماديـة للنهوض الحضاري من الابنية الاقتصادية حتى القرارات السياسية . انها ، وهـي البلد الغني بثروته النفطية ، تشيد مجتمعا للانتاج رغم كافة مغريات مجتمع الاستهلاك . اي انها ، كماقلت من قبل ، خطت الخطوة الاولـى في الطريق الصحيح .

ولكن الباب ، كما قلت ايضا ، ضيق وبالغ الضيق . مجتمع الانتـاج يؤدي الى النهضة الحضارية الحقيقيـة ، ومجتمع الاستهلاك يؤدي الـى البريق الحضاري المزيف .

وقد اختارت بغداد الاختيار الصعب . اختارت ان يكـون « القطاع العام » هو القاعدة المادية العريضة للانتاج . وهـذا مـن شانه ان يضرب عصفورين بحجر واحد : ان تصبح الصناعة بقيمها وعاداتها التـي تربيها الممارسة المفضية في المستقبل الى الابداع ، هي المدخل الـى تحديث العقل ومعاصرة الوجدان . وان تصبح علاقات الانتـاج الاجتماعية نقيضا لعلاقة العامل والعاملة بالقطاع الخاص ورأس المـال الفردي ، هـي المدخل الـى ديموقراطية القيم والمعايير والمشاعر بين البشر .

اختارت بغداد الاختيار الصعب ، فرغم الميراث الهائل مـن الاحزان الدموية ، جاءت الجبهة الوطنية تجسيدا للطريق السياسي الوحيد الـذي يكفل لنهج الانتاج ضمانات الديمومة والاستمرار .. فاللقاء الموضوعي بين ممثلي اوسع الجماهير الوطنية المستفيدة من التحولات الاجتماعية للتأميم،

هو السد المنيع ضد الفئات الطفيلية التي اضيرت من هذه التحولات، فضلا عن انها السور الصلب العالي ضد الاحتكارات الاجنبية التـي لا تكف عـن التسلق .

اختارت بغداد الطريـق الصعب ، ففتحت الجامعـات والصحف والمجلات وابواب النشر والمسرح واتحادات الكتاب والفنانين حتـى تصبح الثقافة ــ اي الوعي باتجاهاته المختلفة ــ في متناول الشعب .

يجب ان نعترف بان القيـادة السياسية في العراق ، انجزت اللبنة الاولى في بناء الديموقراطية ، اي انها وضعت الاسس المادية للنهضة .

ماذا يبقى ؟

يبقى ــ في الحقيقة ــ كل شيء !

فالهوة الفاغرة فاها بين الاساس المـادي للمجتمع الوطني ، والبناء المعنوي للانسان المتحضر ، من الاتساع بحيث تستوجب ان نضعها دومـا نصب عيوننا ونقطة أولى في جدول الأعمال .

ان جوهر التجربة العراقية هو الديموقراطية ، فالتأميم ينجز وجهها الاقتصادي ، والجبهة تنجز وجهها السياسي ويبقى ــ ناقصا ــ الوجـه الاجتماعي لتتكامل المواد الاولية للحضارة او العناصر الرئيسية لخامـات التقدم . وعلينا الا ننسى لحظة واحدة ان غياب الوجـه الاجتماعي يفتـح ثغرة واسعة في الجدار الاساسي لبناء النهضة .

وليست هذه مشكلة السلطة كسلطة ، يكفي نضالها مـن اجـل سد الثغرات الاخرى كالمشكلة الكردية والخطر الايرانـي ومتاعب الخليج . ان جهدها الخارق لتأمين الحدود الخارجية للبلاد ، لا يوازيه الا جهدها لتأمين سلامة الجبهة الداخلية بالبناء والبناء لا بالشعارات والوعود الجوفاء .

وهي ايضا ليست مشكلة السلطـة ، لان الوجـه الاجتماعـي للوطن لا تتغير ملامحه بقرارات من اعلى ولا بأوامر او تعليمات .

ولا شك ان القيم تتبدل حين تتغير نظم الحياة المادية .

ولا شك ايضا ان عمق اعماق الـروح لا يتغير غـداة تغير الاقتصاد والسياسة .

اي ان الامر يحتاج الى وقت ..

ويصبح اختصار الوقت ــ واختزالـه ان امكـن ــ هـو الواجب الوطني ، الملح والعاجل ..

اختصار الزمن ، اي النضال ! فأن نردد ان الحياة المادية قد تغيرت، وسوف تتغير الحياة الاجتماعية والروحيـة بالتالـي وبالضرورة وبالحتم ، هو الوهم بعينه ، وهم الكسالى واستسلام النائمين .

ولم تصدر سلطة في التاريـخ قـرارا باختـلاط الجنسين ولا امـرا باحترام المراة ولا اجراء بتحريم الغيبيات . وحتى .. حتى لـو اصدرت تعليماتها بالتزام المواعيد في العمل ، ومنع الزيارات العائلية في اماكن العمل وطاعة الرؤساء وتشجيع المبادرات وطالبت بانجاز المطلوب في الوقت المحدد وعدم الالتفات الى علاقات القربـى والتوصيات وتجريم التعصب الدينـي والطائفي والقومي ..

حتى لو فعلت ذلك ، فان القرار شيء والفكر والسلوك شيء اخر .

تغيير الفكر والسلوك اشبه ما يكون بتغيير الدم ..

وتغيير الدم ــ اي مجموعـة القيم والتقاليـد والعادات البدويـة والزراعية والقبلية والعشائرية ــ يستلزم نضالا مغايرا لنضال السلطة ..

يستلزم نضال « الطليعة » مـن الثوريين في الاحزاب والجامعـات والصحف واتحادات الكتاب والفنانين .. انـه ، بالضبط ، نضال المثقفين القادرين على ترشيد الوعي الاجتماعي .

وليس من شك في ان هؤلاء المثقفين انفسهم ، يعانـون الاهوال مـن المناخ المعبأ ضد التقـدم الحضاري والنهضة ، حتـى ان بعضهم يعانـي انقساما في الشخصية بين الفكر والسلوك ..

وليس من شك ايضا ان « الثوابت الرواسخ » ليست مجرد رواسب جزئية عالقة بحنايا الروح يمكن الخلاص منها بين يوم وليلة .. وانما هـي « نظام » روحي كامل يعد المساس به كفرا وهرطقة .

ولكن استكمال الوجه الاجتماعي للثورة جديــــر بالنضال والتضحية وحتى الشهادة .

والتجربة الوطنية في العراق احوج مـــا تكـــون الـى وفاء مثقفيها القادرين على سد هذه الثغرة الخطيرة بين المـــادة والروح ، بين الفكـــر والسلوك ، بين العقل والوجدان .. فتأييــد السلطــة بالبرقيات والثقة في النظام بالتهاني والشعارات ، هو موقف سلبي الـى اقصى الحدود . وانما يتأتى دعم القيادة الثورية في بغــداد باستكمال انجازاتها . بخلــع العقلية الريفية من جذورها الصحراوية فـــلا تعود العاصمة معمـــارا افقيا يمنح الناس سعادة الاستقلال العشائري ، وتمتعهم طمأنينة الحجاب الاخضر من الاسوار العالية .

ولا يصبح صعبا على الحكومة ان تجذب السكان الجدد الى استئجار الشقق المتجاورة في العمارات .

ولا يصبح عسيرا على سائق التاكسي ان يعرف عنوانـــا في المدينة ، حتى ولو كان العنوان لوزارة الاعلام او المجلس الوطني او القيادة القومية ..

ولا تمتد الكازينوهات الانفصالية على شاطيء النهر الجميل ..

لا بد من خلع العقلية الريفية والخيال الزراعي والشعور البطريركي ، حتى يحل مكانها جميعا عقلية مدنية لا تحس بالغربـــة في المصنع ولا تعامل الآلة كساحرة ولا تنظر الى المراة كخطيئة وحتـــى لا يختــل « التكويـــن العصبي » للانسان نتيجة الصدام المؤكد بين خيالـــه والواقع ، بين قيمه وعاداته وتقاليده السارية في الدم وتحديات الحياة المحيطة به . بغياب هذا الخلل يصبح المرء قادرا على اكتساب قيم الانتاج فضلا عن الخلق والابداع .

وحتى يتم الخروج نهائيا من اسار التخلف الى رحاب التقدم ..

فالثورة العراقية قد انجزت في فترة قصيرة تجربة رائدة في مجـــال التنمية الاقتصادية ، وعلى المثقفين الطليعيين من ابناء هـــذه الثورة انجاز تجربة مشابهة في مجال التنمية الاجتماعية .

بذلك تتم حماية النظام الراهن في بغداد من السوس غير المرئي الذي يهدد الانتاج .

وبذلك ايضا يتم الانعتاق من ربقة التخلف وترتـــاد العراق آفــاق النهضة الحضارية الحديثة .

الدستور ٢٩/٧/٩١٧٤

الديمقراطية والبحث عن الجذور

الديموقراطية هي جوهر التجربة العراقية واية تجربة وطنية تنشد الانفلات الحضاري من العالم المتخلف .

وايا كانت اشكال الديموقراطية ومضامينها ، فان حدها الادنى الذي يمكن تسميته بخلاصة التاريخ ، هـــو ان الديموقراطية في خاتمــة المطاف تعني المساواة الكاملة اي الندية ، كما تعني حـــق الخطـــأ ، وكذلك فهي ترادف العلنية ولا علاقة لها بظلمة السراديب السرية .

والديموقراطية بمختلف معانيها وابعادها ومراحـــل تطورهـــا ، هـــي السمة المميزة للتقدم الحضاري والنهضة .

لذلك كانت الفاشية ولا تزال هي اعدى أعداء الحضارة ، حتى ولو بلغت دولتها أوج المجد العسكري والصناعي .. ونظرة واحدة عــلى موكب الطغاة في التاريخ الانساني تدلنا على ضراوة كراهيتهم للفكر والثقافة والفن الجميل . وجوهر الفاشية هــو عدم الايمان بالنديــة ولا بحــق الخطأ ولا بالعلنية . وانما هناك الفرد المطلق التمثيل للطبقــة « ولكـــل الشعب ! » والمعصوم من الخطأ ، وليس على الجميع الا الطاعة العمياء وانتظار اوامــر مبعوث العناية الالهية التي يتلقى وحيها في الخفاء ومـــن هنـــا كان جوهر الفاشية كامنا بصورة او باخرى في كافة الانظمة الطبقية ، فـــاذا كان هتلـــر وموسوليني وامثالهما قد اضحوا في ذمــة التاريخ ، فان ابناءهم واحفادهم من اباطرة الاحتكارات الغربية ــ خصوصا اميركـــا المعاصرة ــ هم الورثة الشرعيون والاكثر وفاء لتقاليد النازية والفاشية التي حاربوها فيما مضى . الجرثومة هي النظام الطبقي ذاته الذي قد يبدأ مسيرتــه بالثورة الفرنسية

مثلا ، او الانجليزية او حتى الامريكية . وقد يشن الحرب العالمية دفاعا عن الديموقراطية ضد المانيا وايطاليا واليابان وتركيا .. لكنه سرعان ما يخون « مبادىء » الثورة والديموقراطية التي اعلنها ذات يوم ، ويمرغها في غابات فيتنام واحراش افريقيا ومستنقعات الدم في اميركا اللاتينية . بل وتمتـد انياب الغول الفاشستي الـى داخل حدوده نفسهـا فيلتهم عظـام الزنوج ويكسر قلوب الكتاب الاحرار ..

تلك هي النتيجة المحتومة لكل نظام طبقي : العودة الى الفاشية ، اي الانقضاض على الحضارة !

من هنا كانت الاشتراكية خلاصا حضاريا للانسان ، وانقـاذا لتاريخه المجيد ، قبل ان تكون مجرد بنية اقتصادية واتجاه سياسي .

ولان الفاشية المتجرثمة في كل نظام طبقي تنتهي على صعيد الفكر بأن تكون ضد الفكر ، اي ان تتحول الى ايديولوجية غيبية لا تعترف بموضوعية القوانين العلمية لحركة الطبيعة والمجتمع ، فـان الاشتراكية هي المنقـذ الوحيد للعلم والتراث العلمي .

لـماذا ؟

لان الفاشية سواء كانت الاصل او التطور الاخير للنظام الرأسمالي ، هي النقيض المتطرف للديموقراطية ، بينمـا الديموقراطية هـي الجوهر الاصيل للاشتراكية .

ولا خيار امام بلدان عالمنا المتخلف الا المزيد من التخلف بأن تكون صدى للفاشية العالمية ، اي ان تقف في صف العداء المطلق للديموقراطية .. او ان تتخذ من الاشتراكية طوق النجاة مـن التخلف الحضاري بكافـة ابعاده الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية .

وقد كانت مصر الناصرية رائـدة الانعتاق مـن الاسر الجهنمي . وكانت السلبيات المريرة في التجربة اعظم الدروس : ان الجزر الديموقراطي العنيف يؤدي حتما الى الانتكاس ، اما المد الديموقراطي فيؤدي الى النمو والازدهار . كانت اعظم دروس التجربة المصرية ولا تزال هي ايجاد الصيغة الديموقراطية الصحيحة التي تتحمل اعبـاء خطـة التنميـة الاقتصادية

والاعداد لحرب التحرير . وقبل ذلك وبعده التنميــة الاجتماعية او التقدم الحضاري بالوطن والمواطن . كانت اعظم دروس التجربة المصرية ولا تزال، ان ثغرة واحدة في البناء او غياب ركن واحد من اركانه يهدد البناء باكملــه مع هبوت اول عاصفة .

والتحول الى الاشتراكية ــ اي محاولة النهوض من الكبوة الحضارية التي نعانيها ــ لا يصلح شعارا للمناورة في الداخل والخارج . انــه اصعب المراحل واقساها في تاريخ الشعوب .. فليست القضية ان يكـــون تحولا « لا رأسماليا » وانما المشكلة أن يكون تحولا الى الاشتراكية . بغير ذلـك ــ وبصراحة كاملة ــ فالردة الراسمالية تظـــل احتمـــالا واردا ، وخطر الفاشية يبقى شبحا جاثما ، وسجن التخلف لا تفادر قضبانه المخيلة ..

هذا الدرس المصيري هو لب اللباب في تجربة العراق الراهنة بعـــد مخاض اليم دام عشر سنوات بدات مـــع ثورة تموز ١٩٥٨ واوشكت على الانتهاء مع استئناف مسيرة الثورة في تموز ايضا ــ رمـــز الخصب الدائم والتجدد المثير ــ عام ١٩٦٨ .

هذا الدرس ــ ببساطة شديدة لا بتبسيط مخل ــ هو الديموقراطية ، كجوهر لرحلة التنمية الاقتصادية وسيطرة القطاع العام الى مرحلة التحول الاشتراكي . اي الى محطة النهوض الحضاري مـــن وهاد التخلف الـــى خاتمة الطريق المضاد للفاشية .

وكما ان « اسرائيل » كانت ولا تزال تشكـــل تهديـــدا مباشرا من الاستعمار الغربي لقيام تجربة « الدولة الوطنيـــة الديموقراطية » في الوطن العربي ــ الامر الذي ترك بصماته على مسيرة النضال في مصر مثلا ــ فـــان الخطر الايراني والمشكلة الكردية ومتاعب الخليج مضافة الى اسرائيل ، قد كانت ولا تزال الاسلاك الشائكة المكهربة الملغومة التـــي حوصرت بها التجربة العراقية .. بل وشاركت في الحصار ــ عمدا او عـــن حسن نية ــ بعض القوى التي تناقضت مصالحها مع الفكـــر السياسي للقيـــادة الثورية في بغداد .

هذا الحصار يعني في النهاية نزيفا متواصلا عـــلى كافـــة الاصعدة البشرية والاقتصادية والزمنية ايضا .. فخطة التنمية التي تحتاج الـــى

خمس سنوات مثلا تستهلك من طاقات البشر والموارد الخام والوقت أكثر كثيرا مما لو كانت الحدود الخارجية آمنة .

وقد كان رد الفعل العنيف والمتوتر هو الصدى المتوقع لهذا الحصار الشرس ، عند القادة العراقيين .. ولكن « المرونة » الثورية هي التي فاجأت الجميع ، من جانب القيادة الراهنة في بغداد . لقد بنت ستراتيجيتها على اساس ان المشكلة الكردية محكومة « بالحل السلمي » ، وان « حسن الجوار » هو الذي يحكم علاقاتها بتركيا ، وان « الوحدة القومية » هي الميزان الاخير لاية تناقضات عربية . كانت القيادة العراقية ولا تزال تدرك ان الانفراج الدولي ـ وليس الوفاق ـ هو سلاح في ايدي القوى الوطنية لا ضدها ، وان اسرائيل بكل ما تمثله هي العدو القومي للعرب .

بهذه المرونة التي لا تحيد عن الفكر السياسي الملتزم بالجبهة الوطنية التقدمية تحاول بغداد ان تبني مجتمع الانتاج وان تثبت اركان خطة التنمية ، وان تشيد الحضارة الصناعية الراسخة فوق عمد التأميم ، وان تفك تفاصيل اقتصادها من قيود الاحتكارات الاجنبية ، وان ترتبط اكثر فاكثر باقتصاديات العالم الاشتراكي .

وهي معادلة صعبة ، ان يتم البناء الداخلي في ظل التهديد الخارجي، ولكنه الطريق الوحيد للاستقلال الوطني والتقدم الاجتماعي ، الى التحول الاشتراكي والنهضة الحضارية .

تبقى مسألة واحدة وتكتمل الشروط الاساسية لبناء النهضة ، هي التحول عن الروح القبلية والوجدان العشائري ! فلعلها من المفارقات الغريبة في العراق ان تكون الماركسية هي الثقافة السائدة على الشارع العراقي لا على المثقفين وحدهم ، وان يكون الحزبان الرئيسيان (البعث والشيوعي) من المؤمنين بعلمنة الدولة والمجتمع .. وتبقى رغم ذلك الثغرة الواسعة بين القشرة العليا من الدماغ والسلوك العملي في ادق تفاصيل الحياة اليومية .

ولخطورة هذه النقطة اضرب مثلا رواه لي احد المسؤولين عن احد المصانع الجديدة التي شيدت بالقرب من احدى العشائر . ومن الطبيعي ان

يعمل اهل العشيرة جميعا في المصنع . وذات يوم اصيب شيخ العشيرة او راسها بجرح في يده من احدى الماكينات . وذهب به المختصون الى المستشفى . ولكنهم فوجئوا بان اهله جميعا ـ من عمال المصنع ـ قد سبقوهم الى هناك ! اي ان العمل في المصنع قد توقف تماما حين اصيب راس العشيرة بجرح في يده .

بقية القصة ان مؤسسة الثقافة العمالية قامت بدورة توعية بين العمال لتنبيههم الى « الاضرار التي تصيب الانتاج من هذا السلوك الذي لا ينبغي ان يحدث في المستقبل » .

وربما لا يحدث هذا فعلا في المستقبل ولكن المشكلة لا تكون قد انتهت .. لان « نقص الانتاج » ليس هو كل الضرر الذي يهدد المجتمع من هذا الفكر والسلوك . كما ان تحويل المعمار الافقي في العاصمة الى ابنية عمودية ليس مجرد مسألة اقتصادية .

وانما المسألة اعمق من ذلك وابعد .. فالروح القبلية والوجدان العشائري نظام اجتماعي كامل ، يتناقض جذريا مع البناء المادي للصناعة والعلم والخطة الاقتصادية .

وهنا ، بالضبط ، يجيء الحديث عن الديموقراطية .. فالتجربة العراقية التي تبذل دمها لبناء الديموقراطية الاقتصادية والسياسية ، تكتشف اليوم او غدا ، ان الارض التي تدق فيها الاساس تخلو من الديموقراطية الاجتماعية !

ذلك ان النظام العشائري هو « كروكي » بدائي للفاشية ، هو عدو اساسي لجوهر التجربة العراقية ! فالعشيرة لا تعرف الندية ولا حق الخطأ ولا العلنية .. طقوسها القاتلة لحرية الانسان في المبادرة مستوحاة من المجتمع الابوي القديم . والمثل الذي ضربه لي احد المسؤولين عن المصنع والمحاولة التي جرت لتحويل الاسكان من البيوت الواسعة المتباعدة الى العمارات ذات الشقق المتجاورة ، من اهون الامثلة واقلها شانا !

فالحق ان العشائرية موقف نفسي واخلاقي كامل من الدنيا كلها ، انها التجسيد الاجتماعي المباشر للتخلف ، فهي لا تهدد الانتاج اقتصاديا فحسب ، وانما تهدد الهدف الرئيسي لاقامة المجتمع الجديد .

هكذا تبرز في افق التجربة العراقية معادلة صعبـــة اخرى ، اكثـر صعوبة من مشكلة الاكراد والخطـــر الايراني ومتاعب الخليـج والتسوية السلمية . انها المفارقة بين « الجسد » التقدمـــي الباهـر للعين المجردة و « الروح » المتلفعة ثياب العشيرة !

هذه الروح غير المرئية ولكن « حضورها » لا يغيب ، داخــل البيوت والمكاتب والمصانــع والمزارع ، في الشوارع وفـــوق الارصفة وداخــل الجامعات .

هذه الروح هي التي تشكل القرارات الخطيرة في حياة الناس ، حتى ولو كان صاحب القرار موظفا صغيرا ، فليست « الرشوة » او « الواسطة» (التي تنتشر انتشارا مذهلا في مجتمعات الاستهلاك) هي الغواية الوحيدة، وانما العاطفة العشائرية غواية اكبر .

ولا تستقيم الامور لمجتمع صناعـــي ينشد التنميـــة فالتقدم ، الا بالقضاء على هذه العاطفة الحميمة الكريهة حتى لا تضع في طريقـه الصعاب والعراقيل وحتى لا تخنقه باحضان الحب .

ومرة اخرى واخيرة اقول ان هذا ليس مـــن عمل السلطة ، بل انـه يستلزم نضال الطليعة الثورية المثقفة .. فالسلطة تبني ــ بــلا كلــل ــ اسس الديموقراطية عـــلى الصعيديـن الاقتصادي والسياسي . امـــا الديموقراطية الاجتماعية التـي تتنافى تماما مـــع قيم وتقاليـد وعادات العشيرة ، فأمرها موكول الى مؤسسات العمل السياسي بين الجماهير ..

فالموقف العملي من المراة والجنس ، مثلا ، لا يتغير بقانـون ، وكذلك اسلوب اتخاذ القرار واختيار الرجال وطريقة العمل والعلاقات بين البشر ، لا تحتاج الى دستور . ان القوانين كلها والتشريعات كلها تظــل حبرا على ورق ما لم يبذل جهد طليعـــي خارق لردم الهوة بين فكـــر علماني يسكن الرؤوس ، وفكر ثيوقراطي يحرك الحواس ، بين فكـــر ديموقراطي يبنـي الاقتصاد والسياسة وفكر بطريركي يبذر الفاشية في نفوس البشر .

ان التجربة العراقية الراهنـــة محاصرة باسوأ قوسين في تاريـــخ الشعوب : الاستعمار الذي يهدد الحـــدود بمختلف الاشكـال والالوان ، ورواسب عشرات القرون من التخلف الاجتماعي .

والمثقفون ــ قبل غيرهم ــ يدركون أهوال هذا التحدي !

الدستور ١٩٧٤/٨/٥

شموع النهضة وشهداؤهـا احيانـا

من الطبيعي ان يشعر المثقف العراقـي المعاصر ، بأقصى درجـات الانتماء واقصى حالات الاغتراب في وقت واحد .

وربما كان من حسن حظ المثقفين العراقيين ان بـلادهم تخلو مـن الجيل الرجعي العتيد الذي لا يزال يلعب بمقدرات الثقافـة في مصر مثلا ، وبالتالي فالانتماء في حياة المثقف العراقي هـو بالضرورة الانتماء الثوري . ولعله من حسنات ـ ومشكلات ـ هذا الانتماء انه لا يتم بعيدا عـن نموذج تحقق ، اي انه لا يجلس على مقاعد المعارضة تحت الارض او فوقها ، وانما يتفاعل الانتماء الثوري للمثقف العراقي مـع التجسيد السياسي للسلطة القائمة . انه تفاعل وليس مطابقة ، ولكنه في جميـع الاحوال « انتماء » . اي ان هذا الانتماء في الاصل الى حركة الثورة ، امـا الانتماء الى السلطة فهو اقرب ما يكون الى الحوار منه الى التوحد ، الحوار مـع التجربة بقصد دعمها وتطويرها وليس اليقين الصوفي الببغائي بقصد تجميدها .

وربما كان مـن حسن حظ المثقفين العراقيين ان الاغتراب في حياتهم لا يرادف الشعور بالعبث ، بل هو على النقيض مـن ذلـك تماما نتيجة الشعور بجدوى الحياة وتعذرها في نفس الوقت بسبب التخلف . اي انهـا الظاهرة المعاكسة للظاهرة الاوروبية حيث التقدم في ظل المجتمع الطبقي هو الاب الشرعي للاغتراب .

اقول « ربما كان من حسن الحظ » ان الانتمـاء والاغتراب كلاهما في حياة المثقف العراقي دلالة صحية لا صراعا مريضا في الظلام .

من هنا كانت الاصالة في الثقافة العراقية هي ذلـك المزيج المركب

جدليا بين الشعور الحاد بالانتماء والشعور الحـــاد بالاغتراب . بين خبرة الانتماء الحارة وثمرة الاغتراب التي لا تقل حرارة .

واذا كان المثقف الاوروبي لا يستطيع ان يجمع بين الانتماء والاغتراب ــ الا في القليل النادر ــ فان المثقف العراقي هو النموذج العربـي للمنتمي المغترب .

وارجو ان يكون واضحا انني حين اتكلم عن الثقافة العراقية ، فانني اقصد النماذج الرئيسيـة مهمـا كانت نادرة ولست اقصـد الهوامش والحواشي والذيول مهما كانت الكثرة الغالبة التـي تكاد تغطي اللوحـة الحقيقية بضجيجها وكثافتها .

انني ــ مثلا ــ اتوقف طويلا امـام الموجـة الاولى للحداثة في الادب العربي والنحت ، فاراها قادمة من العراق . ارى جـواد سليم والسياب والبياتي وفؤاد التكرلي وغيرهم . وبالرغم من انني لست اميل الى تجسيد الريادة الفنية في فرد او قطر ، الا ان الظاهـرة العراقية تستلفت النظر وتستوجب التأمل . ذلك انها تجربة باكرة في تعبيرها عـن اعقد المشكلات الحضارية التي تواجه امتنا منذ زمن طويل : مشكلة الاصالـة والمعاصرة . كذلك فانها تجربة متطورة دائمة الحضور اي « متواصلة » جيلا بعد جيل . بذلك تختلف عن « الانتفاضة » المصرية في الاربعينات التـي لم تأت ثمارها الا في الستينات ، وعلى نحو بالغ الخجل والاستحياء . كما انها تختلف عن « الانفتاح » اللبناني الذي يكاد ــ في غالبية ثماره ــ أن يكون صدى للغـرب اكثر منه صوتا للعرب .

في شعر السياب والبياتـي ونحت سليم وقصص التكرلـي ، بـذور المعادلة الصعبة : الانتماء المغترب من ناحية والتـراث المعاصر مـن ناحيـة اخرى . وربما يقال الكثير عن « المؤثرات الاجنبية » الوافدة مـع الفنانين البولونيين او المترجمات المصرية او البعثات القادمة من اوروبا او الجهـود الثقافية للحزب الشيوعي في نقله بعض الاداب الاشتراكية .. ولكن ذلـك كله يبقى « عنصرا ثانويا » الى جانب الموهبـة والانتماء الاجتماعـي . ان هؤلاء الرواد ، وقفوا اولا وقبل كل شيء ، فوق بقعـة صغيرة مـن ارض وطنهم وراحوا يغرسون اقدامهم في عمـق اعماق التربـة حتى لامست اصابعهم جذور الحياة وسرها الدفين . وفي اللحظـة عينهـا استطالت

تاماتهم حتى طاولت اعناقهم سماء العالم فزرعـوا رؤوسهم في عين الشمس التي تضيء العصر .

ما معنى هذه الكلمات التي تبـدو ، لاول وهلـة ، وكأنها عبارات انشائية ؟ معناها ان الشعراء منهم لـم يقرأوا اديث ستويل و ت. س. اليـوت ولا بابلونيرودا والـوار واراجـون وحكمت ومايكوفسكـي وراحوا ينسجـون عـلى منوالهـم بحجـة أنهـم يبتغـون تحديث وطنهـم فـي مواجهـة التخلـف . وكـذلـك القصاصون والروائيـون والنحاتون لم يذهبوا الى كافكا وسارتر وهنري مور ليغترفوا مـن اصول الحضارة الحديثة بعض بهارجها فيزينوا بهـا جدران التخلف . لـو انهم فعلوا لما كان حصادهم اكثر من ديكورات زاهية تجيء العواصف والامطـار فتذهب بطلائها .

ولكنهم فعلوا ما هو اكثر مشقة وعسرا . تعرفوا عـلى واقعهم اولا ، معرفة نضالية تحرث الارض لا معرفة سياحية تتنزه على الشاطيء . ولـم تكن طلائعهم جزرا صغيرة معزولة . وانما هـم عاشوا في منـاخ ثـوري . المجتمع ينوء كاهله باثقال التناقض بين التحـرر والتبعية ، والتنظيمـات السياسية مؤهلة جماهيريا لحل التناقض . لم يكـن المثقفون الطليعيون في العراق ، فرقة محظوظة بالترف الذهني المجرد ، وانما كانـوا في الاغلب الاعم ضمن حلقة اوسع هي الحزب والحلقة الاكثر اتساعا وهي الجماهير .

من هنا كان انتماؤهم قـدرا ، فغاصوا في ادق الشعيرات الدمويـة للجسد الاجتماعي . عاشوا « التخلف » بكافة ابعاده وانعكاساته المدمـرة ، وايقنوا انه لا حل وسط بين التقدم والانقراض . تجولوا في رحاب التاريخ الحضاري للوطن ، وآمنوا ان التخلف ليس مصيرا ، وانما هو حالة ومرحلة. ابصروا البناء الطبقي للمجتمع ووضعوا ايديهم علـى اسرار الفقر الحقيقية وتلفتوا حواليهم وتنفسوا هواء الثقافة السائدة فتعرفوا على رائحة الموت. وتتلمذوا على الحضارات المتفوقة وفهمـوا ان التفوق ليس مـن نصيب جنس دون اخر هكذا التحم الحزن بالفـرح في عيونهم عندمـا ربطوا بين مصيرهم الشخصي ومصير الوطن ومصير العالم .. فلـم تجيء حداثتهم رد فعل ولا صدى ، وانما اقبلت « فعلا » ثوريا و « صوتـا » اصيلا . لـم يهدموا التراث بل شرعوا في بنائه من جديد ولم ينقلوا الغرب بـل اقاموا همزات الوصل الحضارية بينهم وبينه .

ولم يكذبوا ، فلم يجنحوا الى الانتماء المجرد الى الثورة للقفز بالمجتمع الى شاطيء الحرية الاقتصادية والسياسية فحسب ، بـــل عانـوا اهوال الاغتراب عن التخلف الحضاري المرعب نشدانـــا للانتقال بالمجتمع الـــى شاطيء الحرية الداخلية التي لا ترى ، حرية الحضارة التي لا ينقسم فيهـا الانسان على نفسه وبالتالي لا ينقسم الرجـــال والنساء ولا القيم الفردية والمشاعر الاجتماعية . كانوا بحق رواد التمرد عـــلى الوجدان العشائري والروح القبلية المهيمنة على التكوين العام للمجتمع والوطن .

هذا هو المغزى الرئيسي الكائن في الاعمال الرائدة لجواد سليم وبـدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتي وفؤاد التكرلي وغيرهم ، انهم قامـوا بعملية اختراق لقلب التربـة المحليـة فاتصل ابداعهم بروح العصر . وهو التقليد الذي ظل ساريا في اعمال عبد الملك نوري وغائب طعمة فرمان وبلندر الحيدري وسعدي يوسف وعبد الرزاق عبد الواحد .. وبقـــي في شعـر البياتي وجيل كامل من الفنانين التشكيليين عنصرا فكريا وجماليا لا يقبـل المساومة . وباستثناء المحاولات النقدية القليلة النادرة عنـد جبرا ابراهيم جبرا وعزيز السيد جاسم كان النقد العراقي غائبا عـــن التقاط الظواهر الاساسية لجوهر الريادة . وكان الفنانـــون انفسهم هم الذيـن يبلورون تجربتهم في مقولات نظرية اقرب الى النقد من كتب « الفقهاء » الذين كانـوا في واد آخر .

كانت الريادة حضارية تنشد النهضة ، تنشد الانفلات مـــن الاسـر الجهنمي للتخلف ، تنشد الانعتاق من قبضة العشيرة بقيمها ومثلها وعقلهـا ووجدانها . تنشد التراث الحي فوق انقاض التراث الميت ، وتنشد اللحاق بالعصر والعالم من خلال المجتمع والوطن . هكـذا امتزج الانتماء بالاغتراب والتراث بالحداثة في « تركيب » جديد يرتفع فوق مجـــرد الانتماء وفوق مجرد الاغتراب . لم يكن تاريخهم في تواز محكم مـــع التاريخ الغربي ، فلم يأت شعر السياب نسخة جديدة من شعـــر اديث ستويل ولم تأت اعمال سليم نسخة جديدة من نحت هنري مـــور . وانما هـــم استناروا برؤيا الحضارة القديمة في سومر ، ووضعوا ايديهم عـــلى جوهـــر « السياق التاريخي » للوطن المتصل بتاريخ العالم . وحين ادركت اناملهم « الفجوة » التي مزقت اوصال تاريخهم وباعدت من ناحيـة أخرى بينهم وبين العالم ، راحوا يقيسون اتساعها وعمقها ويحددون موقعها ويعينون وسائـل ردمها

حتى يستقيم تاريخهم ويتصل بتاريـــخ العالم . بالكتلـــة واللون والخط والتفعيلة والمونولوج الداخلي ، اخـــذ رواد الادب والفن الحديث في العراق يشكلون النواة الاولى لمشروع « ردم الهوة » الحضارية . مـــن الفن البابلي والاسلامي والعربي والاوروبي استلهموا كثيرا مـــن المواد ، ولكن ابداعهم الحقيقي كان في معرفة مكان الثغرة رغم الظلمة الحالكـــة وفي قياس ابعادها والجرأة في محاولة سدها بمختلف المواد التي امكنهم الحصول عليها بالخبرة والثقافة والموهبة مـــن تراثهم وتراث غيرهم . تلـــك كانت « روح الوطن » و « روح العالم » التي احيت داخلهم ضميرا خلاقا مبدعا لاولـــى لبنـــات الاصالة والمعاصرة في الثقافـــة العراقية الحديثـــة . لـــم يكـــن التخلف « موضوعا » لاعمالهم فحسب ، وانما كان جحيم التخلف هـــو الذي حدد لهذه الاعمال طرائقها في التعبير ووسائلها في الصياغة واتجاهاتها في الرؤية، وجسد داخلها المضمون الاقتصادي والاجتماعي والسياسي .

ولعل وحدة الشكل والمضمون في اعمال الموجة العراقية الرائدة هـــو انعكاس لتصورهم الحضاري للفن والثقافة قبـــل ان تكون مقدمة نظريـــة مسبقة . انها ثمرة وليست بذرة . ثمرة تضافرت بالطبع مـــع قوى الابداع الكامنة اي الموهبة . فاستخدام الاساطير القديمـــة والرمـــوز الدينيـــة والتاريخية وقوالب السرد القصصي في الشعر وكسر هذا السرد بالحـــوار الداخلي في القصة واعتماد التفعيلة كوحدة نغمية في القصيدة والتوجه نحو الكتلة الكبيرة الحجم في النحت ، وغير ذلك من منجزات كـــان هدفها هـــو تشكيل المضمون وتضمين الشكل اي ايجاد المعادل الموضوعي لوحدة الشكل والمضمون . وتلك في ظني هي مقدمة الثورة على القديم المتخلف على صعيد البناء الفوقي ــ اي الثقافة ــ والبنـــاء التحتي اي التكويـــن الاقتصادي والاجتماعي معا وفي وقت واحد . ان ردم الهوة الحضارية في الحلم الفني ، هو انعكاس لضرورة ردمها في الواقع المادي بل هو مساهمة فاعلة في هـــذا الردم .

ولا يمكن ان تتأتى حداثة الشكل بثورته عـــلى الجمود الجمالي فقط ، وانما بتجسيدها مضمونا حديثا ثائرا عـــلى الجمود الاقتصادي والاجتماعي والسياسي كذلك . ولما لم تكن ثورة الرواد العراقيين عـــلى العمود الخليلي او مقامات الحريري ترفا زخرفيا يكسر حدة الملل بـــل معانـــاة حضارية اساسيا ، فان التغيير الذي احدثوه في البناء لم يكن طلاء من الخارج وانما

في تصميم البناء وروحه . هكذا كانت الاغلال الاستعمارية الاقطاعية علـى الصعيدين الاقتصادي والسياسي من ابرز القيود التي تآزرت مع الوجدان العشائري والروح القبلية في اغتيال التقدم الاجتماعي للانسان . ومـن ثم كانت هذه الاغلال المادية الصرف هدفا رئيسيا لاسلحـة الرواد في معركتهم من اجل النهضة الحضارية .

ومن هنا كانت ثورية الشكل والمضمون في انتاجهم الباكـر شيئـا واحدا على غير النحو الذي قد نلحظه علـى بعض الاداب الاوروبيـة حين تجدد قوالب التعبير وتبقي عـلى طرائق التفكير . ليس هنـاك انفصام في ابداعات رواد الثقافة العراقية الحديثة ، لانهم آثروا منذ البدء الا يكذبـوا على انفسهم فلم يفصلوا بين ضرورة الانتماء وحتمية الاغتراب .

وهذا هو التقليد العظيم الذي ورثتـه الاجيال الجديدة ، ففي شعر حسب الشيخ جعفر وفوزي كريم وقصص محمد خضير وعائـد خصبـاك ونقد عبد الجبار عباس وفاضل تامر وشجاع العاني وغيرهم ـ خصوصا في الفنون التشكيلية ـ هناك هذا التوازن الجدلي بين الانتماء الـى الثورة والاغتراب عن التخلف .

وتبقى مع ذلك اعداد لا حصر لها مـن عديمي المواهب الذين يزيفون واقعهم بفصم عرى العلاقة بين وجهي الظاهرة الواحدة المركبـة ، فيكتفون بالانتماء وحده ويجيء « ادبهم » صراخا اجوف بالشعارات وابواقا للدعاية، او يكتفون بالاغتراب وحده ـ وهؤلاء ما اكثرهم ـ .

ويجيء « ادبهم » نزيفا من الدم الاسود . كلاهمـا « اعـور » مصاب بالرؤية الوحيدة الجانب ، فقير الموهبة فلا يعرف التركيب وانما يجيـد النباح او العويل ، هؤلاء الذين لا يدركون اطراف المعادلة الصعبـة للمأزق الحضاري ، لا يشكلون جوهر الثقافة العراقية مهما كثـر عددهم ، ومهما كان ضجيجهم وكثافتهم التي تكاد تغطي على مشهد اللوحة الحقيقية ، انهم لفقرهم الروحي يستسهلون نظم برامج الحزب ، او هم لتغطية الضحالـة يستسهلون نسخ احدث المودات الغربية .

اما الباقون ، رغم قلتهم ، فهم المنتمون الـى حركة الثورة لا الـى مقاعد السلطة ، وهم المغتربون عـن التخلف بمواجهته لا بالهروب منـه في اسمال اوروبية . هؤلاء هم شموع النهضة وشهداؤها احيانا .

الدستور ١٩٧٤/٨/١٢

طوبى لمن يستمع الى صوت التاريخ !

ربما كان الشعور « التاريخي » السائد . هو انه كلما تحققت همزة الوصل بين القاهرة وبغداد ، فان شيئا ما لا يحتمل هذا التقارب ، يتدخل في لحظة الحسم ليقطع ما اتصل .. منذ الدولة العباسية حتى الدولة الناصرية يؤخذ الكثيرون بهذا « القدر » الغريب وهو يفصل بمشرط غير مرئي ما بين القلب وحبل الوريد .

وسواء صح هذا التصور للتاريخ او لم يصح ، فان الوقائع الرئيسية تقول انه كلما تقاربت القاهرة وبغداد قويت « شوكة » الامة العربية في مواجهة التحديات الاجنبية ، وانه كلما تباعدت العاصمتان دب الضعف في الجسم العربي وأصبح مغريا لمزيد من ضربات العدو .

لذلك كانت لعبة الاستعمار في العصر الحديث هي التفرقة بين العاصمتين تحت اي شعار مستغلا أية ثغرات هنا او هناك . ولعل « حلف بغداد » كان ابرز المحاولات التي اعتمدت على ملكية الحكم في بغداد وعمالة نوري السعيد ، لضرب الحكم الجمهوري الوطني الجديد في القاهرة .

غير ان ثورة ١٤ تموز لم تحطم حلف بغداد فحسب ، وانما كانت نقطة البداية ــ الجذرية ــ للقاء العاصمتين المتباعدتين . وقد ادرك الاستعمار أكثر من بعض العرب ان اللقاء الجديد من شأنه ان يغير الخريطة العربية بأكملها . ومن هنا خططت الامبريالية العالمية وادواتها المحلية ، لنسف الطرق المؤدية الى هذا اللقاء التاريخي المرتقب . واستغلت كشأنها دائما اخطاء هؤلاء واولئك ، كما استخدمت نزوات البعض هنا وطبيعة البعض

هناك .. ونجحت اخيرا في ضرب الامكانية التاريخية التي كان مقررا لها ان تغير الوطن بأكمله فيما لو لم تنفصم عرى التفاهم بين القاهرة وبغداد .

لم يدرك الوطنيون للاسف ما أدركته القوى الاستعمارية وعملت على هداه : وهو ان التربة صالحة موضوعيا لقيام الجبهـة الشعبيـة عـلى الصعيدين الداخلي والقومي ، وان الديمقراطية هي العمود الفقري الوحيد لهذه الجبهة ، وان الطبقات الثورية وحدها هي صاحبة المصلحة في اللقـاء التاريخي بين القاهرة ودمشق وبغداد ، وان النواة الصلبة للوحدة هـي انصهار العواصم العربية الثلاث في بوتقة النضال ضد الاستعمار .

ولكن الصراعات غير الموضوعية والتناقضات الثانوية تغلبت في لحظة كابوسية عمياء ، على التناقض الرئيسي مع العدو .. فانفرط العقد القومي والاجتماعي ، واتسعت الثغرة المجنونة التـي تسللت منهـا قوى الانفصال والردة الاقليمية والعصبية الشوفينية والتعصب الطائفي ، الى آخـر القائمة السوداء .

غير انه مهما احتدمت التناقضات الثانوية ، فانها لا تلغـي فعاليات التناقض الرئيسي الاصيل بين قوى الثورة العربية والاستعمار الجديد . لذلك مضت العلاقة بين القاهرة وبغداد ، وكأنها ترسم في صعودها وهبوطها الخط البياني الدقيق لتطور الثورة العربية وانتكاساتها .

وكما أن ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ كانت ردا عربيا حاسما عـلى مؤامرة حلف بغداد الاستعمارية ، واستمرارا حيا دافقا بالامل الذي فجرته ثـورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ ومعركة السويس المجيدة عام ١٩٥٦ ، فان ما جرى عـام ١٩٦٨ في العراق كان اكثر الردود العربية حسما على هزيمة ١٩٦٧ اذ عادت الثورة الى مجراها الطبيعي والصحيح بعد مسيرة السنوات العشر الاليمة.

لم يكن ما حدث عام ١٩٦٨ في بغداد عملا اقليميا بأي مقياس ، وانما كان « فعلا عربيا » على صعيد الثورة القومية في مختلف جبهاتها .. كـان عودة بالعراق الى مركزه القيادي في حركة الثورة العربية ، بكل ما تتطلبـه هذه العودة من تضحيات واعباء ومسؤوليات . كان اي تصحيح قطـري داخل العراق هو تصحيح قومي لمسيرة الثورة ضد الامبريالية والاستعمار الصهيونـي .

هكذا ينبغي ان نفهم الانجازات الوطنية للسلطة الثورية في بغداد : ان تأميم النفط وبناء الجبهة الوطنية التقدمية واقامة الحكم الذاتي للاكراد لم تكن انجازا للشعب العربي في العراق وحده ، وانما كانت ولا تزال نموذجا يحتذى للعمل القومي الشامل .. فثمار النفط المؤمم لم تنعكس فحسب على رخاء المجتمع العراقي ومجانية التعليم واقامة المصانع والمشروعات الوطنية ورعاية الكفاءات وابراز الخبرات وبقية اشكال التنمية الاجتماعية ، وانما امتدت آثار النفط العراقي المؤمم الى ارض العرب في كل مكان — وخاصة في مصر — بتأسيس القواعد المادية المتينة للوحدة القومية عن طريق الشركات والمؤسسات المشتركة التي تبني الصناعة الثقيلة وعن طريق الاستفادة بالكفاءات والخبرات العربية — وخاصة المصرية — وفتح المجال امامها واسعا في مختلف الحقول والميادين .

كذلك فان الحكم الذاتي للاكراد لم يكن طموحا لانهاء مشكلة اقليمية ، وانما كان ولا يزال اجراء قوميا يعتمد الصيغة الديمقراطية الصحيحة لحل مسألة الاقليات القومية في الوطن العربي . وقد انعكس ذلك في مشاركة الجيش العراقي العظيم في حرب تشرين .. انها لم تكن مشاركة عاطفية او واجب أخوي، وانما تسجل البطولات العراقية على ارض الفداء ، ان الدماء التي سالت كانت تطهر ارضا واحدة كرس الاستعمار تجزئتها الى دول واقطار ، وان العدو الاسرائيلي قد غرسه الاستعمار العالمي في هذه البقعة بالذات ليشق قلب الشعب الواحد الى شعوب ودويلات . وهكذا كانت السلطة الثورية في بغداد تحل المشكلة الكردية بالصيغة الديمقراطية القائمة على الحكم الذاتي ، وبالصيغة القومية القادرة على التفرغ للعدو الرئيسي الرابض في فلسطين وسيناء والجولان .

بهذه « الافعال » كلها كانت الثورة العربية في بغداد عام ٦٨ تفتح — موضوعيا — صفحة جديدة مع القاهرة . كانت الظروف كلها مهيأة من جديد لذلك اللقاء التاريخي بين العاصمتين .. بعد خبرة السنوات الطويلة المرة ، وبعد الحصاد الشامل والاكثر مرارة والذي تمثل في هزيمة ٦٧ .

على ان مرارة السنين الحافلة بالنكسات والانفصال والتراث الدموي بين الفرق الوطنية ، لا ينبغي ان تنسينا ظلالها السوداء القاتمة ان ثورة تموز ٥٨ قد اغلقت الطريق نهائيا في وجه الاحلاف العسكرية المرتبطة

بالغرب ، والتي كانت تهدد القاهرة في المقام الاول . كما ينبغي الا تنسينا الاجراءات الراديكالية التي تمثلت في قرارات تموز ٦٢ في مصر واندحار القلة الانفصالية في دمشق وانتصار الثورة الجزائرية وانطلاق الرصاصة الاولى للمقاومة الفلسطينية . كذلك لا ينبغي ان ننسى بعد ٦٧ المد الثوري في الخرطوم والظهور المفاجيء لليبيا الجديدة .

لقد كان من الممكن في ظل هذه العناصر الايجابية للمناخ العربي المظلم ـ بل ان الامر يرتفع في تقديري الى مستوى الضرورة التاريخية ـ أن يكون اللقاء المصري ـ العراقي نقطة تحول حاسمة في المسيرة الثورية العربية .

ولكن ما يسميه البعض بالقدر الصارم الذي يحول دائما في اللحظات التاريخية دون التحام العاصمتين ـ والذي أراه ماثلا في الايدي الملوثة والعيون الاجنبية ـ قد تدخل مرة اخرى ، ليقطع ما بين القلب والشريان التاجي .. حين راحت الصمامات والاوردة تدق معلنة سريان الدماء في الجسم العربي العليل .

كان القلب ـ اي مصر ـ بعد هزيمة حزيران الى حرب تشرين وحتى وقتنا الحاضر ، قد أصيب بالعديد من الازمات المتلاحقة . كانت الازمة الاولى هي المناورة الاميركية الشهيرة بمشروع روجرز . وكانت الازمة الثانية هي المذبحة الفلسطينية الشهيرة بمجزرة ايلول . واقبل رحيل جمال عبد الناصر تتويجا تراجيديا حادا لتدخل مصر من بعد مرحلة الازمة الشاملة والدائمة .

وبينما كان الشريان العراقي حيا دافقا بالحرارة والدم النقي والانجازات الباهرة كان « الطرف الآخر » على الخط يعاني من غياب الرئيس ومن الوقفة الطويلة امام الحائط المسدود المسمى تجاوزا بحالة اللاسلم واللاحرب . كان النظام المصري في اوج اضطرابه ، بينما كان النظام العراقي يدخل مرحلة الاستقرار . ولكن المنظور القومي يرى انه من المستحيل تحقيق الاستقرار الكامل لجزء من اجزاء الوطن العربي بمعزل عن سلامة القلب .

لذلك بدت حرب تشرين الاول وكأنها قادمة لتصحيح التاريخ ليمضي في مجراه الطبيعي بين العاصمتين ـ بل بين العديد من العواصم العربية ـ ليحطم السدود الاستعمارية ويأكل وحوش البحر الرجعية . عندئذ

استيقظت الامبريالية الاميركية يقظتها الشرسة التي بدات عسكريا بثغرة الدفرسوار وسياسيا بالخيمة ١٠١ مستغلة في ذلك كافة الاخطاء العسكرية والخطايا السياسية المحلية . هنا تفرق الشمل العربي من جديد ، بعد ان حانت للحظة فرصة اللقاء التاريخي العظيم .

تفرق الشمل من ثلاث زوايا الى عدة خطوط سياسية : أولها خط ستراتيجي مبدأي يرى ان الترا بالعربي لن يسترد من مخالب الاستعمار والصهيونية الا بالدم . والثاني خط ستراتيجي يرى ان اميركا وحدها قادرة بالضغط الدبلوماسي أن ترد بعض الارض الى بعض العرب . والثالث مجموعة من الحركات التاكتيكية لا يضبط اياعها فكر استراتيجي ، فهي بالغة الذبذبة والتردد بين مختلف الاتجاهات كريشة في مهب الريح .

وكانت بغداد احدى العواصم القليلة التي تبنت الخط الاول بوحي من مواثيقها الرسمية وبرامجها الحزبية ، تبنته نظريا وعمليا في مختلف الجبهات وفي المقدمة منها جبهة القتال . وكانت القاهرة احدى العواصم القليلة التي تبنت الخط الثالث بوحي من الصراع المضطرم داخل المجتمع المصري والذي يفتقر الى الحسم من جانب القوى السياسية المحلية ومن بينها قوى السلطة والنظام ، وبوحي ايضا من الفئات الاجتماعية المهيمنة على المؤسسات الدستورية والتي ارادت لحرب اكتوبر المجيدة ان تحرك الازمة لا ان تحرر الارض .

واكتفت بغداد ــ حرصا منها على المصلحة القومية العليا ــ بأن توضح خطها المبداي لجميع الاطراف ، وحاولت باسم شهدائها وشهداء الامة العربية كلها أن تدخل في حوار نظيف ، خصوصا مع مصر . ولم ترضخ قط لعواطف التمزق والمشاعر المرة ، فلم تنل من وطنية احد ولم تشارك في اسواق المزايدة .. ولكن دون تفريط في المبادىء ودون تهوين من الخطر الجاثم ودون مساومة في الكواليس السرية . حتى عندما كانت بعض العناصر هنا او هناك تغريها بالاستفزاز والصد على التشنج والانفعال ، كانت تفكر وتفعل من غير بكاء اليائسين ولا ضحك الشامتين . كانت بغداد تدرك :

● انبعض الجهات المفرطة في اقليميتها والمرعوبة من الثورة العربية

تحاول ان تفرض عليها العزلة والانطواء بتغذية الاحساس السلبي بالكرامة والالتفات الشوفيني الى ما يسمى بالبناء الداخلي .

● كما ان بعض الجهات المتطرفة في شعورها القومي تحاول ان تفرض عليها العزلة والانطواء باسم النقاء الثوري والطهارة السياسية .

ولكن بغداد راحت ــ في مواجهة النقيضين الذين يلتقيان في محاولة عزلها ــ تنظر بالتدريج الى ما يحيط بها نظرة ديناميكية عميقة الغور واسعة الافق . لم تنظر كلمة التاريخ بعد الف عام ليقول عنها انها كانت شهيدة مظلومة او انها كانت بريئة من التلوث في أوحال الزمن الرديء . وانما رأت بعين ثاقبة ان كلمة التاريخ يكتبها الذين يشاركون في صنعه . هكذا لم يعد العالم من حولها سوادا مطلقا او بياضا مطلقا ، وانما هناك ملايين الالوان الواقعة بين الاسود والابيض ، ولا بد من العمل حتى تقل رقعة السواد وتزداد رقعة البياض . او ما نسميه في المنطق بالجدل وفي اللغة بالحوار وفي السياسة بالصراع .

وكانت بغداد قد ادركت مع الزمن ان الصراع الفوقي وخاصة الاعلامي ليس هو المجرى الرئيسي للصراع . انه ليس اكثر من عامل مساعد يتشكل وفقا لروح الصراع الحقيقي الذي يجب أن يسود . من هنا كان اتجاه النظام الوطني في العراق الى الحوار مع البنية التحتية للمجتمعات العربية ، وفي مقدمتها مصر . لقد هلل الاعلام المصري لوعود كثيرة بالدولارات والريالات التي لم يجيء منها الا ما يكفي لبناء الشقق الفاخرة المفروشة والملاهي الليلية . وصمت هذا الاعلام عما قدمه العراق لشعب مصر في المشروعات الكبيرة والانشاءات الثقيلة التي لا تفيد بالقطع الباشوات الجدد من السماسرة والطفيليين ووكلاء الفواني .

ولكن بغداد لم تحزن من الصمت المحيط بانجازاتها داخل مصر وخارجها ، لانها لم تدفع مليارا للدعاية التي يمكن الحصول عليها بأقل القليل .. وانما كانت السلطة الثورية في العراق تدرك انها شريكة أساسية في الصراع القومي الدائر ، لذلك فان توجهها الى الاسس المادية الراسخة للاقتصاد المصري ، اي توجهها الى الحاجات الاصيلة لغالبية الشعب المصري ومستقبله هو انحياز مطلق لاحد طرفي الصراع الاجتماعي والوطني داخل مصر . انها بدعم القطاع العام والصناعات الحيوية قد لا تشارك في

ازدهار المجتمع الاستهلاكي ، ولكنها بالقطع تشارك في حماية القاعدة المادية والبشرية لمصر الوطنية التقدمية .

وبالرغم من اية تحفظات ، فان مصر الرسمية قد دخلت هذا الحوار الاقتصادي مع بغداد ، سواء بالمؤسسات المشتركة بين البلدين ، او بايفاد مئات الكوادر الفنية الى العراق ، للعمل في خطة التنمية الطموحة هناك .

كان هذا ولا يزال جوهر الحوار الذي اختارته بغداد ورضيت به — رغم اية عقبات — العاصمة المصرية .

غير ان هذا « الاختيار » لجوهر الحوار — وهو التوجه الى البنى التحتية — لا يعني مطلقا ان الحوار مع الابنية الفوقية ، الثقافية والسياسية ، قد وضع على الرف .

فقد كان الحوار الثاني ، ولا يزال ، هو الحوار الثقافي .. ولم تفقد بغداد هنا ايضا ، أسس اختيارها الجوهري بالانحياز المطلق للثقافة الوطنية التقدمية . ولعل التفاعل الثقافي بين القاهرة وبغداد هو ارقى اشكال التفاعل الحضاري بين عاصمتين عربيتين في الوقت الحاضر . ان تواجد بعض كبار المثقفين المصريين في اجهزة الاعلام العراقية ، والنشاط الثقافي العراقي في القاهرة ، هو نموذج فذ لتطبيق المفهوم القومي الثوري في مجال الفكر والفنون . انه النموذج الذي يتجاوز أسوار الدعاية الفجة لاحد البلدين في العاصمة الاخرى الى دائرة النواة الصلبة للجبهة الثقافية العربية المناضلة لبناء حضارتنا الجديدة . ان المثقفين المصريين في العراق ليسوا لاجئين ، والمركز الثقافي العراقي في القاهرة ليس « مكتب استعلامات » . وانما هو تفاعل حي خلاق على صعيد الثقافة القومية ضد الغزو الفكري الاستعماري والرواسب الاقليمية ، كما انه على الصعيد الوطني في مصر ، يدعم القوى الثورية في صراعها العنيف ضد قوى التجهيل والتخلف والانحلال .

خطان متسقان حول جوهر واحد للحوار الدائر — دون ضجيج اعلامي صاخب — بين القاهرة وبغداد : الخط الاقتصادي المنحاز لمستقبل الطبقات الشعبية ؛ والخط الثقافي المنحاز لقوى الثقافة الوطنية والتقدمية .

الجوهر يتجه أساسا الى الابنية التحتية دون اغفال للبناء الفوقي ، ومن بين أخطر عناصره الفكر والثقافة .

ولكن .. هل يمكن اغفال الحوار السياسي ؟ هنا تتشابك خيوط المسألة الى درجة التعقيد ، فبالرغم من تشابه ـ لا تطابق ـ الاسس المادية للمجتمع بين القاهرة وبغداد ، الا ان النظام السياسي يختلف هنا عنه هناك .. فالنظام العراقي يعتمد هيكله الرئيسي على حزب وجبهة وطنية . اما النظام المصري فيقوم على مجموعة من المؤسسات تفسح مكانا واسعا في قمة الهرم للفرد صاحب القرار . من هنا كان القرار العراقي تجسيدا لاختيار الغالبية ، وتتحدد حركته في الاطار الاستراتيجي للحزب والجبهة . اما القرار المصري ، فبالرغم من تعبيره الاجتماعي عن احدى الفئات ، الا ان حركته تتمتع بسلطات الفرد المطلق الصلاحية دون ضابط استراتيجي .

هكذا ، كان من المحتم منذ البداية ، ان يحدث التعارض بين اسلوبين في العمل السياسي .. فقد تستطيع القاهرة ان تغير « فكرها » بين عشية وضحاها ، وبالتالي يتبدل « عملها » .. اما بغداد ، فانها لا تستطيع ان « تلعب » بهذه الطريقة .

بعد الاختلاف في نقطة البداية ، يجيء التعارض الجوهري بين اهداف القاهرة من حرب تشرين ونتائجها وتصور بغداد لحرب التحرير وما جرى من مضاعفات .

وكان يمكن ـ نتيجة لهاتين النقطتين ـ ان يستحيل الحوار السياسي بين العاصمتين او ان يصل بهما الامر الى طريق مسدود .

ولكن بغداد التي رفضت العزلة الاختيارية والاضطرارية معا ، رفضت العزلة من ادعياء النقاء الثوري من دعاة الاقليمية جميعا ، رفضت الحوار الذي أقامته مع مصر اقتصاديا وثقافيا ان يتوقف سياسيا. وكانت في ذلك تنطلق :

● من ان العمل القومي لا يستقيم بأية حال اذا تجاهل مصر دورا وتاريخا وتراثا وحضارة وبشرا وموقعا من الامة العربية .

● وان مصر ـ لظروف عديدة ـ تحتاج الى العمل القومي الفعال . فالقوى الاقليمية داخلها لها وزن وثقل لا يستهان به .

● وان مصر ليست شيئا واحدا هو السلطة ، وانما هي عديد من القوى الاجتماعية المتصارعة ، والتي يصبح الامر بعزلها او العزلة عنها ، حيادا سلبيا لمصلحة قوى التخلف ، وتراجعا قوميا لمصلحة القوى الاقليمية .

لذلك كانت ضرورة الحوار السياسي مع مصر .

وقد دخلت بغداد الحوار مع العديد من القوى الاجتماعية المصرية في القاهرة وبغداد وغيرهما من العواصم العربية .. دخلت هذا الحوار الخصب مع مختلف القوى الوطنية والتقدمية .

ولم تكن مصر الرسمية بعيدة عن هذا الحوار ، لان النظام المصري ليس هو هذا الشخص او ذاك ، هذه الوجوه او تلك .. وانما النظام المصري هو مجموعة الاسس المادية والاقتصادية والاجتماعية التي لا زالت رغم الضغوط والمخاطر تحمل سمات الكيان الوطني . ان مصر الرسمية بالرغم من كافة التحفظات على اسلوبها السياسي ، لا زال مصيرها مرتبط بالقواعد المادية والبشرية التي ارستها ثورة ٢٣ تموز الوطنية . ان مصر الرسمية لم تحسم الصراع الداخلي في مصر باختيار استراتيجي واضح ومحدد .

ومن هنا كان الحوار معها ضرورة مضاعفة :

● ذلك ان مصر لا تتاجر بدمها ، ولكن من حقها القول بانها بذلت في ساحة المصير العربي مائة الف شهيد خلال الربع القرن الاخير .

● كما ان مصر هي الحلقة الرئيسية ـ سلبا وايجابيا بالغياب والحضور ـ في النضال العربي المعاصر .

● ومصر هذه ـ أيا كانت التحفظات على النظام والسلبيات في المجتمع ـ تعاني في الوقت الحاضر أزمة اقتصادية طاحنة تشارف حدود

المجاعة التي لم تحدث لها منذ آلاف السنين . وهي أزمة ذات حدين يمكن استخدامها من جانب العدو والثورة المضادة عربيا وداخليا ، ويمكن الاسهام في معالجتها قوميا ، لا بدافع الشهامة والكرم ، وانما بمنطق الثورة والثوار .

● ومصر ايضا هدف رئيسي لاغراءات التسوية الاميركية في الشرق الاوسط ، فاذا تمكنت السهام المسمومة من اصابة القلب ، فسوف تصاب الاطراف بالشلل لوقت طويل .

تدرك بغداد ذلك كله ادراكا عمليا عميقا ، فكلما احرزت التسوية المزعومة نقطة ضد سيادة مصر واستقلالها وانتمائها العربي الاصيل ، فان الولايات المتحدة تسارع الى تهديد منابع النفط ، وتسارع الى تسليح ايران وتدريب السعودية ، وتلتهب الحدود في الشمال .

وتدرك بغداد انها بامكانياتها الاقتصادية وطموحاتها المشروعة في التنمية والتقدم الاجتماعي ، تتكامل مع القاهرة بخبراتها العلمية والفنية وثروتها البشرية .

هكذا كان الحد الادنى من اللقاء السياسي بين العاصمتين متوفرا واكثر .. فالعدو الحقيقي مشترك والارض التي يمكن الوقوف عليها راسخة وليست ضيقة .

لذلك فان الحوار بين القيادتين المصرية والعراقية تخلو مفرداته من قاموس المجاملات ومعجم الاستفزاز على السواء .. لان المطلوب هو دعم اواصر اللقاء الممكنة والقابلة للتطور والقادرة على صد الهجمة الاستعمارية الضارية المؤثرة في تغليب قوى الثورة على قوى الثورة المضادة .

ولا شك ان القيادتين المصرية والعراقية تدركان الشعور التاريخي الغامض والقائل بأن اتصال القاهرة وبغداد يحقق دوما للامة العربية أسس النهضة القومية الشاملة ، وانه كلما تقاربت العاصمتان لتحقيق الحلم سارع الاستعمار والقوى الرجعية لتحويله الى كابوس .

ولا ينتظر احد من هذا الحوار معجزة ، ولكن القوى صاحبة المصلحة في تحرير الارض وبناء النهضة تنتظر لهذا اللقاء ان يبدأ فقط .. وحين يبدأ يصبح المهم هـو ان يستمر ، ففي استمراره يكمن الامل في اننـا يومـا مـا سنفاجيء الاستعمار وقوى الشر الاقليمية بأن لقاء القاهرة وبغداد حتميـة تاريخية .

وطوبى لمن يستمع – قبل ضياع الوقت – الى صوت التاريخ .

المحرر ١٩٧٥/٢/٢٤

القاهــرة ـ بغــداد ... وبالعكس

ربمــــا ...

ربما بعد مئات السنين يتوقف احفاد احفادنا عند « الزمــن الرديء » الذي عاشه أجداد اجدادهم ، ويقولون : كلا .. لم يكن زمانهم كله رديئا ، فهم الذين وضعوا البذرة في الارض ، ولم يكتفوا باستمطار رحمات السماء حتى ينبت الزرع !

ربمــــا ...

ربما بعد أقل من ربع قرن وأمتنا تقرع ابواب عام ٢٠٠٠ يتساءل فلاح مصري في شمال العراق او جنوبه عما اذا كان صحيحا انه لم يولد هنا منذ آلاف السنين !

وربمــــا ...

ربما يستيقظ احد آباء الوحدة العربية من حلم العمر ليقول : رغـم روعة الخيال فالحقيقة أروع ، ورغم آلام الصليب فالقيامة ـ مؤكدة ـ مـن بين الاموات !

وربما لا يدري الكثيرون انه في زحمة ايامنا السوداء اقتحم تاريخنـا يوم مشرق هذا الاسبوع حين تم التوقيع في بغداد على بروتوكول التعـاون الزراعي بين مصر والعراق . لعل بعضهم قرأ الخبر بلا مبـالاة ، ولعـل البعض الآخر ابتسم كأن الامر نكتة ، ولعل البعض لم يقرأ واذا كان قـد قرأ فانه لم يفهم . ولكني حين رأيت وسمعت الناس البسطاء يتكلمون فـي شوارع بغداد ومقاهي البصرة وعلى طول الطريق من بابل الى كربلاء ، عـن

الفلاحين المصريين ومساحات الارض الهائلة والمحصولات التي يمكن أن تزرع وتصدر ، أيقنت بأن تجربة جديدة ورائدة للوحدة العربية ، تأخذ طريقها الى التحقيق في صمت وخشوع ورجاء دون زخارف الاعلام العربي الصاخبة .. وان هذه التجربة ـ لو نجحت ـ فسوف تؤذن بفتح صفحة جديدة في تاريخنا الحديث ، تحمل رسما جديدا لخريطة هذه الامة ..

ذلك انه تم الاتفاق ـ وبدأ التنفيذ ـ حول تهجير مجموعات كبيرة من الفلاحين المصريين للعمل في الاراضي العراقية ، وفقا لاهداف حددتها مذكرة مصرية على النحو التالي :

« بناء على طلب الحكومة العراقية وافق السيد رئيس الجمهورية على هجرة بعض أسر الفلاحين المصريين الى العراق وذلك بهدف تحقيق التكامل الاقتصادي في الميدان الزراعي بين البلدين .

وقد تم الاتفاق مع السيد رئيس المجلس الزراعي الاعلى بالعراق على تشكيل لجنة مشتركة من الجانبين تضم الخبرات المختلفة اللازمة لبحث ومناقشة هذا المشروع ولوضع الاسس والمبادىء وخطوات التنفيذ المناسبة التي تضمن سلامة نجاحه .

وبمناسبة وصول السادة اعضاء الوفد المصري المشارك في هذه اللجنة فاننا نقدم مقترحاتنا في هذا الشأن متضمنة نتيجة تجاربنا في العراق وذلك كورقة عمل يمكن الاسترشاد بها في عمل اللجنة لتسهيل مهمتها . وذلك كالآتي :

● هدف المشروع :

أ ـ المساهمة في حل مشكلة الكثافة السكانية في مصر والعمل على دفع مستوى معيشة عائلات الفلاحين المهجرين بتطبيق قانون الاصلاح الزراعي رقم ٧٣/١١٧ عليهم .

ب ـ ملء الفراغ الحالي في المجتمع الفلاحي العراقي والاستفادة من الخبرات المصرية في استصلاح واستزراع الاراضي العراقية المتوفرة بكثرة .

جـ ـ العمل على تحقيق التكامل الزراعي بين البلدين مما يعود على المنطقة بفوائد اقتصادية كبيرة .

د ـ تجهيز مجموعات فلاحية مصرية عراقية للعمل في اطار الشركة الزراعية المشتركة (تحت الانشاء) .

هـ ـ الاندماج في المجتمع الزراعي العراقي ـ والتأثير بالفعل الحضاري للفلاح المصري على قرينه العراقي ـ وايجاد تزاوج مصري عراقي ليمهد الطريق للوحدة الفكرية بين القواعد الشعبية على المدى الطويل .

● مراحل التنفيذ :

أ ـ يبدأ البرنامج التنفيذي بمجوعة نموذجية تكون كمجموعة اختبار لباقي المراحل ويقترح أن تكون ما بين خمسين الى مائة عائلة لمدة عام .

ب تبدأ المرحلة الثانية بالتوسع في الاعداد الهجرة للعمل في اطار الشركة الزراعية المشتركة لمدة عام .

جـ ـ تبدأ المرحلة الثالثة بعد اختباروتجارب المرحلة الثانية خارج نطاق الشركة الزراعية المشتركة .

● التزامات الجانب العراقي :

أ ـ تجهيز السكن المناسب لجميع العاملين في المشروع في المناطق المحددة لعملهم في استصلاح الاراضي الزراعية (على ان تكون شاملة لكافة الخدمات العامة من رعاية صحية واجتماعية وخدمات عامة اخرى) في صورة قرى نموذجية ذاتية متكاملة .

ب ـ تحديد الارض الزراعية المناسبة في نطاق القرية المذكورة مع اعداد الأدوات والاجهزة الزراعية المطلوبة وكذلك ما تحتاجه هذه العوائل من دواب ومواشي وخلافه ... الخ .

جـ ـ الاتفاق على ان تتحمل العراق صرف مرتبات شهرية لهم حتى يبدأ الانتاج الاقتصادي للاراضي المستصلحة .

د ـ الاعداد المناسب لامكان منح المهجرين دورة تدريبية فور وصولهم الى العراق .

هـ ـ ضم مجموعة من الفلاحين العراقيين للعمل مـع الاسر المهجـرة بنفس الشروط التي يتفق على تطبيقها على الاسر المصرية .

و ـ انشاء مكتب بوزارة الزراعة او المجلس الزراعي الاعلى العراقي تكون مهمته رعاية العاملين بالمشروع والعمل على حـل مشاكلهم ويمكـن الاتفاق على ان يكون المشرف الاجتماعي المقيم بالمشروع هو حلقـة الاتصال بين العائلات المصرية والمكتب المقترح انشاؤه لهؤلاء الفلاحين في مصر .

جـ ـ اعداد المهجرين محليا وتوفير اي مصروفات استعدادا للسفر .

د ـ يقترح عقد بروتوكول بين البلدين يتضمن نصوص الاتفاق الـذي يتم بين البلدين في اطار اتفاق التكامل الاقتصادي المنعقد بين البلدين فـي ١٥ ـ ١١ ـ ١٩٥٨ واتفاق التعاون الفني المنعقد في ١٧ ـ ١١ ـ ١٩٥٨ .

هـ ـ تشكيل لجنة دائمة بـين البلدين للاجتماع كـل ستة شهور لمراجعة تنفيذ التجربة والتقدم بأي اقتراح لضمان التطوير والتغلب عـلى العقبات الغير منظورة في التطبيق .

وقد آثرت ان انشر النص الكامل لهذه المذكرة التي اجتمعت اللجنـة من حولها كورقة عمل ، ولكنها عند التطبيق كانت قد تحولت الى خطـوط عامة اغنتها التفاصيل التي اضافها الحوار من جانب ، والتجاوب العراقي المدروس من جانب آخر .. حتى ان التجربة قـد بدأت بخمسماية اسرة بدلا من مائة ، واصبح الافق متسعا لمليون في المستقبل ، بـل ان مسؤولا عراقيا كبيرا قال لي : ان ارضنا قادرة على استيعاب خمسة ملايين فـلاح مصري .

وليس هذا الكلام من قبيل الحماس الاجوف ، لانه يعتمد على العلـم والتجربة واليقين المطلق بالوحدة العربية التي لا تعتمد على الشعار وانمـا على المشروع ، ولا تعتمد على الاعلام وانما على العمل ، ولا تعتمد عـلى القرارات الفوقية وانما على اختيارات الجماهير .

ولانها تجربة رائدة ، فانها محاطة بالعديـد مـن الصعوبات ، ليس اخطرها البيروقراطية .. وقد علمت ، عـلى سبيل المثـال ، ان الرئيس

السادات قد اصدر تعليماته بتشكيل اللجنة المصرية المكلفة بالحوار مع الجانب العراقي منذ ثلاثة أشهر ، تنازعت خلالها وزارة الزراعة ووزارة الاصلاح الزراعي وامانة الفلاحين بالاتحاد الاشتراكي ، حول اختصاص كل منها بانجاز المشروع .. وانتهى الاشكال البيروقراطي باسناد المهمة الى امانة الفلاحين . ومن هذه الصعوبات ايضا النزعة الاقليمية التي يمكن ان تطفو على السطح عند هذه المرحلة او تلك من مراحل التنفيذ . وقد علمت مثلا ان موظفا مصريا كبيرا لم يعرف عنه مطلقا التعاطف مع الفلاحين بل انه اشتهر باحتقارهم ، ولكنه عند احتكاكه بالمشروع من بعيد راح يتكلم بصوت عال وكأنه بصدد بعثة ذرية لتعليم أسرار الفضاء .

غير ان هذه الصعوبات وامثالها مما سيستجد ، لا علاقة لها بالفلاح المصري او الفلاح العراقي ، وانما هي من السلبيات التي لا مفر من الاقرار معها بأنه سيكون هناك حتما من يقف ضد التجربة ، ويجب ان نضع هذا في اعتبارنا سلفا . بل اننا يجب ان نضع في تخطيطنا ان هنا سلبيات أخرى كامنة او راسبة سوف تفصح عن نفسها في سياق العمل ، فليس سهلا الانتقال من مكان الى مكان ولا من بيئة الى اخرى ، ومهما قلنا بتشابه المجتمعات العربية فان الخصائص الاقليمية يستحيل الغاؤها بجرة قلم . ولكن الفرق يظل هائلا بين الاقرار بهذه السلبيات من موقع يهدم التجربة والاقرار بها من موقع يبنيها . وبخاصة اذا توفرت العناصر الاساسية للنجاح ، وأهم هذه العناصر على الاطلاق هي الفلاح المصري والارض العراقية . اما اذا رسخنا في ضميرنا الدلالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فاننا نستطيع باطمئنان كامل ان نقول :

● لقد وضعنا أيدينا على الاساس الجوهري للوحدة العربية ، وهو التكامل الاقتصادي الذي يدعم كيان الامة ولا يعبر عن ازمة مصرية هي الانفجار السكاني كما يعبر عن طموح عراقي بزراعة الارض العارية من اللون الاخضر .

● وانما يعبر هذا الاساس عن حاجة الامة الى نفسها ، وذلك بالبدء من أخطر مقومات تكوينها واقواها ، بالبدء من تحت لا من فوق .

● كما يعبر هذا الاساس عن الجوهر الحقيقي لاية وحدة سياسية قادمة ، وهو ان جماهير الشعب العربي — والفلاحون عصبها الرئيسي —

هي صاحبة المصلحة الحقيقية في الوحدة القومية ، وهي وحدها القادرة على صنعها .

● كذلك يعبر هذا الاساس عن ان العلم بدلا من الشعار ، والتجربة بدلا من الحلم ، والزمن بدلا من الارتجال هو الطريق الوحيد المفتوح الى الوحدة الحقيقية .

لذلك فهي تجربة صعبة والنضال لانجاحها مرير لا يتوقف على النيات الحسنة ، سوف يحاربها كل أعداء الوحدة هنا وهناك .. ولكنها اذا نجحت سوف تزلزل الارض من تحتهم جميعا ، ولكن « زمنهم الرديء » يكون قد انتهى .. وبدأ الزمان العربي .

المحرر ١٩٧٥/٣/١٧

وانهزمت الجغرافيا امام التاريخ

ربما كانت مقدمات ونتائج « الاتفاق » العراقي الايراني . أهم كثيرا من « نقطة الوصول الى حل » ، لان السياق التاريخي في جملته يشكل ملامح « المنهج » الذي امكن بواسطته انجاز ما كان يتصوره البعض الى وقت قريب وكانه معجزة في عصر لا يعرف المعجزات . اي انه بالرغم من الاهمية البالغة لاتفاق الجزائر ، فان الفكر السياسي الذي فرض هذا الاتفاق على صعيد الرؤية الاستراتيجية والعمل التاكتيكي هو الجدير بالتأمل .. لانه يفسر الماضي فحسب ، وانما هو يستشرق آفاق المستقبل ايضا .

ولعل اولى المقدمات التي مهدت للوضع السياسي الراهن على الحدود العراقية ، هو مجموع الاجراءات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الداخلية التي اتاحت للبلاد استقرارا لم تعرفه منذ سنوات طويلة طويلة . وقد ظلت بغداد طيلة السنوات السابقة على ١٧ تموز ١٩٦٨ نهبا لتوقعات « البلاغ رقم ١ » وميدانا للتصفيات الدموية .. حتى بات « الامان » حلما يراود الرؤوس في المنام دون ان يتحقق في اليقظة على الاطلاق . ولم يكن ذلك الا لانه كانت هناك هوة سحيقة بين الشعار والفعل ، مما اتاح للمزايدات ان يرتفع صوتها ، باحتكار السلطة لهذا الفريق او ذاك ، والعزلة التامة عن الجماهير .

من هنا كان على القيادة السياسية الجديدة في بغداد ان تفكر وتعمل قبل ان ترفع اللافتة والشعار . ومن هنا ايضا كان تأميم النفط وقيام الجبهة الوطنية ــ في زمن قياسي من حيث كونه فترة بالغة القصر في عمر الشعوب ــ بمثابة الاساس المادي الراسخ لبناء النظام الجديد . لقد ظل

التأميم خيالا يداعب الاحلام ، وكذلك الجبهة بين مختلف التيارات السياسية المتصارعة على أرض العراق .. لان منطق الحساب طوال الفترات السابقة لم يكن منطقا ثوريا متصلا بعمق أعماق الجماهير ، وانما كان اقرب ما يكون الى المنطق الرياضي الذي يرصد التحديات والمخاطر بعين مفتوحة ، ويغلق العين الاخرى عن طاقات الشعب وامكاناته الهائلة . لذلك بقي الشعار والصراعات العقيمة من حوله زمنا طويلا . اما حين اتسع الخيال ليستوعب المخزون من الارادة الشعبية ومتغيرات العصر ، فانه كان قادرا على الخلق والابداع فانتصر التأميم وقامت الجبهة . وترسخت بذلك اركان النظام الثوري الجديد ، سواء بدعم التنمية الاقتصادية على طريق التحول نحو الاشتراكية ، او بدعم الوحدة الوطنية عن طريق التطور نحو الديموقراطية .

وكان من الطبيعي ان تواجه هذه « السياسة الجديدة » للحكم العراقي الوافد مع ثورة ١٩٦٨ بعديد من ردود الفعل المتباينة .. فعلى صعيد الشارع المحلي بدأت جماهير الشعب تنفض عن نفسها غبار السنين وتتقيأ من داخلها رواسب الزمان الدموي ، وراحت تهدم جدران عدم الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتمحو من الذاكرة اشجان التربص بين قوة واخرى . ورغم ان اكداس الهول القديم وتراكم العذاب ، لا يمكن ان تغادر الاعماق بسهولة ويسر ، فان النضال الصبور من جانب السلطة ، والايقاع السريع لاجراءاتها المادية الملموسة ، ساهما دون شك في اقامة جسور الثقة والشعور بالامان . ولم يكن النظام الجديد يركن الى الهدوء والراحة بعد كل خطوة في مجالات التنمية او الديموقراطية ، وانما كان ولا زال يواصل العمل قبل رفع الشعار وكأنه يبدأ من جديد .

اما على الصعيد العربي العام فقد ووجهت القيادة الثورية في بغداد بمحاولات ضاغطة لعزلها بسبب الخلاف المبدئي بينها وبين بعض الانظمة العربية حول المسائل الجوهرية التي تمس المصير القومي وبالذات القضية الفلسطينية وما يتفرع عنها من مواقف ازاء الامبريالية الاميركية والاستعمار الصهيوني . ولم يحدث ان تدخل العراق الجديد في الشؤون الداخلية للاقطار العربية الاخرى ، ولكنه كان حريصا على تبيان ستراتيجيته في ساحة الصراع القومي ، ولما كان البعض قد آثر العمل وفق منهج مختلف ، فانه راح يضغط لفرض العزلة على العراق حتى تتسنى لتحالفاته الجديدة حرية الحركة في مناخ هادىء .

وعلى الصعيد الدولي توثقت العلاقة بين العراق والاسرة الاشتراكية وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ،لا بموجب المعاهدة المعقودة بينهما ، وانما على أسس نظرية راسخة بحتمية التحالف الاستراتيجي بين حركة التحرر الوطني التقدمية والمعسكر الاشتراكي .. دون ان يعتمد هذا التحالف على الافراد والاهواء والمصالح الضيقة ، وانما وفقا لنديه كاملة في العلاقات وتقارب في الاهداف ،وتنوع في الوسائل ، واعتماد الحوار الموضوعي اسلوبا وحيدا للتفاعل بين التجارب والصيغ على السواء . ومن جانب آخر كانت القوى الامبريالية القديمة والجديدة قد استيقظت على آفاق هذه « الثورة غير المسموح بها » فكان رد فعلها الحاسم مزدوجا : اخفقت مساعيها في تجميد التأميم وتأخير الجبهة ، فألهبت الحدود الشمالية وراحت تبني ترسانتها المسلحة في ايران لتهدد الخليج . وقد جاء اشتعال المشكلة الكردية مفاجئا الى أقصى الحدود ، سواء من ناحية انفجارها المسلح على نحو غير مسبوق او من ناحية ضجيجها الاعلامي الصاخب او من ناحية الاطراف التي شاركت في تأجيجها . كذلك اقبلت تحرشات ايران وتهديداتها والغائها لمعاهدة ١٩٣٧ من جانب واحد ، وكان الاستعمار الذي لم يستطيع تكرار مأساة السويس ولم يستطع تفجير الوضع من الداخل ، قرر ان يحاصر التجربة العراقية الوليدة بعزلها عربيا واستنزافها حدوديا .

هذان هما التحديان الرئيسيان اللذان احاطا التجربة كرد فعل عربي واجنبي على نجاحها في تصفية التحدي الداخلي .

وكان من الممكن للثورة ان تقع في مصيدة رد الفعل . ولكنها قرات التاريخ واستخلصت ما يشبه القانون : فقد اغار عبد الكريم قاسم على الاكراد في حرب ابادة عنصرية كادت تذهب بمقدرات الوطن ، وقد تحالف الاخوان عارف مع القوى الرجعية المحلية والعربية فكادت البلاد ان تهوى في حضيض لا قرار له . واذن فلا سبيل لفك العزلة العربية بالمساومة . هكذا عادت الثورة الى مبررات قيامها ، كما عادت الى منهجها في صياغة الوضع الداخلي ، عادت الى الاصل لتعالج فروع رد الفعل السلبي على الحدود هنا وهناك . ان وحدة المنهج في معالجة الداخل والخارج من ابرز سمات التجربة العراقية ، انها تعني ان هناك فكرا ستراتيجيا كالبوصلة النظرية الهادية الى التطبيق الحي الخلاق . هكذا كانت الصيغة الديموقراطية لتطور المجتمع قانونا عاما للتجربة لا علاجا خاصا بالداخل .. فكما ان الجبهة الوطنية التقدمية هي الاطار التنظيمي للتحالف بين مختلف

القوى السياسية ، جاء بيان الحادي عشر من آذار عـــام ١٩٧٠ تجسيدا عميقا لطموحات القومية الكردية مـــن حيث الاعتراف بوجودهـــا الشرعـــي واقرار حقوقها الثقافية واللغوية وانشاء جامعة السليمانية والمجمع العلمي الكردي وتأسيس دار للطباعة والنشر باللغة الكردية واستحداث مديريـــة عامة للثقافة الكردية واعتبار العيد القومي للاكراد ــ النوروز ــ عيدا وطنيا عراقيا واصدار قانون المحافظات الذي يؤمن اللامركزية للادارات المحليـــة واستحداث محافظة دهوك ، واصدار عفو شامل عن جميع الذين اشتراكوا بحوادث الشمال بالافراج عن المعتقلين منهـــم مدنيين وعسكريين واعـــادة الطلبة المفصولين الى المدارس والجامعات ، واعادة العمال والموظفين الـــى اعمالهم ، واقامة المنظمات الجماهيرية الخاصـــة بهـــم كاتحـــادات النساء والعمال والطلاب والشباب .

وفي كانون الثاني ــ يناير عام ١٩٧٤ صدر التقرير السياسي عـــن المؤتمر القطري الثامن لحزب البعث العربـــي الاشتراكي ، وقـــد خصص الفصل الثالث لاستعراض المسألة الكردية ، ومما جاء فيه ان المنهج الثالث الذي يعتمده الحزب هو « المنهج السلمي والديموقراطي عن طريق التعاون المخلص والايجابي مع القوى الخيرة الوطنية والتقدمية في صفوف الجماهير الكردية ، وفي اطار العمل الوطني المشترك المتمثل بالجبهـــة الوطنيـــة التقدمية » ... وينبغي الاشارة الى ان هذا النص قـــد ورد في صلـــب التقرير القطري الثامن كحصيلة لمناقشات طويلـــة درست الماضـــي وقرأت الحاضر ونظرت الى المستقبل ، اي ان هذا النص لم يكن شعارا جاهزا بل كان ثمرة صراع مضن مع النفس ونضال مرير مـــع الذات . لذلك التزمت به القيادة السياسية التزاما ايجابيا فاعلا ، التزمت بالروح قبل الحـــرب حين أقدمت على خطوتها التاريخية في الحادي عشر مـــن آذار ــ مـــارس ١٩٧٤ باعلانها الحكم الذاتي في منطقة كردستان .

ويبدو أن هذا الاعلان الذي جاء نقيضا لاسلوب التوفيقية والمراوغـــة الذي تميزت به الحكومات العراقية السابقة ، والذي جاء نقيضا لمنهـــج حروب الابادة العنصرية ، يبدو انه قد هبط على الجناح الرجعي في الحركة الكردية كمفاجأة غير منتظرة .. فليس مـــن شـــك ان العمـــل السياسي الكردي كأي عمل سياسي آخر لم يكن متجانسا ، بـــل كان ولا زال متعدد

الاجنحة والتيارات . واذا كانت بعض عناصره قد استبشرت خيرا مع قدوم الثورة في آذار ١٩٦٨ فان عناصر اخرى لم تكن تود للمشكلة ان تحل بحكم مصالحها وارتباطاتها قد حاولت المستحيل لعرقلة الحل السلمي وفرض القتال . وتجدر الاشارة الى انه حين اصدرت حكومة عبد الرحمن البزاز بيانها المعروف في ٢٩ حزيران ١٩٦٦ حول المسألة الكردية ولم يكن يتضمن الحد الادنى من الحقوق القومية للاكراد بل اشترط في مادتـــه التاسعـة بالفقرة « أ » عندما تنتهي اعمال العنف يصدر العفـــو العام » فان الـــرد الرسمي للملا مصطفى البرزانـي قـد حملتـه برقيـــة الـى الـرئيسين عارف والبزاز هـذا نصهـا الحرفي « جاء البيان الـــذي تفضل السيـد رئيس الوزراء بالقائه مساء هذا اليوم حول سياسة الحكومـة في شمـــال الوطن والمنهاج الذي تضمنه تعبيرا صادقا عن رغبة ابناء الشعب عموما من عرب واكراد لتحقيق ما تصبو اليه البلاد من سلم وازدهار ووحدة وطنية . اننا نؤيد مخلصين ما جاء في هذا البيان المذكور وسنعمل من جانبنا كل مـا يقتضي بتحقيق الاهداف التي وردت فيه داعين اللـه ان يأخـــذ بيدكـم ويوفقكم في اداء مهمتكم التاريخية » . وقد نشرت جميع الصحف العراقية والكردية هذه البرقية في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٦٦ .

وكان ـ كما يتضح ـ تأييدا غير مشروط . ولكن ايضا كـان تأييـدا لسلطة رجعية تحوطها الشبهات ، لم تضع ما اعلنت مما هو اقل مـن الحد الادنى موضع التحقيق .

اما حين اقدمت سلطة ثورية عـــلى خطوة تاريخية بكافـة المعاني ، واعطت الحكم الذاتي كاملا الى الاكراد ، فقـد كان رد الفعل سلبيا عـــلى الصعيد السياسي دمويا على صعيد القتال . وكانت الضحية الرئيسية هي الشعب الكردي الذي بذل التضحيات الجسام لزمن طويل ، وحين تهيـــأ المناخ في بغداد لمنحه حقوقه القومية المشروعة ، عمدت قيادة احـد اجنحته الرجعية الى حرمانه من هذا الكسب التاريخي وتعويـــق مسيرته لنيـــل حقوقه . هكذا تلونت الجبال في اقصى الشمال بحمرة الدم بعـد ان كادت تشرق عليها الشمس . وتمكنت اطراف اجنبية من التسلل الـــى الحركة الكردية ، لتمدها بالسلاح والاذاعات والصحف والتشجيع عـــلى مواصلة القتال . كل ذلك لان سلطة ثورية ـ غير مسموح بهـــا ـ ولـدت في بغداد تؤمن بالحرية والتقدم والسلام لشعبها ولجميع الشعوب .

وكان من الممكن ان يكون رد الفعل من جانب هـذه السلطة انفعاليا ، لو ان هذا الحل الجذري للمسألة الكردية كان عرضا تكتيكيا .. ولكنه فكر ستراتيجي مبدئي يرفض الضغوط . لذلـك واصلت القيـادة السياسيـة مسيرتها السلمية باقامة الحكم الذاتي لمنطقـة كردستان في موعده المحدد باعلان اذار ١٩٧٤ مدعمة بمنجزاتها الوطنية المتنامية في الداخل واستحداثها رؤية جديدة للعمل العربي والعمل في المجال الدولي .

كانت قد استطاعت ان تفك الحصار العربي المضروب مـن حولهـا بالاتجاه المباشر نحو جماهير الشعب العربي ، بتفاعلها مـع القاعدة العريضة لهذا الشعب ومصالحه الاستراتيجية الثابتة دون اللجوء الـى المحاورات الاعلامية الصاخبة . وتمكنت القيادة العراقية بحضورهـا المكثف ورؤيتها القومية الشاملة ان تحطم جدار العزلة وان تخرج الـى الساحة العربية مزودة بالنموذج الوطني الديموقراطي الذي ابدعته لا بالميكرونات وشاشات التلفزيون . كما انها خرجت الـى الساحـة مزودة بطموحاتها المشروعة في التنمية المحلية واحتياجاتها الى كل ساعد وعقل عربي ومبادراتها الى مـد قنوات ثروتها النفطية الى كل مجتمع عربي يحتاج الـى المشروعات الثقيلة والبعيدة المدى .. اي انها راحت تبني جسور الوحـدة العربيـة الحقيقية وتقيم دعائمها الثابتـة في اعماق الارض . وهكـذا اخرجت ـ في نفس الوقت ـ المسألة الكردية من اطارها الاقليمي البحت لتصبح مسألـة عربية في جوهرها . كما اخرجت مسألة الحدود مـع ايران من طابعها المتوارث لتصبح قضية العرب جميعا .

وكانت القيادة الثورية في بغـداد تـدرك بعين بصيرة متغيرات العالـم المعاصر وفي مقدمتها ان الوحش الاستعماري لم يعـد سيـد الغابة ، وان التحالف الموضوعي مع الاسرة الاشتراكية وبالذات مـع الاتحاد السوفياتي يترجم المتغيرات العالمية الجديدة لمصلحة حركة التحـرر الوطني التقدمية ، وان الانفراج الدولي كسب تاريخي للدول الفتيـة يدعم قواها الذاتيـة المؤثرة اساسا وليس العكس ـ وان هذا الانفراج يتواءم مع ايمانها المبدئي بالتعايش السلمي بين الشعوب . لذلك كان حوارها الاخوي ـ في الاقتصاد والسياسة ـ مع المعسكر الاشتراكي ، ولذلـك ايضا كان تعاونها الصادق مع فرنسا .

وهنا ، بالضبط ، امكن فرض الحل الديموقراطي للمسألة الكردية ..

وهنا ، بالضبط ، يجيء الاتفاق العراقي الايراني في مكانه التاريخي من سياق الاحداث ..

وليس مهما في ظني التركيز على مـــا دار في الكواليس ومـــا جرى في الغرف المغلقة ، سواء في بغداد او الجزائر او طهـــران او عمان او زيورخ ، او غيرها من العواصم ، فلعل متابعة تفاصيل الاسابيع الماضية تضلل العين عن رؤية الجوهر ... هذا الجوهر الذي اتيح لـــه ــ بفاعلية الدبلوماسية العراقية المرنة ــ مناخ عربي مناسب ورأي عام دولي مشدود الانتباه .

ولكن ، ما هو هذا الجوهر ؟

هو ــ بتبسيط شديد ــ ان السلطـــة السياسية في بغداد وقفت في صراعها لحل المسألة الكردية الـــى جانب التاريخ ... بينما وقف الطرف الكردي المناوىء وبقية الاطراف الاجنبية المساعدة له الى جانب الجغرافيا. ان ما اقدمت عليه السلطة الثورية في العراق باعـــلان الحكم الذاتي لمنطقة كردستان كان تجاوبا دقيقا مع منطق التاريخ ولم يكـــن صلحا عشائريا او مناورة مرحلية او منحة . كان الصيغة الديموقراطية الوحيـــدة الصحيحة للتآخي بين قوميتين على ارض واحدة وتراب واحد . كانت هـــذه الصيغة هي الحل التاريخي الصحيح في اتجاه التقـــدم الاجتماعي الشامل لشعب العراق من العرب والاكراد . بينما كـــان الطرف الكردي المناوىء وقـــد تحصن في سلسلة من الجبال والكهوف يبنـــي استراتيجيته عـــلى اساس جغرافي محض هو تهديد الحدود الشمالية مـــن مواقع الحصانة الطبيعية والخطر الايراني .

لذلك كانت المفارقة صاعقة بين مشهد الطائرة العراقية التي اختطفها ثلاثة من الاكراد واضطروها للهبوط في مطار طهران ، ومشهد السيد صدام حسين وشاه ايران وهما يوقعان اتفاقية الجزائر بعد الحادث بيوم واحد ! جاءت الاتفاقية كنقطة وصول طبيعية لمجرى التاريخ بين البلديـــن ، ولكنها ايضا جاءت ضربة قاصمة لمنطق الجغرافيا التي يتحصن بها الطرف الكردي المناوىء .. فما ان ذاع النبأ في صفوفه حتى انهارت قلاعـــه الحصينـــة الواحدة بعد الاخرى . كانت الضربة ــ في اتفاق الجزائر ــ سياسية ، ولكن الهزيمة كانت تاريخية .

انهزمت الجغرافيا امام التاريخ . هذا هـــو جوهر الاتفاق العراقي الايراني ، فبغير القتال انتصر الشعب الكردي وهزمت قيادتـه الرجعية ، انتصرت السلطة الديموقراطية في بغداد وهزمت قبلهـــا سلطـات البطش الدموي السابقة .

وكما ان السلطة الديموقراطية لـم تتابع خط الـدم في حل المسألـة القومية ، فانها لم تستجب لمشاعر الشماتة التـي يمكن ان تقتحم الصدور وهي ترى الثمرة الناضجة لكفاحها المر تسقط في مشهد نادر لانهيار المنطق الجغرافي للشمال ... بـل واصلت التزامهـا بنفسهـا ، بمبرر وجودها واصدرت قانون العفو العام عن الاكراد العسكريين والمدنيين رقم ٥٢ لسنة ١٩٧٥ وبدأت الجماهير الكردية زحفها الـى حضن الوطن الام . ثم اصدر مجلس قيادة الثورة بيانه الخاص بالمواطنين الاكـــراد الذيـن لجأوا بسبب الاوضاع الاستثنائية في الشمال الى ايران معلنا « ترحيبه بعودة المواطنين المذكورين وتوفير كافة الظروف المناسبـة لتأمين حرياتهم واموالهم واعادة كافة حقوقهم وبذل العون والمساعدات المقتضية لهم مـــع شمولهم بجميع الاعفاءات المنصوص عليها في قانون العفو العام » .

وبدات رحلة العودة .. فماذا يفعل الطرف المناوىء ؟ بعثت قيادتـه الرجعية ببرقية مناورة للرئيس احمد حسن البكر ونائبـــه الرفيق صدام حسين ، تطلب « الحوار » العاجل ! عندما انهارت قلاع الجغرافيا راحـوا يطرقون ابواب التاريخ .

وابواب التاريخ مفتوحة دائما لمن يدخلون رحابه بـلا قيد او شرط . هكذا كان جواب القيادة الثورية حاسما . ولان التاريخ ـ دائما ايضا ـ هو تاريخ الشعب فانه لا يجيد الحوار مع اعدائه ، لا يعرف لغتهم .

لغة التاريخ هي وحدة الوطن والديموقراطية ، ولغة الجغرافيا هـي العنصرية والعشائرية .. وقد عشنا حتى راينا بعيوننا كيف انتصر التاريخ في واحدة من اروع معاركه ، فلنرو القصة لاحفادنا في ليالي اليأس الطويلة .

المحرر ١٩٧٥/٣/٢٦

الطريق الـى الشمال (١)

مطار بغداد القديم ، وقد تحول الـــى مطـــار خاص في قلب المدينة الواسعة ، ولا زالت اجواء الصباح الباكر تخيم عـــلى الصالـة الصغيرة والارض والسماء والانسان والاشياء .. ومن حولي مجموعة مـــن الوجوه والقامات والالسن والعيون المختلفة الالوان والاشكال والانفعالات . بالامس قال لي الاخ نديم الياسين ــ مدير العلاقات العامة بوزارة الاعلام العراقيةــ سوف نعتذر نيابة عنك لاكاديمية الفنون لانك لن تستطيع القاء محاضرتك . سوف تذهب شمالا ، الى سلسلة جبال بيرس ووادي نهلة، هناك في باكرمان ستشاهد ما لا يخطر لك على بال . لا تسألني شيئـــا . اذهب فقط ولن تندم .

وتداعت الى مخيلتي افلام الرعب الاميركية من ايام المغفور له طرزان الى الطيب الذكر جيمس بوند مرورا برعاة البقـــر الاشداء .. ذلـك ان « الشمال » يعني الاكراد بجبالهم وكهوفهم السريـــة واسلحتهم البدائيـة والحديثة ومكامنهم المخيفة ..

وانـــا

انا رجل مفتون بقراءة المغامرات والمعارك والحروب ، بين دفتي كتاب او على شاشة سينما او خشبة مسرح ، ولكنـي ــ حتـــى الان ــ اخشى ركوب الطائرة !

لا ادري لماذا وافقت ، بسرعة وعفوية قررت الذهاب . هكذا انـا كل مرة تتاح لي فيها فرصة نادرة لمعايشة حدث على الطبيعة . داخلي يضطرم بالرعب ، ولساني ينطق بنعم واذهب .

ونظرت في لمحة خاطفة الى « الزملاء » القادمين من السويد وانكلترا وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي والصين ، وجميعهم مسلحون بالكاميرات وآلات التسجيل ، الا واحدا لا يشاركهم « اللعبة » .

قلت : لعله مثلي يخاف ! واقتربت منه في حركة مفاجئة أجفل منها وكأني ايقظته من حلم طويل . وقور هو . ودع الشباب منذ زمن ولكن عينيه تتقدان حيوية او قلقا ، لا اعرف . من هو ؟ وفوجئت انه « مؤرخ » بلجيكي اشتركت اكثر من صحيفة وجامعة اوروبية في ايفاده الى هنا ليشهد بنفسه احدى لحظات التاريخ ! انه ليس صحفيا ولكنه يكتب للصحافة من قلب الحدث عما وراءه وامامه من مقدمات ونتائج ودلالات .

وفي الطائرة الخاصة التي اقلتنا الى « الموصل » كان نصيبي الى جانب صحفي صيني صغير السن ــ او هكذا يبدو ــ سألني طيلة الدقائق الاربعين سؤالا واحدا وكأنه مكتوب على اسطوانة خفية معلقة في حنجرته : ما رأيك في الاتحاد السوفياتي ؟ وحين تمكنت من استغلال برهة توقف فيها عن الكلام سألته : ما رأيك في ازمة الشرق الاوسط ، فأجابني على الفور : السوفيات هم السبب . قبلَ حرب اكتوبر هم السبب . اثناء الحرب هم السبب . بعد الحرب هم السبب . في المستقبلَ القريب والبعيد هم السبب . اقتحم اذاننا من الخلف صوت ناعم يقول بأنكليزية خشنة : ليس هذا صحيحا . التفتنا الى الوراء في وقت واحد . كانت « زميلتنا » السويدية وقد حملقت فينا بعينين عميقتي الزرقة ثم صاحت : الحقيقة الوحيدة هي انني انا السبب وليس الاتحاد السوفياتي او الاميركان او العرب او اسرائيل ! وضحكنا .. ولكن الزميل الصيني كان قد تجهم وراح ينظر امامه باستقامة شديدة .

حين هبطنا ارض المطار في « الموصل » كان صديقي هشام السامرائي ــ المرافق النشيط المتميز بخفة الظل وثقل الوزن ــ يسأل زميله « مازن » المترجم الدقيق أن يوجه نظر « الوفد » الى اننا سنتناول طعام الافطار قبل التوجه الى دار المحافظة واقتربت من المؤرخ البلجيكي متسائلا : من اين ستبدأ ؟ قال « منذ اكتشاف النفط في العراق ... وانت ؟ » اجبت منذ هبطت الطائرة الى الارض بسلام ! وبدا لي التاريخ وكأن لا علاقة له بعلم النفس !

★ ★ ★

قدم لنا المترجم الرشيق « السيد محافظ الموصل » في مكتبه الواسع المتواضع الذي تشم من جنباته رائحة الشرق ، سواء في الارابيسك الـذي يزين اركانه او في شخصية الرجـل الـذي يتكلم . انـه شاب يصدم « الاجانب » بسلوكه وطريقة حديثه ، ينزع مـن عيونهم صورة « الحاكم » التقليدية في العالم الغربي .. ليس محاطا بحاشية السلطان ولا يتكلم مـن انفه ، وانما هو يتابع لحظة فلحظة تطورات الموقف ، ويتلوهـا علينا كما يسمعها دون تنميق أو زخرفة او مبالغة .

كان السؤال الاول : هل تعتقد ان البرزاني قد هزم نهائيا ؟ اجاب في بساطة : سوف تشاهدون الان بأعينكم ما يجري واخبروني بالجواب . كان السؤال الثاني : الا تعتقد انـه يمكن ان يندس في صفوف « المستسلمين » من الاكراد عناصر برزانية تعيد تنظيم نفسها مـن جديد وتتحين الفرصة لتضرب من الداخل ؟ اجاب : اذا كان الداخل سليما فـلا خوف عليه مـن التخريب ، فقط لا تنسوا انهـم يسلمـون انفسهم واسلحتهم ، ولا مجـال لديهم للمناورة . كان السؤال الثالث : هل ترى ان الاطراف الاجنبية التي تدخلت الى جانب البرزاني سوف تتخذ موقف الصمت من هـذا الانهيار المفاجيء ؟ وكان الجواب : قل لي انت ماذا تستطيع ان تفعل و « جيشها » قد استسلم ؟ حتى الان لم نعرف اسلحة بـلا جند ، بـلا بشر ، وها هم الرجال قد عادوا ، فماذا يصنع الاخرون ؟

وبدأ « الزملاء » الاوروبيون يستفسرون عن ادق المسائل العسكرية ، وكان المحافظ الشاب الطيب طول الوقت مبتسما وهـو يجيب بقدر مـا يعرف . وحين انتحى به جانبا صحفي عربي قائـلا : لست عراقيا ولكنـي اغار على اسراركم العسكرية من ان تكون في متناول الاجانب ، قال له الاخ فليح حسن جاسم بهدوء : المنتصرون ليست لديهم اسرار ، ما رأيك انـنـا سنأخذكم جميعا الى « هناك » .

بردت اطراف قليلا وانا اترجم لنفسي معنى « هناك » ، ولكني حاولت النسيان في صورة سؤال وجهته الى الاخ فليح : ما هي الانعكاسات التـي تراها لحل المسألة الكردية على ما يسمى بأزمـة الشرق الاوسط . اجاب المحافظ بتأثر بالغ : كانت حرب الشمال نزيفا مستمرا لمقدرات هذا الوطن وطاقاته البشرية وامكاناته المادية . وقد استطاع رغم ذلـك ان يشارك في

حرب اكتوبر مشاركة جسورة وحية وفاعلة ، وقـد تمكن الجيش العراقي العظيم من ان يسدد الى العدو الصهيوني ضربات حاسمة حالت بينه وبين تحقيق العديد من اهدافه . ولكن الاوضاع الجديدة الناجمة عـن تصفية حرب الشمال ، من شأنهـا ان تتيح لهـذا الجيش الباسل ان يتفـرغ لمسؤوليته القومية في الدفاع عن هذه الامة بتحرير ترابها اينما امتدت بـه الحدود .

ولم يكد ينتهي فليح حسن جاسم من جوابه حتـى رفـع « زميل » اميركي اصبعه متسائلا : هل يعني ذلك ان القوات العراقية التـي ستترك مواقعها في الشمال ، سوف تتجه الى الجبهة المقاتلـة ضد « اسرائيل » ؟ وبمنتهى الصبر والقدرة على الاحتمال اجاب المحافظ : ان ثورة السابـع عشر من تموز ١٩٦٨ ليست ثورة اقليمية وانما هـي ذات رؤيـة قومية شاملة . والمسألة الكردية او الحدود العراقية الايرانية لم تكن يوما مشكلة قطرية وانما هي قضية عربية . وبالتالي ، فمـا يجري الان منـذ توقيع اتفاقية الجزائر ، لا يخص العراق وحده ، وانما يخص الامة العربية كلها . وقضية فلسطين هي محور النضال العربي المعاصر ، ولا يمكن بأية حال ان تكون الاحداث هنا بمعزل عن محور نضال هذه الامة .

وتصور المراسل الاميركي ان المحافظ لم يستكمل الرد عـلى سؤاله بعد . كان قد دخل الفرفة القائد العسكري للمنطقة طه شاكرجي معلنا ان طائرات الهليكوبتر بانتظارنا . وغاص قلبي حتى الاحشاء متأوها في صمت. سألني الاميركي ما اذا كان المؤتمر الصحفي قـد انتهى . اجبته والخوف يتمدد في خلاياي برعشة خفية : نعم ، وقد اعطاك المحافظ باجابتـه سبقا عالميا . سألني : ماذا قال ؟ اجبته وانا اغالب مشاعر الخوف في يأس : قال ان الجيش العراقي سعيد بالتعرف على الاسلحة الاميركية التـي سلمها الاكراد . علق : ولكن المترجم لم يقل هذا الكلام . قلت : لانـه ماكر ، اراد ان يخفي عنك سرا عسكريا . اقبل علينا المحافظ متسائلا عما يـدور فلما اخبرته ضحك وهو يقول : اخبره اننا سنكشف له هذا السر بعـد قليل . واخذني من يدي الى صندوق اخضر اللون يقف في الساحة عـلى عجلتين شامخا كالنسر . اعجبني شكله فسخرت من نفسي متمتما : ماذا تخفي لنـا ايها الصندوق العجيب . ومن باب كالنافـذة الصغيرة دخلت الهليكوبتر لاول مرة في حياتي .



قلت ذلك للاخ فليح ولكنه لم يدرك مطلقا انني خائف . دعاني للاطلال من الكوة الصغيرة التي تشبه النافذة في لعب الاطفال . والـــى جانبي مـــن الناحية الاخرى « الزميلة » السويدية التي بادرتني : انني اركب هـــذا النوع من الطائرات للمرة الاولى . كان الذعر قد أحال زرقة عينيها الـــى اللون الرمادي ، فابتسمت معلقا بكلام لا معنى لـــه . استدرجني المحافظ لرؤية المشهد الساحر تحتنا . لوحة هندسيـــة خضراء ، تقسمها الخطوط الى مربعات ومثلثات ودوائر . وكدت استغرق في اللوحة لاتبين تفاصيلها ، لولا ان الصندوق الطائر بدأ يستخفه النسيم فراح يتمايل منتشيا ثم أخذ يستعيد ذكريات الرقص الشرقي من خصور تحية كاريوكا وساميـــة جمال ونجوى فؤاد . . اما أنا فكنت استعيد ذكريات العمر كلـــه وقـــد تهيأت لمغادرة العالم .

لم اشعر بما جرى للشقراء السويدية ، لان الاخ هشام السمرائي كان قد لاحظ ما يجري داخلي ، فأقبل يمسك بي ضاحكا ، وقمم الجبال تهتز من اثر ملاصقة الصندوق الاخضر لصخورها ، والاستاذ فليح حسن جاسم يلح علي في النظر من الكوة الصغيرة لاشهد شقوقا ملتوية في جوف الجبـــل كثعابين ضخمة خرافية نبتت عليها قشور حية تتحرك في صفوف منتظمة . حين انحدرت الهليوكبتر مع انحناءة سطح الجبل تحول الشق الى شـــارع كهفي ضيق ، وتحولت القشور الى رجال صغار يحملون اشيـــاء كأسلحـــة الاطفال . انخفضت الطائرة اكثر ، واستولى علي المشهد تماما . وقـــام « الزملاء » بأجهزتهم المعقـــدة يصطادون التفاصيل البعيـــدة بعدساتهم السحرية . صفوف تنشق عنهـــا الارض . اصبحت الهليوكبتر كصندوق الدنيا الذي كنا نلتف حوله في الصبا لنشاهد السفيرة عزيـــزة والشاطـــر حسن . احتواني الصندوق وأصبحت نافذته الصغيرة كنزا من العجائب . لم أعد اشعر بهزات بطن الطائـــرة الشرقية . انفكت انامـــلي مـــن أذرع اصدقائي . هؤلاء هم الاكراد اذن . اجسادهم تتلاحم واقدامهم في خطـــى حثيثة وكأنهم يهربون من انفسهم ، انهم لا « يفرون » مـــن جيش آخـــر الا جيشهم ، انهم « يعودون » . انخفضت الطائرة اكثر . لا اتبين وجوههم . انهم يطأطئون الرؤوس ولكنهم يحملـــون الاسلحة في اكتافهم ، ويربطـــون خصورهم بحزام الذخيرة . اياديهم ليست على الزناد ، وانما هي تسانـــد بعضها بعضا في طريق العودة ، تتقاطع صفوفهـــم وتتقابـــل ، تتعـــارض

وتتوازى ، وفقا للخطوط الآمنة التي سلكوها من اعماق الوادي ودهاليــز الجبل الخفية .

فجأة سمعت « الهدوء » وكأن للصمت صوتا .. كان أزيز الهليوكبتر اقوى من ان تتحمله اذن ، فبدا لي طيلة الدقائق الخمسة والثلاثين وكأنه النقيض .. كأنه الصمت ! فلما اقتربت الطائرة من سطح الجبل ـ عنيت قمته ـ وبدأت المروحة الطويلة رحلة السكون أيقظنا الهدوء . لحظة واحدة وتوقف النسر الاخضر وديعا وسط دائرة صغيرة من الحشائش الخضراء . قال لي المحافظ مقهقها : حمد لله على السلامة .

رأيتني اطل على العالم . الحدود التركية مكسوة بغطاء ابيض شفاف على مبعدة ثلاثين كيلومترا . والرائــد الركــن ارشد زيباري يستقبلنا بابتسامة عريضة . تحيطنا من كل جانب صفوف المواطنين الاكراد العائدة. لا زالت ممسكة بسلاحها . لم تسلمها بعد . لتوها جاءت . هنــا باكرمان . وهذا هو وادي نهله . تلك اذن هــي سلسلة جبــال بيريس . وهجــم الصحفيون الاجانب على « فريستهم » ظمأى ، وكان مرافقهــم « مــازن » المترجم هو الضحية الحقيقية .

اما انا اخذني المحافظ من يدي ، والى جانبي الآخر القائــد طــــه شاكرجي والرائد ارشد ، وعلى قمة الجبل جلسنا نرمق الافق اللامتناهي وهو ينفتح عن صفوف جديدة من العائدين . وفجأة قال لنــا القائــد : انظروا ، لقد وصل تتر زيباري القائد البرزاني المستسلم .

المحرر ١٩٧٥/٣/٢٩

(٢)

اقبلت اواني الحليب الكبيرة ، واحتفل بنا الضباط والجنود بهذه التحية التقليدية ، ثم بدات الحشود الكردية القادمة تلتف حول المحافظ والقائد . ولفت نظري ان الرائد ارشد يتكلم الكردية بطلاقة فابتسم طه شاكرجي وهو يقول : انه ضابط كردي ، وكان قدره ان يقاتل كجندي عراقي في مواجهة عمه مباشرة . وكان عمه هو تتر محمود زيباري ، آمر الهيز او قائد اللواء البرزاني الذي استسلم اليوم ، وها هو ذا في طريقه الآن الى هنا . شد انتباهي من فوق هذه القمة الجبلية من قضاء عقره — وهي تابعة مؤقتا لمحافظ الموصل ولكنها تدخل في نطاق الحكم الذاتي — ان طابورا طويلا عريضا من الرجال الاشداء يسيرون في اتجاهنا بالخطوة شبه العسكرية ، يتقدمهم رجل مهيب الطلعة واضح الاعتداد بالنفس ، يرتدي ثيابا بيضاء نظيفة وكذلك عمامة تميزه عن غيره ، واثق الخطى . همس له احدهم في اذنه من بعيد فرأيناه يسرع نحونا من الجهة الامامية فيصافح المحافظ بحرارة ويحييني بابتسامة مستفسرة .

شعرت ان الرجل يعرف العربية ولكنه يؤثر الكلام بالكردية . تم التعارف بينه وبين الجالسين معنا ، واختار مكانه في مثلث يضمني مع المحافظ والقائد بينما وقف ابن اخيه ارشد يترجم .

قلت لتتر زيباري ، وهو يبدو امامي كجنرال من العصور الوسطى : لماذا استسلمت ؟ حدق في وجهي بكبرياء الضابط الكبير ، وأجاب بلهجة حرت في تحديدها بعد لحظة من الصمت الثقيل : لا تقولوا اننا استسلمنا ، بل قولوا اننا عدنا . حسبت نفسي اخفف عنه العبء فرويت له حكاية الابن الضال في الانجيل فانصت باهتمام وقلق في العينين حتى اذا انتهيت قال

لي : لا . . ليس الامر هكذا . . هذه الارض التي تجلس عليها هي وطننا . وهي جزء لا يتجزأ من التراب العراقي . ولكن هذا الجزء يختلف عن بقية الاجزاء في امرين اولهما السمات القومية الخاصة التي افرزها تاريخنا الخاص ووجداننا وتراثنا ولغتنا واسلوب حياتنا وموتنا وطريقة اتصالنا بالعالم وانفصالنا عنه الى آخر هذه المميزات التي تفصل بين شعب وشعب وبين قومية واخرى ، وان كان هذا التمايز في اطار الوطن الام والاكبر ، العراق . والامر الثاني هو ان الاكراد عانوا من القهر زمنا طويلا . والقهر القومي هو ابشع انواع القهر . لم يعترف بكينونتنا المستقلة أحد ، بل راحوا يعاملوننا كمواطنين من الدرجة العاشرة ، كطائفة من المنبوذين . ولعلك ترى بنفسك الفرق الهائل بين اية مدينة عراقية وهذه « الدنيا » التي تراها من حولك . اهملونا احتقارا لشأننا ، وبتنا في السفح من قمة الجبل . هل تقبل لكائن انساني أيا كانت عقيدته ولونه وأصله هذا المصير ؟

كان صوته قد بدأ يتهدج بتأثر بالغ كادت اصداؤه ان تحجب عن لساني القدرة على النطق ، ولكني تمالكت نفسي وقلت : ربما وافقتك على الكثير مما تقوله ، ولكن اذااقبلت حكومة عراقية جديدة منذ عام ١٩٦٨ تختلف عن غيرها في أسلوب التعامل معكم ، تراكم مواطنين متساوين مع بقية المواطنين في الحقوق والواجبات ، وتعترف بحقوقكم المشروعة كأقلية قومية ، فهل تصبح الحرب هي الجواب على السلام ؟

هز رأسه وثقب ببصره لوحة الافق المترامية في حضن المجهول ، وقال كمن يحصي الكلمات : لن ادافع عن الخطأ ولن أبرره ، ولكني سأحاول تفسيره . أن تراث « عدم الثقة » هائل بيننا وبين الحكومات السابقة . الحركة الكردية ليست متجانسة . ولكننا كشعب نجتمع حول هدف واحد هو الكرامة والحرية . وقد أخطأنا في الاجتهاد . أخطأت غالبيتنا في تحليل السلطة الجديدة في بغداد . واخطأت بعض عناصر السلطة ذاتها في تطبيق القانون وفي معاملتنا وفي تنفيذ الاوامر . هذا بشكل عام . وبشكل عام أيضا كانت « الحرب » كما نفهمها نحن لا كما تفهمونها أنتم ، هي اسلوبنا في الحوار . الحرب عند انسان الجبال كالمشاجرة في حياة كائنات الوديان والسهول . انها ليست قتالا كالذي يتم بين دولة ودولة او بين شعب وآخر يستهدف « كسر » الشعب الآخر وهزيمة جيشه واسقاط نظامه . انها أحد أشكال الضغط لانتصار رأي على آخر .

حاولت ان أقاطعه ، ولكنه استأنف الكلام باصرار المحارب : قلت لك انني لن ادافع عن الخطأ ولن ابرره وقلت لك أيضا انني سأروي لك تلك الحكاية في خطوطها العامة . ولكن التفاصيل هي التي تحكم الخط العام وتحدد اتجاهه وتنعطف به هنا او هناك . اذ يخيل الي الآن انه كان يمكن تفادي الخطأ من جانبنا ــ في تحليل السلطة العراقية الجديدة ــ بالحوار معها والاقتراب منها والثقة فيها . كما كان يمكن تفادي الخطأ من جانب بعض عناصر السلطة التي احتكت بنا ، بمزيد من الضبط والربط واحكام الرقابة على تنفيذ التعليمات . ولكن الذي حدث ــ والحركة الكردية غير متجانسة كما قلت ــ ان تيارا رئيسيا فيها يمثله البرزاني قد استغل التراث السلبي المتراكم عبر الاجيال ، كما استغل الولاء الشعبي لقيادته لدرجة التقديس ، وكذلك استغل الاخطاء الفرعية من جانب السلطة ، ليؤثر في مجرى الحوار معها وينعطف به من السلم الى الحرب . ولا تنس لحظة واحدة مكانة البرزاني ومصيره الشخصي . انني لا أفهم تحليلاتكم للحركة الكردية على أساس المصلحة الاقتصادية وحدها ، ولكني أفهم قضية السلطة كمحور رئيسي في تفكير البرزاني وقيادة الحزب .

قاطعته اخيرا حين توقف ليلتقط انفاسه : ولكنك لم تجبني لماذا استسلمتم ، لماذا استسلمت انت بالذات على سبيل المثال ؟ رمقني بارهاق وعناد معا ، وارسل بصره الى القائد طه شاكرجي ثم أومأ الى ابن اخيه ارشد كمن يأمره ان يترجم : اذا شئت الجواب السهل فاكتب انني هزمت عسكريا على يدي هذين الرجلين . ولكن الحرب كما قلت لك كانت اسلوبنا في التفاهم مع الطرف الآخر . وقد تخللتها مجموعة من الضغوط لم تكن كلها عسكرية ولم تكن كلها من جانب السلطة المركزية . بدت لبعضنا الحرب في الفترة الاخيرة كما يحدث للبغل الجبلي انتحارا اختياريا .

لم افهم ما يقصده فابتسم للمرة الاولى والوحيدة ، وقال لي ان في هذه الجبال نوعا من البغال ترهقه الاحمال الثقيلة . فيقذف بنفسه الى الوادي ويموت . ثم استطرد : هكذا نحن ، ارهقتنا الرواسب المزمنة فألقينا بأنفسنا في الجحيم . وقد جاء بيان الحادي عشر من اذار العام الماضي والبدء في تنفيذه هذا العام يشكل ضغطا سياسيا بارزا من جانب السلطة . وقد كان لبعضنا اصدقاء في الحركة التقدمية العالمية كالاتحاد السوفياتي ، ولكن السوفيات قالوا لنا : اقبلوا الحكم الذاتي لمنطقة

كردستان على الفور وبلا ابطاء ، فقـــال لهم البرزاني عــــلى الفور أيضا : اتركونا وشأننا ، لسنا بحاجة الى تأييدكم ، انتم تقفون الــى جانب السلطة في بغداد . وكان الاتفاق العراقي الايراني هـــو الضربة القاضيـــة لمخطط الحرب الطويلة النفس . كانت ايران نقطة ارتكـــاز استراتيجية في قتالنا . فأقبل الاتفاق يسحب الارض من تحت اقدامنا .

عند هذه النقطة قلت للقائد البرزاني العائد مهزوما : هنـــا ارجو ان تخبرني بالتفصيل عما حدث قبل الاتفاق بقليل وبعـــده بقليل ، اي حتـــى هذه اللحظة . وكان « أحدهم » جاء يهمس في أذني المحافظ والقائد بشيء نقله الى فليح حسن الجاسم بسرعة : صالـــح اليوسفي ، اتذكره ؟ عضو المجلس السياسي لحزب المتمردين والوزير السابق قد استسلم . وانتهزت الفرصة لاقول لتتر زيباري : بالمناسبة فقد عاد اليوم الـــى الصف الوطني قائدان كبيران احدهما عسكري هـــو انت والاخـــر سياسي هو صالـــح اليوسفي . كأنه لم يفاجأ راح ينصت داخله الى صوت غير مسموع وعينين مفتوحتين على اخرهما : قبـــل الاتفاق كـــان قسم كبير مـــن المواطنين والقياديين قد عادوا بالفعل منذ اعلان الحكم الذاتي ، وكانت قرارات العفو عن المدنيين والعسكريين تصدر تباعا عن مجلس قيادة الثورة . وقـــد أوجد هذان العاملان « مناخـــا » جديـــدا في صفوف الحركـــة الكرديـــة وقواتها المسلحة ، هو ان الانتحار ــ أي القتال بلا ثمن ــ لا يليق بالرجال ولا يحقق هدفا . ظهرت موجة من المشاعر المعادية لسلوك البغال . كذلك فان القوات العراقية تعلمت حرب العصابات وابتكرت من الاساليب ما لا يخطر على بال ولا شجاعة احد . على الحدود مع ايران هناك جبال وحشية ومدن كاملـــة تحت الارض . الجبال لها ممرات سرية عاتية ، ولعـــل ممراتكم في سيناء تشبهها على نحو مصغر . انها شروخ بالغة الالتواء والتعقيـــد في بطن الجبل واحشائه الداخلية ، ولا يعرف اسرارها سوانا . ولكن الضباط العراقيين الذين خلعوا رتبهم العسكرية ولم نعد نفـــرق بينهم وبين الجنود كانـــوا يبتكرون أساليب مذهلة لاقتحام هـــذا العالم الخفـــي الحصين . كانت الدبابات تتسلق ظهر الجبل يسبقها البولدوزر ويلحق بهـــا المشاة . وهـــي دبابات انتحارية بمعنى انها لا تستطيع العودة فكـــان قادتهـــا وجنودها يستميتون في الوصول لتفجير الديناميت وينهـــار السقف الصخري ويهبط الشباب فوق رؤوسنا . بل ان مدينة كاملة تحت الارض ، لهـــا دهاليزها السرية المخيفة قد سقطت في ايديهم لانهم تدربوا على حرب العصابات التي

نجيدها واكتشفوا من الحيل والابتكارات مـــا مكنهم مـــن الاستيلاء على مخابئنا السحرية المرعبة .

ثم تنهد تتر زيباري بعمق وعصبية وفورة ان جـاز التعبير ، وقال : بينما حدث العكس تماما في صفوفنا ، فقد امر البارزاني بتهجير القرى مـن النساء والاطفال ، واصدر تعليماته ببدء الحرب النظامية وتدريباتها . وفي تقديري العسكري ان هذه المفارقة الصارخة بين لجـــوء القوات الحكومية الى حرب العصابات وتحول البرزاني الى الحرب النظامية في توقيت زمني عجيب يجعل منهما خطين متقاطعين عنـــد نقطة اسميهـــا بضمير القائـد المسئول : الهزيمة !!

ثم نظر الى كمن يهمس لي بسر يخصني به وحدي ، وقال : انك لـــم تفاجئني بعودة صالح اليوسفي ، ذلك انني كنت سأنبئك قبـــل ان تخبرني بذلك ، انه من بين المقدمات الهامة لهذه النهايـة انقسام القيادة السياسية والقيادة العسكرية . لقد رصد السياسيون التحولات الخطيرة التي تحيط بنا والتي كان الاتفاق العراقي الايراني تتويجا لها وقالوا : فلنوقف القتال. اما العسكريون فأجابوا : ان هذا يعني الهزيمة التـــي تحتم علينـــا القبول بشروط الاستسلام . وظل الحوار يدور في حلقـة مفرغة ، حسمه البرزاني بالانحياز الى جانب الحرب .

توقف تتر فجأة عن الكلام ، فسألته : ولكن ماذا يقول البرزاني الان ، وعشرات الالوف من جنوده وقادتهم تتقاطر كما ترى من كل صوب عائـدة الى الصف الوطني مستفيدة من قرارات العفو التي اصدرها مجلس قيادة الثورة والتي سينتهي مفعولها بعد أيام قلائل ، حتى اول نيسان المقبل ؟

اجابني بكلمة واحدة قاطعة كحد السيف : لا ادري ! ثم كمن « شاور عقله » استطرد : لقد امرني وغيري بالهرب اذا لزم الامر الى ايران واللجوء الى اول سفارة غربية ، السفارة الاميركية على وجه التحديد .

قلت للقائد البرزاني وقد بدا عليه الانهاك : مـــن كان يقوم بتدريبكم على الحرب الحديثة ، من غير الضباط الايرانيين ؟ قـــال : جميع الضباط الاجانب يرتدون الزي العسكري الايراني ، ولكن مـــن « طول المعاشرة »

عرفنا ان بعضهم اميركي يتكلم الانجليزية ، والاخر اسرائيلي يتكلم العبرية .

★ ★ ★

صافحت الرجل العائد بكل الثقة في النفس ووحدة الوطن ، والذي يحمل على كتفيه تجربة عريضة ما اثقل تراكماتها . صافحني هو الاخر بيد ضابط محنك صقلته التجربة رغم الهزيمة ، قائلا : الان انتهت الحرب وبدأ السلام .. متى تعود الينا ؟

وابتسم الاخ فليح حسن الجاسم ـ محافظ الموصل ـ وهو يعلق : متى تدعونه انتم ، انها محافظتكم في اطار الحكم الذاتي .

وقلت لنفسي بصوت لم يسمعه احد : حقا ، متى اعود ؟

المحرر ١٩٧٥/٣/٣٠

(٣)

كانت عودة القائد العسكري تتر زيباري والقائد السياسي صالح اليوسفي اعلانا رسميا بان الطرف الكردي المناوىء لم يفقد سيطرته على قواته المسلحة و « مناضليه » السياسيين فحسب ، بل انه كان اعلانا مدويا بانهيار البرزاني شخصيا وهزيمته الساحقة نهائيا . ولم تعد الشائعات ذات جدوى ، فسواء استطاع اللجوء الى ايران او الى السفارة الاميركية ، فان الجو النفسي العام في صفوف « شعبه » كما عشته عن قرب كان يرسم كلمة « النهاية » بحروف بارزة . وما كدت اختتم حديثي مع تتر زيباري حتى رحت اتجول بين هذه الصفوف الحاشدة القادمة من الكهوف والوديان والسراديب البعيدة في جوف الجبال .

ولقد شد انتباهي ان محافظ الموصل ـ السيد فليح حسن الجاسم ـ ظلّ يستقبل العائدين ويصافحهم فردا فردا ، واحيانا كان يستوقف واحدا منهم ليسأله عما كان يفعله قبل الخروج على الصف الوطني ، فاذا بي امام كم هائل من الطلاب في مختلف مراحل التعليم ، وكم هائل من الجنود الهاربين من الجيش في مختلف الاسلحة . وقد اردت ان اتعرف من هؤلاء على اسباب الذهاب واسباب العودة . ذلك ان الغالبية العظمى من المواطنين الاكراد العاديين ، رايتهم كما لو كانوا مغلوبين على امرهم ، لا يدرون المقدمات ولا يفهمون النتائج ، وانما هم سيقوا منذ البداية بقوة التقاليد العشائرية الراسخة . انهم يطيعون اولي الامر في القبيلة او العشيرة طاعة عمياء لا تستفسر ولا تحاسب ، فاذا شذ احدهم كان نصيبه الموت . بالاضافة الى ان « القتال » اصبح في مستوى الحرفة ، فهم لا يزرعون ولا يحصدون ، وانما هم يأكلون فتات ولي النعم ، وليس عليهم الا القتال او الاستعداد له .

تلك هي الغالبية المسحوقة في السلم والحرب: اقصى درجات التخلف والعبودية . اما الطلاب والجنود الهاربين واعضاء الحـــزب الديموقراطي الكردستاني ، فهم يتمتعون بمستويات متباينة مـــن الوعـــي والاحساس الضبابي الغائم بأن لهم « قضية » يدافعون عنها . وقـد توقف طويلا عنـد قول بعضهم انهم لم يخسروا القضية بتسليم انفسهم وسلاحهم ، وانما هم قد دخلوا بها مرحلة جديدة .

قلت للشاب الذي يتكلم : ماذا تقصـد بالضبط ؟ اجاب : ان تصوير الامر على انه معركة حربية بين قوات الحكومـــة والقوات الكرديـة انتهت باستسلامنا هو تصوير قاصر عن الرؤية الصحيحة . اننـــا حزب تعترف بشرعيته السلطة المركزية في بغداد ، والهزيمة التي تـرى معالمها امامك هي هزيمة تيار سياسي يقوده الملا البرزاني . ولقــد كان داخـل الحزب من يناضل البرزاني في عقر داره ، ولم اكن واحدا مـــن هؤلاء ، لكن ينبغـــي الاعتراف لتصحيح الصورة ـ بأن حزبنا ليس تياراً واحدا وان ما هزم حقا هو تيار البرزاني . ولا شك ان السلطة العراقية كانت تناضل في الاتجـــاه المضاد للبرزاني ، ولكن التيار الكردي المناوىء له يناضل هو الاخر .

سألته : قل لي بصراحة ، ما الذي دعاك انت مثلا الى الانضمام الـى هذا التيار وقد اعترفت بهزيمته ؟ اجاب : اننـــي لست قياديا كما ترى ، ولكني تصورت في احدى اللحظات ان التيار الكردي الذي يسانـد الحكومة قد خان مبادىء الحزب ، فانضويت تحت لـــواء التيـــار المتشدد والاكثر تصلبا متوهما انه الاكثر ثورية . قاطعتــه : كيف فرقت بين الخط الثوري والخط غير الثوري ؟ بأبتسامة هادئة قال : اصارحك بأنه بعد بيان الحادي عشر من اذار قد حدث صراع عنيف داخل الحزب ، فالكـــل تقريبا ـ ولا تصدق غير ذلك ـ كان مقتنعا بأن الحكومة العراقية الجديدة قدمت ما لـم تقدمه غيرها من الحكومات ، ولكن البعض ظن انها اقدمت على هذه الخطوة عن ضعف وبالتالي كان الموقف « الثوري » عند هـــذا البعض هـو تطبيق القاعدة القتالية المعروفة : اذا ضعف خصمك فلا تدع لــــه فرصة لالتقاط الانفاس بل شدد من ضرباتك . وانضم الى هـذا البعض طرف اخر يختلف في تشخيص المقدمات وينتهي الى النتيجة ذاتها . قال هـــذا الطرف انهـا مناورة بارعة من الحكومة وليست مبادرة جادة . والقلـــة القليلـــة ـ في البداية ـ هي التي رأت ان ثورة ١٩٦٨ في العراق جادة كـل الجد في منـح

القومية الكردية حقوقها الديموقراطية وشرعيـــة الحكم الذاتـــي لمنطقة كردستان .

من الطبيعي ــ استطرد الشاب ــ مطرقا الراس ــ ان يتحـد الطرفان الرئيسيان اللذان استأنفا القتال بضراوة ، الطرف الاول يستهدف الحصول على مزيد من المكاسب ، والطرف الثاني يستهدف امتحان جدية الحكومة في عرضها اقامة الحكم الذاتي . والطرف الثالث انضم ــ طبعا ــ الى صفوف الحكومة .

تنهد بعمق ونظر في وجهي بغتة وقال : لا بد من متابعة هــذه الخطوط الثلاثة في سياقها الموضوعي اذا شئت جوابا سليما عــلى سؤالك لماذا كانت العودة ، وحتى تفهم قصدي من ان هذه العودة تعني لنــا مرحلة جديدة من مراحل النضال ، من مراحل القضيـــة . بالتدريج تأكــد للكثيرين مــن « المناضلين » في صفوف الحزب ان « المزيد من المكاسب » وهــو الشعار الذي رفعه الطرف الاول بقيادة البرزاني يعنـــي في الحقيقة المزيد مـــن المكاسب الشخصية والمكاسب العشائرية . امــا مكاسب الشعب الكردي فأنها مكفولة بقانون الحكم الذاتي لكردستان ، ويصبح الالتزام بهــا مـــن جانب جميع الاطراف ــ السلطة المركزية والحزب ــ نضالا مستمرا عـــلى كافة الاصعدة وبمختلف الوسائل الا القتال ، انه يهدد المكاسب ولا يدعمها . بالتدريج ايضا تبين للكثيرين مـــن « المناضلين » في صفوف الحـــزب ان الحكومة العراقية الراهنة جادة ولا تناور . وبالتالي فقـــد اصبح النضال بمقاتلتها عبئا عليها وعلينا لا يجوز اذا كان المقصود هو اختبار الجدية . بل اصبح المقابل المطلوب لجديتها هو جديتنا ، وكان وقف القتال هــو المقدمة الحقيقية لهذه الجدية .

توقف الشاب حين تدخل في الحديث « زميل » اخــر يكبره في السن ظل صامتا الى جنبنا طول الوقت ، ولكن عند هـــذه النقطة اقتحم الحوار قائلا : هكذا ضعف الطرفان الرئيسيان في الحزب الديموقراطي الكردستاني ، بينما تنامت قوة الطرف الثالث الذي كان ضعيفا ومتهما بالعمالــة للحكومة المركزية . وانفضت الجماهير الكردية المناضلة من حول شعارات « المزيـد من المكاسب » و « امتحان الجدية » ، اي انها موضوعيا انفضت عــن شعار القتال . وبقيت القيادة البرزانية في الفترة الاخيرة تعاني العزلة الحقيقية . ولم يكن قرارها باعتماد الحرب النظامية بدلا مـــن حرب العصابـــات الا انعكاسا لانفلات الجماهير والحاجة الى موازين الضبط والربط .

كان وراءنا مباشرة صوت يغني بالكردية ، لمحت وجه صاحبه فاذا بـه يحملق فينا دون انقطاع . سألته ما اذا كان يعرف العربية ، فاذا بـه طالب بقسم اللغة العربية بكلية الاداب . انضم الينا ، واوجزت لـه اراء مواطنيه فوافق عليها بعصبية شديدة كأنه يستنكـر السؤال ـ اردت اشعال لهب التحدي بينهم ـ من قبيل المداعبة والفضول معـا ـ فقلت : واذن فأنتم لا ترون ان الاتفاق العراقي الايراني هو الذي اجهز عـلى التمرد والمقاومة ؟ اجاب « المغني » بالعربية الفصحى : انه القشة التـي قصمت ظهر البعير يا سيدي، ولكن هذا « الظهر » كان قد تهاوى ، كان التيار البرزاني في فكر الحزب قد سقط من قبل ان تحجب ايران مساعدتها عنا . لقـد هيـأ لنـا الاتفاق العراقي الايراني فحسب طريق العودة ، قصدت العفو العام الذي اصدره مجلس قيادة الثورة في بغداد عـن المدنيين والعسكريين واعـادة المفصولين الى وظائفهم والطلاب الى معاهدهم وامداد ذوي الحاجة الـى ما يحتاجون اليه . لا تصدق ان الاتفاق العراقي مـع ايران قد « صفى » الحركة الكردية ، او انه « هزم » قضية الاكراد . لقـد اقبـل الاتفاق والثمرة ناضجة للسقوط . اكرر لك ان الثمرة الساقطة هي تيار البرزاني ، اما الحركة الكردية فباقية واما قضية الاكراد فعادلة . كل مـا حدث انها دخلت مرحلة جديدة .

اقبل المحافظ يناديني لركوب النسر الاخضر في طريقنا الى اتروش ، ولكن الشاب استوقفني لحظات ـ ولم اكن متحمسا للذهاب ! ـ ووجه الينا الخطاب : ونحن ايضا دخلنا مرحلة جديدة مـن مراحل نضالنا . رجوت الاخ فليح حسن الجاسم ان يبقى قليلا . واستأنف الشاب : نعـم ، سوف نعود الى مدارسنا وجامعاتنا ووظائفنا وجيشنا الوطني الموحـد . نضالنا مزدوج ، بل مثلث : بيننا وبين السلطة من موقع الوحدة الوطنية والمشاركة الفعالة في الجبهة الديموقراطية التقدمية ، وبيننـا وبين انفسنا لازالـة الرواسب القديمة والعوائق العشائرية ، واخيرا بيننا وبين الطبيعة ، علينا ان نحول هذه الارض البكر الى جنة .

القيت نظرة على سطوح الجبال وسفوحها ، الـى قيعـان الوديان وحوافها ، ووجدتني امام « مشروع » جاهز للتعمير والبناء يجعل من هـذه البقعة الساحرة قطعة حقيقية من الجنـة . قلت في نفسي : كم تبدد مـن الجهد وكم تحتاج الطبيعة الى ترويض ؟ سمعني المحافظ اغمغم فقال لـي

ولهم : سوف تشارك القوات المسلحة في البناء والتعمير ، ان تنمية الشمال وتمدينه وتحديثه من المهام العاجلة للحكم الذاتي ، باقامة المدارس والمعامل والبيوت والمستشفيات وتجهيز الارض للزراعة ومنتجاتها و .. و ..

وكان طيار الهيلكوبتر الذي هبط هنا في كرمان اثنـــاء القتال يكـرر النداء المبتسم لنا .

وتركت نفسي عشر دقائق لمغامرة النسر الاخضر الراقص ، هبطنـــا بعدها في اتروش .. طول الطريق كنت انظر الـــى رؤوس الجبال وبطـون الوديان وشوارع السهول ، فأرى الصفوف القادمة مـــن الاكراد المسلحين ، حشود لا يتتبع البصر بدايتها .. ولكنهـا في النهاية تصب هنـا ، بعـد ان حطت الطائرة على هضبة ، حيث يجلس الضبـــاط العراقيـون يتسلمون الاسلحة ويقيدونها ويسجلون اسماء القادمين .

كم هي طويلة مسيرتهم ، لا تلك التي انتهت فحسب ، بل والتي بدأت ايضا . كم هي طويلة ، لا من الكهوف البعيدة الـى سطح الحياة فحسب ، بل ومنذ يبدأ تعمير الحياة ايضا . كم هي طويلة ، لا خارجهم مـــع الطبيعة والسلطة والجبهة والحزب فحسب ، بل داخلهم ايضا مع النفس ، مـــع تراكمات الماضي ، مع القيم العشائرية الراسخة في اعمق اغوار الذات .

ورأيت شيخا كبيرا للطائفة اليزيدية وقد التف حوله المريدون، وكلما اقبل احدهم قبل يده باحترام شديد . واختلط رجـال الدين بالسياسيين بالمواطنين العاديين في مظاهرة اقرب الى الاحتفال بالعائدين . تناولنا الشاي وودعنا الجميع في طريقنا الى دهوك .

هناك كان السلاح اكداسا مكومة على هيئـــة اهرامات . مـــن بعيد سمعت صوتا يصرخ باسمي . كان صديقي الصحفي الصينـي . قال لـــي بانفعال : هل ترى .. هذا المدفع روسي ! ابتسم احد الضباط حين شرحت له ما قال ، وعلق : الغالبية العظمى مـــن السلاح اميركية . ولكن ، طبعا هناك اسلحة روسية ، لم يأخذها الاكراد من الاتحاد السوفياتي . اخذوها من ايران ، واخذوها معهم من العراق ، حين كانوا يعملون في الجيش ! نقلت كلماته الى الزميل الصيني الذي تجهم ، بينمـا استغرقت مـــع الضابط العراقي في الضحك !

ونتوجه الى مكتب المحافظ الكردي لدهـوك .. اللافتات بالكردية ، الموظفون اكراد ، الحكم الذاتي بدأ طريقه الى التحقيق .

ونترك دهوك الى الموصل ..

نودع النسر الاخضر ، ونشد احزمتنا في طريق العودة الى بغداد .

ولكن رسولا سريع الخطى يجيء مقترحا تأجيل العودة الى الصباح ، لان مزيدا من صواريخ هوك ومدافع برن قـد وصلت مـــع العائدين ، اذا اردنا مشاهدتها وتصويرها .

ولكن تعب اليوم ـ يوم العمر ـ كان قد حل مفاصلنا جميعا ، وبعضنا بدأ رحلة النوم فعلا ..

اما انا فقد ظلت عيناي مفتوحتين حتى هبطت الطائرة الانيقة مـــرة اخرى ـ بسلام ـ في مطار بغداد القديم .

المحرر ١٩٧٥/٤/٢

.. والعراق دولة مواجهة

يكاد يتوقف الفكر الاستراتيجي العربي حول أزمة الشرق الاوسط عند القول بان هناك دول مواجهة هي مصر وسوريا والاردن ، واحيانا نادرة يضيفون لبنان بالرغم من انها الجبهة الساخنة الوحيدة في الوقت الراهن حيث يسقط شهداء الجنوب يوميا بنيران وقذائف المدفعية الاسرائيلية . ثم « يجتهد » الفكر الاستراتيجي العربي فيقول – مثلا – ان ليبيا والسودان يشكلان « عمقا » لارض مصر ، بينما يشكل العراق « عمقا » للاراضي السورية . وتبدو في هذا التصنيف غلبة الرؤية الجغرافية على الفكر العسكري العربي دون ان تصل – حتى – الى مشارف الجغرافيا السياسية فضلا عن الحدود الجديدة والبالغة الاتساع للفكر الاستراتيجي العالمي .. وهو الفكر الذي يضيف الى العامل الجغرافي الطفرة الهائلة التي حققتها الثورة العلمية التكنولوجية في صناعة السلاح ، كما يضيف طبيعة العلاقات الاقتصادية والنظم الاجتماعية والروافد التاريخية وملامح المستقبل التي تصوغ كلها مجتمعة « صورة هذه المنطقة دون تلك من مناطق العالم الحديث » .

يخيل الي انه انطلاقا من هذه المعاني تقدمت حكومة بغداد قبل حرب اكتوبر بأكثر من عام ، بمشروع الوحدة – او الاتحاد – مع دولتي المواجهة الرئيسيتين : مصر وسوريا . ومما يدعو الى التأمل ان تعتيما أعلاميا واسع النطاق قد اسدل ستارا كثيفا على هذا المشروع حينذاك ، ولا زالت بنوده فضلا عن ابعاده السياسية والاستراتيجية خافية عن القطاع العريض من الجماهير العربية .

ومن المفيد ان نتذكر في هذا الصدد واقعتين هامتين : الاولى هي انه

كان هناك ــ ولا زال ! ــ قيد التطبيق العملي « اتحــــاد الدول العربيــة » المكون من مصر وليبيا وسوريا . والواقعة الثانية هي انــه كان هناك ــ ولا زال ! ــ قيد الدعوة النظرية « مشروع المملكة العربية المتحدة » بين الاردن وفلسطين . والشيء المؤكد ان حكومة العراق لم تبادر بمشروعها في مواجهة « اتحاد الدول العربية » ، ولكن المؤكد ايضا انهــا بادرت اليــه في مواجهة مشروع « المملكة العربية المتحدة » .

لمــاذا ؟

لان العراق كان يفكر في « الجبهة الشرقية » تفكيرا ستراتيجيا يأخـذ في اعتباره المصير القومي للشرق العربي ، ومحور الصراع مع اسرائيل هــو قضية فلسطين . وكان يرى ان « المملكة العربية المتحـــدة » تذيب محــور الصراع تذويبا باردا بطيئا من شأنه ترسيخ قواعـــد الامبريالية في الوطن العربي .

تقول المقدمة الايضاحية للمشروع العراقي « ان الجمهورية العراقية ، مع تقديرها الكامل لسائر الجهود والانجازات التي سبق ان قام بهــا بعض الاشقاء العرب على طريق الوحدة ، الا أن تلــك الجهود والانجازات لــم تستطع ــ ولا تستطيع ضمن اوضاعها الراهنة ــ ان تغير مــن واقع النكبة القومية شيئا ، ولا ان توفر الشروط الدنيا لمستلزمات الصمود والتحرير . وليس ادل على هذه الحقيقة مـــن ان اسرائيل استطاعت في ظــــل هذه الاوضاع ــ دون ان تخشى او تتوقع اي عقاب ــ من مواصلة عدوانها عــلى الاراضي العربية ، وبخاصة في جنوب لبنان » .

وبالرغم من وقوع حدث كبير في تاريخ الامة العربية هــو حرب اكتوبر ٧٣ فانه تبقى لهذه الكلمات ــ التي جاءت في الديباجة ــ اهميتها القصوى.. فاتحاد الدول العربية الذي ولد على عجل ديكورا من الورق مضته به الايام لان يصبح كاريكاتورا يدعو للاسف والحزن اكثر ممــا يدعـــو للضحــك والسخرية . انه على الاقل « الاتحاد » الذي لــم يحـل دون « الفرقة » المريرة بين مصر وليبيا . وربما كان انجازه الوحيد ــ للذكرى نتكلم ــ انــه ضرب القوى الوطنية والديموقراطية في السودان !

اما مشروع « المملكة العربية المتحدة » فبالرغم ان الكثيرين يظنون انه قد دفن تحت انقاض الحرب المجيدة . الا انه ينبغي ان نكون شجعانا ونقول

انه المشروع المرشح حتى هذه اللحظة لدفن قضية فلسطين سواء تبدى هذا الترشيح في بيان الاسكندرية الشهير او في كتابات احسان عبد القدوس التي لا تقل شهرة . وسواء تناقض هذا الترشيح مع مقررات الرباط او انسجم مع بيانات اسرائيل والولايات المتحدة . الجديد حقا هو ان الملك حسين لم يعد يرفع عاليا هذا المشروع لان غيره — وهم كثيرون — اصبحوا اكثر حماسا له .

ومن هنا تبقى للمشروع العراقي اهميته ودلالته ، لا على الماضي وانما على الحاضر والمستقبل .. تقول خاتمة الديباجة ان الجمهورية العراقية « تعلن بوضوح انها في مشروعها هذا لا تطرح اشكالا مفروضة سلفا على اشقائها العرب ، ولا تملي اية شروط قطرية خاصة بها وانها مستعدة للتشاور حول جميع الاشكال والشروط التي قد يقترحها الاشقاء المعنيين ، انطلاقا من صيغة الاتحاد الفيدرالي الكامل ، وانتهاء بالحدود الدنيا للضرورات السياسية والاقتصادية والعسكرية والاستراتيجية التي تقتضيها طبيعة المعركة المصيرية الضارية ، الدائرة بين امتنا العربية ، وقوى التحالف الامبريالي الصهيوني الرجعي العالمي » .

والسؤال : هل الفت حرب اكتوبر ٧٣ الحاجة الى هذا التصور لوحدة المواجهة العربية ضد الاستعمار والصهيونية ؟ ان العراق لم يطرح هذا « المنظور » في زمن السلم حتى يمكن لهذه الدولة او تلك ان « تتدلل » بالمزايدة او المناقصة ، وانما تطرح بغداد هذه « النظرة » في زمن الحرب حيث المواجهة اعباء ثقيلة من الدم والرجال والمال وليست تزلفا للمثل والمبادىء . وبغداد تطرح هذه النظرة من موقع جغرافي بعيد — للعيون المتورمة — عن الخطر . لا من موقع الاحتياج ولا من موقع التفضل كان المشروع العراقي ، بل انطلاقا من فكر ستراتيجي اكثر تقدما ، يجدل المصلحة الوطنية بالمصلحة القومية بالتقدم الاجتماعي في ضفيرة واحدة .

ماذا يقول المشروع ؟

● في « احكامه الاساسية » يقول :

١ — يتكون « اتحاد الجمهوريات العربية » من .... ويعتبر جزءا لا يتجزأ من الامة العربية ، ونواة للوحدة العربية الشاملة .

٢ ـ يقوم « اتحاد الجمهوريات العربية » على اساس ثابت من : وحدة السياسة الخارجية والتمثيل الدبلوماسي ووحدة الجيش ومختلف الشؤون العسكرية وقضايا الدفاع القومي ووحدة شؤون المال والاقتصاد والاعلام والتخطيط والمواصلات في كل ما له علاقة بشؤون الدفاع القومي وضرورات الصمود والتحرير في معركة المصير .

٣ ـ النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي العام في « اتحاد الجمهوريات العربية » هو نظام ديموقراطي شعبي يتجه في طريق التحول الاشتراكي .

٤ ـ يكون « اتحاد الجمهوريات العربية » مفتوحا لانضمام اي قطر عربي اخر يرغب في الانضمام اليه ، على ان يتم ذلك وفق احكام الدستور الاتحادي .

٥ ـ يضمن دستور الاتحاد جميع الحريات الشخصية والسياسية والعامة ، للجماهير كافة ولمختلف مؤسساتها الوطنية والقومية التقدمية ، ويتخذ جميع الوسائل الضرورية لكفالة ممارسة هذه الحريات ، على نطاق الاتحاد بأكمله .

● وعن « المؤسسات الاتحادية على مستوى الاتحاد » يقول :

٦ ـ تتكون المؤسسات الاتحادية من :

أ ـ مجلس الاتحاد ، يمارس السلطة التشريعية العليا في الاتحاد ، ويتألف من مجلسين :

اولا ـ مجلس الشعب ، ويتألف من عدد من ممثلي كل قطر ، يتناسب مع عدد سكانه ، ينتخبون وفق قانون الانتخاب في القطر .

ثانيا ـ مجلس الجمهوريات ، ويتألف من عدد متساو من ممثلي الجمهوريات القطرية المتحدة ، تنتخبهم السلطة التشريعية في اقطارهم .

ب ـ مجلس الرئاسة ، يتمثل رئاسة الاتحاد ، ويمارس السلطة التنفيذية فيه ، ويتكون من رؤساء الجمهوريات القطرية المتحدة .

جـ ـ محكمة دستورية اتحادية ، تنظر في :

اولا ــ تطابق دساتير وقوانين الجمهوريات القطريـــة المتحدة مـــع دستور الاتحاد .

ثانيا ــ تنازع الاختصاص بين السلطـــات الاتحاديـــة ، وسلطـات الجمهوريات القطرية المتحدة .

٧ ــ تمارس المؤسسات الاتحادية السلطات المخولة لهـــا بدستـــور الاتحاد . وتختص وحدها على نطاق الاتحـــاد بأكمالـه ، بممارسة شؤون الدفاع والسياسة الخارجية ، والتمثيل الدبلوماسي وجميع شؤون المـال والاقتصاد والاعـلام والتخطيط والمواصلات المتعلقـــة باقتصاد الحـرب واحتياجات الصمود والتحرير في معركة المصير العربية .

٨ ــ تتخذ القرارات في مجلس الاتحـــاد ، او مجلـــس الرئاسة ، بالاكثرية المطلقة ، لعـــدد اعضاء المجلس ، في جميـــع الشؤون المتعلقـة بصلاحيات المؤسسات الاتحادية ، وتكون القرارات ملزمـــة لجمهوريـات الاتحاد كافة .

● اما « مؤسسات الجمهورية القطرية المتحدة » فهي :

٩ ــ تتكون المؤسسات الدستورية في كـل مـن الجمهوريات القطرية المتحدة من :

أ ــ مجلس تشريعي ، يمارس السلطة التشريعية في نطـاق الجمهورية القطرية المتحدة ، وفق نظامها الدستوري القطري .

ب ــ رئيس الجمهورية القطرية المتحدة ، يمارس السلطـة التنفيذية فيها ، ويمثلها في مجلس الرئاسة في الاتحاد .

جـ ــ القضاء مستقل لا سلطان عليه لغير القانون . يتشكل ويمارس صلاحياته وفق احكام الدستور القطري .

١٠ ــ تمارس المؤسسات الدستورية في كل من الجمهوريات القطرية المتحدة ، سلطاتها وفق احكام دساتيرها القطرية ، في جميع الشؤون التـي لا تتعارض مع احكام الدستور الاتحادي ، والتـــي لا تدخـل في صلاحيات المؤسسات الاتحادية .

● واخيرا « احكام عامة » تقول :

١١ ــ يستهدف هـذا المشروع تلبية الضرورات القوميـة المصيرية والتوجه مباشرة نحو المعركة ، ودرء الاخطار المحدقة بالامة العربية ، والسير بها قدما على دروب التحرير والنصر . وعلى هذا الاساس فهو لا يمثل غير النواة الاولى للهدف الكبير وقاعدة الانطلاق نحـو تحقيقه . لذلك فـان دستور الاتحاد ، يؤكد على ضرورة التخطيط الدائم والعمل المستمر ، مـن اجل تطوير الاتحاد والارتقاء بمستواه قدما نحو الوحدة الكاملـة بين اقطاره المتحدة ، والاتجاه به نحو الوحدة العربية الشاملة .

١٢ ــ يعلن مشروع دستور « اتحاد الجمهوريات العربيـة » عـلى جماهير الامة العربية كافة ، ويصبح نافذ المفعول بعـد اقراره مـن شعب الجمهوريات المتحدة في استفتاء حر عام .

★ ★ ★

لقد آثرت ان انقل النص الكامل لهذا المشروع الـذي حملـه صدام حسين حينذاك الى سوريا ومصر ، ولكن جوابـا بالرفض او الموافقة لـم يصل بغداد من ذلك الوقت . وربما قيـل أن الدولتين كانتـا مشغولتين بالاعداد والتحضير لحرب اكتوبر ، والحق ان المشروع لم يكن ترفا للمتعة في زمن السلم ، وانما تقدمت به بغداد باعتبارها دولة مواجهة من وجهة النظر الاستراتيجية . وبالرغم من ان حكومة العراق لم تتلق جوابا عـن مشروعها الوحدوي في مواجهة العدو فانها :

● قامت بترسيخ الوحدة القومية من اسفل باتجاهها النشيط الـى زرع اسس الوحدة في الارض العربية ، عنيت الاسس الماديـة القائمة عـلى المشاركة في الانتاج الصناعي والزراعي ، وهـو الامر الذي يأخذ طريقـه ــ الان ــ الى النجاح التدريجي في علاقة بغـداد بالقاهرة . ان المشروعات الطويلة الامد بين العاصمتين ، وكذلك توطين الفلاحين المصريين في الاراضي العراقية من الشواهد الدالة على ان الوحدة القومية ليست مقصورة عـلى الجسور السياسية العلوية ، وانما هي تشق طريقها الى التحقيق العملـي عندما تقام الجسور الاقتصادية والاجتماعية بين جماهير الشعب العربي .

● ومن ناحية اخرى ، وبالرغم من ان القيادة العراقية لم تسمع عن بدء حرب اكتوبر الا من الاذاعات ، فقد بادرت بغداد بارسال جيشها الى الاراضي السورية حيث حقق من البطولات والتضحيات والانجازات ما يؤكد صدق النظرة الاستراتيجية التي ترى العراق دولة مواجهة وليست مجرد دولة مساندة او مجرد عمق جغرافي . أن الجيش العراقي لم ينزف دماء شهداء فحسب على هضبة الجولان ، وانما هو قد كرس مقولة عسكرية لا تقبل الشك مفادها ان وحدة الجيشين السوري والعراقي عنصر جوهري لا غنى عنه في بناء الجبهة الشرقية ــ جنبا الى جنب مع الجيش الاردني ــ وان هذه الوحدة ضرورة ستراتيجية في اية مواجهة مع العدو .

ولقد انتهت حرب اكتوبر بمشروعات التسوية التي رفضها العراق ولا يزال ، ولكنه لا يقف عقبة امام الآمال المعقودة عليها . ولقد كانت القيادة العراقية صريحة الى ابعد الحدود في حوارها مع الرئيس السادات : انها من ناحية المبدأ ترى ان التسوية السلمية المطروحة تؤدي في احسن الاحوال الى سراب وبلبلة وضياع وقت ، لان العدو الاميركي الاسرائيلي لن يتزحزح قيد انملة عن مخططه العدواني التوسعي . من هذا المنطلق فهي لن تشارك بأية صورة من الصور في العمل السياسي الدائر حول التسوية . ولكنها ، في اللحظة نفسها ، لن تقف حجر عثرة امام الجهود المبذولة في هذا الشأن ؛ كما انها تؤمن بأن تعارض الآراء في هذه القضية المحورية يتكفل به الحوار الموضوعي الهادىء لا تبادل الاتهامات وافتعال التوتر بين الاقطار العربية ، وهي اخيرا لن تتوقف عن دعم علاقاتها الاقتصادية والتقنية بالدول الشقيقة التي تختلف معها سياسيا .

وقد كان صدام حسين صريحا الى اقصى الحدود في حواره مع القادة السوفيات اثناء زيارته الاخيرة للاتحاد السوفياتي ، عندما وصل النقاش الى ازمة الشرق الاوسط ، فقال ما معناه ان التحالف العربي ــ السوفياتي لا يعني « التطابق » في وجهات النظر ، والعراق ــ مثلا ــ لا يوافق السياسة السوفياتية وجزء كبير من السياسة العربية بشأن قضية فلسطين . ولكن هذا لا يعني مطلقا المساس بالتحالف الاستراتيجي بين الاتحاد السوفياتي وحركة التحرر العربية ، انه التحالف المبداي القائم على معاداة الامبريالية والاستعمار والنضال المشترك من اجل النهوض الاجتماعي .

وفي البيان العراقي الليبي الاخير يؤكـــد الجانبان رفضهما القاطــع لمشروعات التسوية المقترحة ، ويصران على المضي في تعبئة القوى الشعبية من اجل تحرير الاراضي العربية وكامل التراب الفلسطيني .

فالعراق لا زال يعتبر نفسه من دول المواجهة لا مجرد دولـــة عربية شقيقة ولا مجرد دولة وطنية تقدمية ولا مجرد عمق جغرافي لسوريا . انــه دولة مواجهة بالمعايير الاستراتيجية الجديدة التـــي تمتزج فيهـــا الرؤية الجغرافية بالمصلحة القومية بالتطور العلمي التكنولوجي ـ خاصة في صناعة السلاح ـ بالتقدم الاجتماعي للطبقات الشعبية بالتاريخ « الخاص » الذي يربط هــذه الدولة بتلــك دون بقية الدول الاخرى التـــي تشاركهما بقيـــة الصفات « العامة » .

ولا زال المشروع العراقي لاتحاد دول المواجهة يحتفظ بكـــل حيويته القادرة على تغيير « وضع » الصراع العربي الاسرائيلي . انـــه في تقديري ليس مجرد مشروع للوحدة القومية ـ بالرغم من استفادته الواضحة مـــن المشروعات السابقة وارتقائه عليهـــا وتجاوزه لاخطائها ـ بـــل هـــو مشروع للوحدة الاستراتيجية دفاعا وهجوما ضد الوحدة الاستعمارية الصهيونية . لذلك اتضحت فيه البنية الديمقراطية والدستور العلماني والهدف الوطني والغايات التقدمية ، وقبل ذلك وبعده مضمون الحـــرب والسلام في الوطن العربي .

ولقد تغيرت الاوضاع حقا بعد حرب اكتوبـــر ، تغيرت عـــلى اتساع الساحة العربية ، كما تغيرت داخل العراق :

- أصبحت « التسوية السلمية » هي الحلم الرئيسي لمعظم القيادات العربية ، ومضمونها التنازل النسبي من الجانبين ، ونتيجتها المطلقة المأزق الفلسطيني .

- تغيرت خريطة التحالفات والخصومات العربيـــة تغيرا دراماتيكيا ، هكذا نشبت مثلا الخلافات الحادة بين مصر وليبيا من جانب وبين سوريـــا والعراق من جانب اخر ، بينما بـــدت الممالـــك والامارات العربيـــة حمائم السلام بين الجميع .

● انعكست التغيرات على الوضع اللبنانـــي انعكاسا باهظ التكاليف لجميع الاطراف المتصارعة .

● انتعشت المقاومة الفلسطينية على الصعيد الدبلوماسي دوليـــا ، وعلى الصعيد القتالي داخل الاراضي المحتلة في وقت واحد .. مـع تهديد مباشر لوجودها السلمي في لبنان .

● اصبح لبنان جبهة ساخنة في بحر بارد ، تناله اسرائيل كلما ارادت التسوية السلمية ضغطا على اللبنانيين والفلسطينيين . حتـى أن خراب الجنوب اللبناني لم يعد اقل تباهيا بالدمار عـن بعض المـدن المصريـة والسورية .

● انفتحت بعض الابواب المغلقـة للولايات المتحدة وسدت الطـرق المشروعة في وجه الاتحاد السوفياتي ، وحسمت بعض الاقطـار العربيـة اختيارها الاقتصادي والسياسي في اتجاه الغرب .

اما داخل العراق فقد حدث :

● ان توقف النزيف المزمن في ءالشمال بانهيار التمرد البرزاني وعودة الاكراد الى وطنهم .

● توقف ايضا النزيف المستمر عـلى الحدود مـع ايران ودخلت الدولتان مرحلة التعايش السلمي دون التفريط في المباديء .

● انتهجت حكومة بغداد سياسة مرنة ومفتوحة عـلى اتساع الوطن العربي بأن جعلت من ثروتها النفطية زادا قوميا لمن يحتاج ، ومـن الحدود الاقليمية جدارا لردع العدو يستند عليه الشقيق ، ومن تجربتها السياسية ملهما لا يعترف بتصدير الثورات .

● دعمت الجبهة الوطنية التقدمية بالتفادي الدائم لسلبيات موروثـة او متجددة ، وراحت تهيء الظروف امام البناء الديمقراطي الكامل البنيان بالاعداد الدقيق لانتخابات المجلس الوطني ووضع الدستور .

● نشطت خطة التنمية للدرجة التي يشعر معهـا المواطن الكـادح

بمعنى « التقدم الاجتماعـــي » واستعانت ـ بغير حـــدود ـ بالخبـــرات والكفاءات العربية .

● تفرغت القوات المسلحة ، بالتدريب والتحديث والتفكير العسكري المعاصر ، لحرب واحدة على جبهة واحدة ، هي حرب التحرير العربية .

وليس معنى ذلك ان العراق خلا من المشكلات والصعاب علـــى كافة الاصعدة : فلا شك ان الانعتاق من ربقة التخلف ، واحراز خطوات حاسمة في مجال التقدم الاجتماعي ، وبناء الوحـــدة الوطنيـــة الديمقراطية ، كلهـا تحتاج الى زمن مكثف الجهود . ولكـــن العجلة تـــدور في اتجاه التقـــدم التاريخي . وهذا هو المهم . ورغم ذلك كله فالعراق يبصر خللا موضوعيا في المعادلة التي تربط القطر بالامة ، انه لا يستجيب مطلقا لمغريات اللحظـــة التي تناديه بالانكفاء على الذات والبناء الداخلي ، لانه يدرك يقينا ان حياته مرتبطة مصيريا ـ لا قوميا فحسب ـ بدائرة عربية أوسع ، هي على الاقل . دائرة المواجهة ضد الاستعمار واسرائيل .. ومشروعه القديم لذلـك ليس مجرد « نواة للوحدة العربية » ، وانما هو في حقيقة الامر بديل للتسوية ..

هكذا كان المشروع قبل الحرب ..

وهكذا تتأكد نبوءته بعدها ..

فماذا ننتظر !

المحرر ١٩٧٥/٦/٢٣

فهرس

مؤلفـات غالـي شكري

١ ــ سلامة موسى وازمة الضمير العربي	ط ثالثة ١٩٧٥
٢ ــ ازمة الجنس في القصة العربية	ط ثالثة ١٩٧٨
٣ ــ المنتمي : دراسة في ادب نجيب محفوظ	ط ثالثة ١٩٧٨
٤ ــ ماذا اضافوا الى ضمير العصر	ط ثانية ١٩٧٣
٥ ــ شعرنا الحديث . . . الى اين ؟	ط ثانية ١٩٧٨
٦ ــ ثورة المعتزل : دراسة في ادب تدفيق الحكيم	ط ثانية ١٩٧٣
٧ ــ ادب المقاومـــة	ط ثانية ١٩٧٨
٨ ــ معنى المأساة في الرواية العربية	
الجزء الاول : الرواية العربية في رحلة العذاب	ط أولى ١٩٧١
٩ ــ مذكرات ثقافة تحتضر	ط أولى ١٩٧١
١٠ ــ عروبة مصر وامتحان التاريخ	ط أولى ١٩٧٤
١١ ــ ذكريات الجيــل الضائع	ط أولى ١٩٧١
١٢ ــ التــراث والثورة	ط أولى ١٩٧٣
١٣ ــ ماذا يبقى مــن طه حسين ؟	ط أولى ١٩٧٤
١٤ ــ من الارشيف السري للثقافة المصرية	ط أولى ١٩٧٥
١٥ ــ ثقافتنا بين نعم ولا	ط أولى ١٩٧٢
١٦ ــ العنقاء الجديدة : صراع الاجيال في الادب المعاصر	ط أولى ١٩٧٧
١٧ ــ غــادة السمان بــلا أجنحة	ط أولى ١٩٧٧

تـرجمـات

● ادب المقاومة في فيتنــام	ط أولى ١٩٦٩

الفـلاف

بريشة الفنان جورج البهجوري